

ابن زببل الرمال

آخرة الملائك

أو واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى



تحقيق: عبد المنعم عامر
أشれف على إعداد هذه الطبعة وقدم لها
د. عبد الرحمن الشيخ

الأعمال
المختارة

الطبعة الأولى
العامة للكتاب

يطالعنا هذا الكتاب بصورة شائقة للأيام الأخيرة لدولة المماليك الجراكسة قبل أن تطوى صفحاتها وتدخل مصر في ظلام الليل العثماني. وأهمية هذا العمل تتبع من كاتبه، فهو شاهد عيان عاصر تلك الأحداث التي يرويها، وشاهد وقائع المعارك الحربية التي دارت في الشام ومصر قبل أن يحكم العثمانيون قضتهم على أرضهم. وروى كيف لعبت الخيانة دورها في هزيمة المماليك، وكيف أسلمت يد الغدر آخر سلاطينهم العظام، طومان باي، إلى يد عدوه سليم الأول ليلقى حتفه مشنوقاً على باب زويلة. ثم يسترسل الكاتب في سرد قصته الدرامية الدامية ليروى كيف سعى هؤلاء الأمراء الخونة إلى خيانة العثمانيين بعدها، وكيف كانت عاقبتهم. ولما كان الشيخ أحمد الرمال مؤلف الكتاب يعمل في الأساس في مجال ضرب الرمل وقراءة الطالع، فقد كانتناوله للأحداث بسيطاً شعبياً، لكنه لا يخلو من أصلحة وعمق في الوقت نفسه. وقد توفر على تحقيق هذا العمل الأستاذ عبد المنعم عامر بهمة ونشاط، وأضاف له الكثير من التعقيبات والهوامش. واستكمالاً لعمله، حرصنا في تلك الطبعة على أن نقدم لها بدراستين هامتين أعدهما الدكتور عبد الرحمن الشيخ، تناول فيما شخص ابن زينب والمصادر التاريخية للعصر، والأسلحة والنظم العسكرية المستخدمة آنذاك. حيث حرص المؤلف على أن يتطرق لوصف الحياة الاجتماعية أحياناً، كما أشار للتراكيب الاجتماعي للقوات العسكرية على الجانبين العثماني والمملوكي.

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الاشراف العام

الدكتور / سعيد سرحان

رئيس مجلس الادارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

محزن عبد العزيز

سكرتير التحرير

علياء أبو شادى

المشرف الفني العام

حسننة خطية

آخرة المماليك أو

واقعة الاطهان الغوري مع سليم العثماني

الطبعة الثانية

تأليف

ابن زنبل

الشيخ أحمد الرمال (٩٦٠ھ)

تحقيق

عبد المنعم عامر

أشكر على إعداد هذه الطبعة وتقديمها

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



المكتبة المصرية العامة للكتاب



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٧

تقديم

القسم الأول

ابن زنبل الرمال ودخول العثمانيون لمصر

- | | |
|----|--|
| ١٩ | - ابن زنبل بين مصادر العصرین المملوکی والعمانی |
| ٤٤ | - الاسلحة والنظم العسكرية في عصر ابن زنبل |

القسم الثاني

وقعة السلطان الغوري

- | | |
|-----|---|
| ٦٥ | مقدمة |
| ٧٧ | ذكر خروج السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري من مصر
لملقاء السلطان سليم بمرج دابق |
| ٧٩ | ذكر نواب البلاد التي كانت في حكمهم |
| ٩١ | ذكر ارسال الفاصل من السلطان سليم الى الغوري |
| ٩٢ | ذكر ارسال الغوري الى السلطان سليم قاصدا |
| ٩٧ | ذكر التقاء الجمعين |
| ١٠٣ | ذكر قطع رأس السلطان الغوري |
| ١١٥ | ذكر اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر |
| ١١٩ | ذكر كتابة مرسوم الى السلطان طومانبای |
| ١٢٢ | ذكر خروج السلطان سليم الى مصر |

الموضوع

الصفحة

١٤٩	ذكر التقاء طومانبای مع جامن السيفی
١٨٦	ذكر تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة
٢٥٣	ذكر صلب السلطان طومانبای على باب زويلة
٢٥٦	ذكر صفة السلطان طومانبای ، رحمة الله تعالى
٢٥٨	ذكر تولية الكشاف ومشايخ العربان
٢٧٠	ذكر خروج الغزالى نائب الشام وسلطنته بها
٢٨٢	ذكر تاريخ قطع رأس الغزالى الخائن
٢٩٣	ملحق مصر والقاهرة
٣٠٥	مسرد مصطلحات
٣٠٩	كشاف

روايات (١) ورسائل (٢)

روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة

١	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٢	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة

روايات (١) ورسائل (٢)

في المقدمة (١) ورسائل (٢)

١	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٢	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٣	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٤	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٥	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٦	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٧	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٨	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
٩	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
١٠	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
١١	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
١٢	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة
١٣	روايات (١) ورسائل (٢) في المقدمة

تقديم

بقلم : د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

العنوان الأصلي لكتابنا هذا كما وضعه مؤلفه الشيخ أحمد الرمال (أى ضارب الرمل) هو (وقعة الفورى والسلطان سليم وما جرى بيتهما) لكن — ربما لدواعى الاختصار — جعل له عنوان (آخرة الممالىك) ، فاذا كان المقصود آخرة السلطنة المملوكية الرسمية التى بدت سنة ١٢٥٠ وانتهت بهزيمة جيوشها فى معركة مرج دابق بالشام سنة ١٥١٦ ومعركة الريدانية شمال القاهرة سنة ١٥١٧ ، لكن الأمر صحيحاً ، أما اذا كان المقصود باخرة الممالىك آخرة العنصر المملوكى (التركى والشركسى والجورجى أو الكرجى .. الخ) ، فالأمر غير صحيح اطلاقاً ، والا فمن هم الذين واجهوا حملة نابلس على مصر سنة ١٧٩٨ ليسوا هم الممالىك ! ثم البيست هناك جماعة من المؤرخين تطلق على الحقبة التالية لسقوط السلطة المملوكية اسم الحقبة العثمانية المملوكية ! بمعنى أنها حقبة كان للعثمانيين فيها الشعار والخطبة والسكنة ، وللممالىك مشيخة البلد ، والكتوفية واللتزام .. الخ أو بتعبير أكثر شعبية ، كان للعثمانيين (الصيت) وللممالىك الفنى ، بل ان ابن زنبل الرمال يحدثنا أن طائفه من الممالىك كان من رأيها عدم مقاومة السلطان سليم ، فهو بعد قليل سيرحل « ونفعل نحن ما نشاء » . ولم يقض نابلس على الممالىك كسلطة عسكرية ، والا فمن هم الذين نصب لهم محمد على مذبحه شهيرة في القلعة سنة ١٨١١ ؟ ليسوا هم الممالىك .. لقد قضى محمد على على عدد كبير من الرعوس المملوكية .. لكن سرعان ما نبت لهم رعوس جديدة ، فالممالىك كما هم (عرق) أو (عنصر) فانهم نظام يصعب بل يستحيل القضاء عليه بمجرد معركة أو بمجرد اصدار قانون أو غابة من القوانين . واذا كان محمد على قد قضى عليهم تماماً ، فمن هم اذن الذين واجههم ابنه ابراهيم سنة ١٩١٢ فيما عرف بمذبحة الممالىك الثانية

في صعيد مصر ، التي يحدثنا عنها المستشرق الفرنسي برييس دافين المعاصر للأحداث والذي تسمى باسم ادريس أفندي . يقول دافين (*) : « التجأ المالكين الذين فروا من مذبحة القلعة — حيث قتل ١٢٠٠ منهم — إلى النوبة ودنقلة . واضطروا مكروبين من ناحية بعثيات الطبيعة ، ومن ناحية أخرى بتعقب « ابراهيم بك » ايام — وقد أنهكهم قتال أقدموا عليه هنا وهناك دون ظفر — إلى أن يلتقطوا المأوى في الجبال التي يقطنها العبادلة والبشرية . وأجبرتهم هذه القبائل الهمجية على إداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيقة . وقد أنفق البكرات لامداد جنودهم بالملووت اللازم في قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت أيديهم . وعلى الرغم من التضحية بذخائرهم فقد هلكت جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

— فلما أملق المالك من راحة الحياة وأصبحوا يعانون ما لا يطاق من الضيق ، قبلوا أن يستمعوا لعروض الصلح التي أرسل ابراهيم الماكر متذوبيه يقتربونها عليهم وسط كربتهم . ولم يعدهم سلامة حياتهم فحسب ، بل وأن يعيدهم إلى مثل المناصب التي في مستوى رتبهم وأن يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط أن يعترفوا بحكومة محمد على .

ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فأنسنthem الدرس القاسي الذي تلقوه منذ عام خلا ، وكان على رأسهم بقوات مختلفون ، فقبلوا المقترفات . وفي نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال توافق صغيرة واتجهوا نحو أنسنا حيث كان مقر قيادة ابراهيم . فلما اجتمع المالك ورأى ابن محمد على أنه لا ينبغي انتظار قدوم آخرين تستدرجهم تلك الوعود المغربية ، أصدر أمره بالاجهز على اشتات هؤلاء الجنديين الذين كانوا ذوي صولة فيما مضى . وفي ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقى مائتا عبد أسود مصر سادتهم .

(*) دافين ، برييس (ادريس أفندي) ، ادريس أفندي في مصر ١٨٠٧ - ١٨٧٩
القاهرة ، كتاب اليوم ، جمعها وترجمها د . انور لوقا ، ص ٩٩

· وانتقت وساطة طبيب ابراهيم الفرنسي مملوكيين فرنسيين من طائلة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة مملوك آخر لقيته في إسنا يدين بتجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجمال » .

· وإذا كان محمد على وابنه ابراهيم قد تقضيا بغير رجعة على المالك عنصرأً ونظاماً ، فعلى من اعتمد محمد على في ادارة البلاد في جانب منها على الأقل ، وأين ذهب (أولاد الناس) وهم أولاد المالك الذين كانوا يعملون بالتجارة ، وادارة المشروعات الصغيرة والكبيرة معتمدين على صلات القرب والقربي بالعناصر العسكرية المملوكية الحاكمة ؟! قد يقال ان محمد على اعتمد ايضاً على عناصر من أهل البلاد ، وهذا صحيح بل ان الحركة الشعبية التي اوصلته للسلطة كانت في غالبيها من علماء الأزهر ، وهم في غالبيهم فلاحون عرقاً وتراثاً (١) كما اعتمد على عناصر جلبها معه - وهذا صحيح لكنه لا يستطيع - حتى لو أراد - أن يجتث كل القائمين على البنية الاقتصادية الأساسية في المدن ، كما لا يستطيع أن يشفل كل العناصر الادارية القائمة على جمع الاموال من الريف بعنابر جديدة مرة واحدة ، وعلى هذا يقى الحبک المملوکي كما هو مسيطرأً على طائفة الحباکين ، وبقى الصيرفي ، والحمامى ... الخ وليس المقصود هنا أن ابن الناس كان يعمل بنفسه في هذه المهنة أو تلك وإنما كان يدير هذا المشروع الصغير أو الكبير لحسابه ، وطبعاً لم يكن كل أولاد الناس على هذه الشاكلة نفسها فقد كان منهم العلماء ، والتجار وأصحاب الأراضي ، وبطبيعة الحال أيضاً لم يكونوا هم العنصر الوحيد ، فقد كان هناك عرب المغرب وعرب المشرق ، والعربان عامة .

· اتفقنا إذن أن المالك عنصرأً ونظاماً لم ينتهي سنة ١٥١٧ ، وعلى هذا يجب أن نحمل عنوان هذا الكتاب على مفهوم سقوط أو آخرة **السلطنة المملوكية الرسمية فقط** .

(١) عن العرق الفالب في الأزهر انظر :

ونقر ، ميكيل ، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني ، ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم - تحت الطبع . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويشير ابن زينل إلى قضية مهمة طال جدال المؤرخين حولها وهي : هل كان اتجاه السلطان سليم العثماني إلى مصر مجرد صدفة ، وإنما لم تكن هي هدفه الأساسي بخروج جيشه من الاناضول ، وهل كان خروج الغوري بجيشه إلى الشام مسألة فيها تسرع ؟

والواقع أن مثل هذا السؤال في محله تماما ، وتحتاج الإجابة عليه لبعض التأصيلات التاريخية قبل تحليل أقوال ابن زينل .

لقد كان الاتجاه الأساسي للدولة العثمانية منذ نشأتها اتجاه أوروبا ، بل لقد كان الاتجاه الأساسي للعناصر التركية حتى قبل قيام امارة أورخان اتجاهها أوروبا كذلك . لقد كان الإسلام دينا له وجود حقيقي في شرق أوروبا حتى قبل سقوط القسطنطينية في يد جيوش محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ ، بل لقد كان التوجه العام لبعض جماعات السلالحة – وهو أيضاً أتراك – كان في اتجاه الاناضول وشرق أوروبا ، ومنذ أيام أورخان الأول (١٢٦٦ م) ، كانت القوات العثمانية في البر الأوروبي (٢) ، وفي عهد مراد خان الثاني (تولى ١٢٦٠ م) كان الصراع الأساسي للعثمانيين مع الصرب (٣) ، وفي عهد بايزيد الثاني (تولى ١٢٨٨ م) كانت الفتوحات العثمانية الأساسية في شرق أوروبا (٤) . واستمر الحال على هذا المنوال حتى السلطان الثامن بايزيد خان الثاني (تولى ١٤٨١) بل إننا نكاد نحس في عهده أن الدولة العثمانية أصبحت أكثر ارتباطاً بأوروبا من خلال علاقاتها الخارجية الإسلامية بالإضافة لحركة فتوحها ، وتواجدها الفعلى في أوروبا . لنقرأ هذه السطور الموجزة في كتاب محمد فريد بك :

« وفي عهد هذا السلطان ابتدأت علاقات الدولة العلية مع مملكة الروس ، وذلك أنه بعد تفرق مملكة الروس الأولى عقب اغارة المغول على بلادهم وتسليمهم عليها مدة استخلاصها ايوان الثالث Ivan

(٢) معلومات متداولة ومعروفة . انظر على سبيل المثال تاريخ الدولة العلية العثمانية للأستاذ محمد فريد بك ، تحقيق د. احسان حقى ، ص ١٢٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٤) نفسه ، ص ١٢٩ وما بعدها .

وكان يلقب (دوق موسكو) ، وأعاد لها بعض مجدها السابق في سنة ١٤٨١ م وابتداط العلاقات بينها وبين الدولة في سنة ١٤٩٢ حيث وصل إلى القسطنطينية أول سفير روسي ومعه جملة هدايا للسلطان . وبعد ذلك بأربع سنوات أتى إليها سفير آخر واستحصل من الدولة على بعض امتيازات لتجار الروس .

وكذلك ابتدأت في عهده المواصلات الحبية مع مملكة (بولونيا) فعقدت معايدة بين الملكتين في سنة ١٤٩٠ وتجددت في سنة ١٤٩٢ ، لكن لم يلبث هذا الوفاق أن تكرر صفاوئه بسبب ادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد البغدان وأغاراة ملك بولونيا عليها فالترنم العثمانيون بطرد المجر منها والاغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير بغداد نفسه الذي قبل حماية الباب العالي عليها .

وكذلك ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية في ذلك الحين وبين البابا إسكندر السادس (بورجيا) وملك نابولي ودوق ميلانو وجمهورية نافورنسا فكان كل منهم يجتهد في محالفة الدولة العلية والاستعانت بجنودها البرية ومراكبها البحرية لمحاربة من عاداه وفي قطع علاقى الاتحاد بينها وبين من خالقه . وبتلك المساعي تمكן الإيطاليون من إيجاد الفرقة بين الدولة وبين جمهورية البندقة حتى تسبب عنها حرب عوان بينما فارسل السلطان جيوشه من البر والبحر لفتح مدينة ليپته من بلاد اليونان وكانت تابعة للبندقة ففتحت بكل سهولة عقب انتصار العمارة العثمانية على مراكب البندقة التي اعترضتها عند مدخل الخليج المسمى باسم هذه المدينة . وفي الوقت نفسه أغاروا على بلاد البشناق على أقليم فريبول ثم اجتاز نهر ايزيونطو ووصلت طلائعه إلى أرياس مدينة فيشنسا وأوقف القتال بسبب اشتداد البرد . وفي السنة التالية احتل العثمانيون شفور مودون وكورون وناورين من بلاد اليونان وكانت من أملاك البندقة في هذه البحار .

فخففت جمهورية البندقة ؛ بسبب تقدم الأتراك إلى مركز حكمتها ، من ضياع استقلالها واستغاثت بملك أوروبا المسيحية فاتجدها البابا وملك فرنسا ببعض مراكب حرية ، وساعدوها على محاصرة جزيرة

ميدلى لأشفال الدولة عن بلادها فلم تنجح بل فتح العثمانيون مدينة (روتنسو) الواقعة على بحر الأدریاتيك . ولو لا عصيان أولاد السلطان عليه ببلاد الأناضول كما سبجىء ، لفتحت باقى بلاد البنادقة لكن اضطرت أحوال المملكة الداخلية السلطان ، الى ابرام الصلح مع محاربيه بأوروبا وهم المجر والبنادقة ، فتم الصلح بينه وبين الجمهورية سنة ١٥٠٢ وفي السنة التالية تم الصلح كذلك مع ملك المجر » .

فما الذي حدث بعد ذلك مباشرة وجعل الدولة العثمانية تستدير الى الخلف ، وتستدير تاركة اوربا مستقبلة المشرق العربي ؟ ان هذه الاستدارة ، او تغير الاتجاه وبهذا الاتساع يبدو مناجنا او على الاقل يبدو غير واضح تمام الوضوح . حقيقة لقد واجهت الدولة العثمانية منفصالات خطيرة من الدولة الصفوية الإيرانية التي احتضنت منافسي السلطان سليم على العرش ، بل وحاولت فيما تقول بعض المراجع (٥) التحالف مع المالكين لضرب الدولة العثمانية ، وهو أمر مستبعد لاختلاف المذهب الدينى وهى مسألة كان لها تأثير كبير في هذا العصر ، وعملت الدولة الصفوية الإيرانية على نشر المذهب الشيعي في شرق الأناضول واستولت على العراق .. هنا كان لابد أن يسارع السلطان سليم لدرء هذا الخطر ، فهزم بالفعل جيوش الفرس بزعامة الشاه اسماعيل الصفوی في وقعة تشنالديران (أو جالديران) شرق الأناضول سنة ١٥١٤ م ، وفر الشاه الى داخل بلاده .

وهنا نجد خلافا واضحا بين رواية محمد فريد ورواية ابن زنبل ، محمد فريد يقدم لنا الفتح العثماني لمصر كعمل مقصود انتقاما من مشروع تحالف (لم يتم) بين الفرس الصفويين وبينهم ضد العثمانيين بينما ابن زنبل يذكر أن السلطان الغوري أوى قرقرود اخا سليم ومنافسه على العرش « .. فهرب أخوه قرقرود الى مصر واستجار بالغوري . فلابد أن يمكنه منه خاشتدت العداوة بين الغوري وبينه حتى وقع ما وقع » وينظر ابن زنبل ايضا أن علاء الدولة عامل الغوري على

(٥) محمد فريد بك . مرجع سابق ذكره ، ص ١٨٩ .

مرعش في الشام رفض أن يبيع الأعلام والمؤمن لجيوش السلطان سليم الذي كانت تتقدم في معركة دفاعية ضد الشاه اسماعيل الصفوي ، مما أدى إلى خسائر كبيرة في الدواب والعسكر العثمانية .

« قال الراوى : وما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليم لما غزا على اسماعيل شاه سلطان العجم وجاء - أى السلطان سليم - بالعساكر على البيرة (بين حلب والثغور العثمانية) وكان نائبه يسمى علاء الدولة من طرف جانب السلطان الفوري ، فأمر علاء الدين أهل مرعش الا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئاً من المالك ولا من غيرها ، ثُمّات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بين الفوري وسلمي .. وحصل للسلطان سليم من ذلك غم لا مزيد عليه .. فأشار عليه وزراؤه أن يرسل يعلم الفوري بذلك .. فأخابه الفوري بأن علاء الدولة عاصٍ أمره .. ثم كتب الفوري إلى علاء الدولة خفية يشكّره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم .. ». نحن هنا إزاء رواية تظهر السلطان سليم والجيوش العثمانية حرية على علاقات سلمية مع الملك ، فالجند العثمانيون يريدون شراء المؤمن ولم ينبوها ، والسلطان سليم يشكّو للفوري فعل عامله ، وكان كل عسكر الفوري عند خروجه من مصر يعتقدون أنهم إنما خرجوا من مصر مدججين بالسلاح مع الفوري ؟ لأنّه ينوى عقد صلح بين الشاه الصفوي وبين السلطان سليم فيما يقول ابن زببل ، وهو شاهد عيان ، وأرسل الفوري عشرة من عسكره المدججين بالسلاح لمقابلة السلطان سليم فلما دخلوا عليه أصطفوا صفا واحداً « فنظر إليهم السلطان سليم ملياً وأمتلاً بالفيفظ ثم قال للأمير مغلبـيـ : يا مغلبـيـ ، استاذك (أى الفوري) ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا ؟! وإنما أرسـكـ بهؤلاء العشرة يرعب بهم قلوب عسكري ويخوفهم برؤية أجناده ، لكن أنا أكـيدـه بمكـيدةـ أعظم من مكـيـتهـ ، ثم أمر برمي رقبة مغلبـيـ وجماعتهـ » وبعد وساطة « أمـرـ بحبـسـ مغلبـيـ » رمى برقبة العشرة قدام أوطاقـهـ (خيمـتهـ) واحدـاً بعد واحدـاً وهو ينـظرـ إليـهمـ .. ثم أحـضـ مـغلـبـيـ وـحـقـ ذـقـنهـ والـبـسـهـ طـرـطـورـاـ ، وأـرـكـبـهـ حـمارـاـ

أخرج معقوراً ، وقال له : قل لاستاذك يجتهد جهده واه أنا حضرت إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف .. » وهكذا بدأت الحرب .

نحن إذاء رواية تظهر الغوري متحدياً مستفزاً وتظهر أنه كان يمكنه تجنيد مصر والشام هذا الفزو العثماني ، خاصة أن الرمال يقول لنا أنه — أى الرمال عندما تنبأ للغوري — من خلال ضرب الرمل — أن ملكه سينتهي على يد من أول اسمه (سين) ، لم يخطر على بال الغوري فقط أن هذا الشخص يمكن أن يكون السلطان سليم ، إذ إن الغوري كان متاكداً أن هذا لا يمكن أن يكون لأن الروم (يقصد العثمانيين) لا يمكن أن يجرروا على قتاله أو دخول مملكته ، وإنما كان الغوري يشك في واحد من أمرائه المالك هو الأمير سبياً ، لذلك كان السلطان الغوري يرفض كل نصيحة من سبياً نائب الشام الذي نصحه بالبقاء في مصر وأن يقوم هو بقتل ابن عثمان عنه لكن الغوري رفض ، وكان كلما كتب سبياً إلى الغوري يحذر من خaire بك نائب حلب « وإنه ملاحد على إبناء جنسه » لم يكن الغوري يسمع له لاعتقاده أن سبياً هو المقصود بنوة العراف (الرمال) بأن زوال ملكه يكون على يديه .

« .. وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة هي من سبياً ، وما تصدّه إلاأخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف السين ، ولا يظن أو يخطر في فكره أن السلطان سليم يقدر يدخل أرض مصر أبداً لما يعلم من شجاعة الجراكمة .. »

ما دام الأمر كذلك فلم كل هذه التحرشات والاستفزازات !؟ ومن الباحثين الغربيين الذي هدته تحلياته إلى شيء مما ذكره ابن زينل ، الباحث ميكيل ونتر Michael Winter^(٦) الذي يذكر أنه « .. حين قاد سليم جيشاً قوياً في شمال الشام لم يكن واضحًا ما إذا كان يوجه جيشه نحو المالك أو الفرس . وكان تقدم الجيش المملوكي بقيادة قنصلوه الغوري خطوة غير عادية حتى لو كانت دفاعية فحسب ، وكان لسليم مبرره في اعتبارها عملاً حربياً .. » .

(٦) في كتابه : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني . تحت الطبع . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم .

ويتول في موضع آخر : « .. ومن الأمور بالغة الأهمية للتاريخ السياسي والاجتماعي لمصر تحت الحكم العثماني أن العثمانيين سرعان ما قرروا البقاء على المالك وتم دمجهم في الحامية العثمانية ... وفي سبتيه قبل أن يغادر سليم مصر مباشرة صدر عفو عن المالك فخرجوه من مكانتهم يرتدون ملابس الفلاحين .. » بل ويحدثنا ونتر أن العثمانيين كانوا قد قدموا المساعدة البحرية للمماليك قبل سقوط دولتهم « وفي نهاية القرن الخامس عشر صارت العلاقات الدولية في الشرق الأوسط أكثر تعقيداً فجأة ، اذ حرم اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند مصر من عوائد التجارة في التوابل ؛ فأئسهم ذلك في زيادة مصاعب الدولة الشديدة أصلاً ، كما أدى امتداد النشاط البرتغالي التجارى والعسكري إلى المحيط الهندي إلى تهديد البحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز » ، ولم يستطع المالك أن يتذدوا موقفاً ضد البرتغال لأنهم لم تكن لديهم قوات بحرية ؛ مما دعاهم إلى الاتجاه للعثمانيين من أجل العون البحري وحصلوا عليه .. » .

★★★

نحن في هذا الكتاب نتعامل مع رمال أو تاريء للطالع ومن هنا نكل ما يحدث وما سيحدث مقدر ومكتوب أو بتعبير آخر يجري بالقضاء والقدر خيره وشره من الله سبحانه ، وفي ظل هذا من المفروض أنه لا يبحث عن « سبب » للأحداث ما دامت الأمور واقعة « حتى » منها كان ، وهي فكرة في حقيقة الأمر شائعة ومبسطة في مجتمعات الشرق ، لم تكن تمنع من إتخاذ الأسباب في العصور الظاهرة وكانت فكرة بأعنة على السلبية في عصور الانحطاط (٧) .

إنه يعرض لنا الأحداث وكان الغوري يسعى لهزيمته بنفسه ، ويبحث عن حتفه بظله ، ولا تخلو صفحة من الكتاب من عبارات على شاكلة « إذا أراد الله بقوم خيراً وفق بينهم ، وإذا أراد بقوم شراً ف季后هم

(٧) راجع مونتجمرى وات : القضاء والقدر في فجر الإسلام وضياء ، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب - سلسلة الألفي كتاب الثاني .

وأوقع الخلفَ بينهم « ، » وكل ذلك حتى يجري القضاء والقدر « ، » وإذا أراد الله بأمر بلغه « ، » فسبحان من يغير ولا يتغير « ، » فسبحان من لا يحول ولا يزول ولا تراه العيون « ، » ولا تعاند تغلب ولو أنك سلطان « ، » إن ينصركم الله فلا غالب لكم « ، » ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم « ، » سبستان درجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ، ان كيدي متيين — آية « ، » والله في هذه ارادة « ، » لكن اذا تم أمر ترقب زواله اذا قيل تم « ، » والله يفعل ما يشاء « ، » والله التدبير « ، » الحى ما له قاتل « ، » اذا نزل القدر عى البصر « ، » لكل شيء آفة من جنسه « ، » الله يخون الخائن « ، » من لم يمت بالسيف مات بغيره « .. وغیر ذلك كثير .

ورغم هذا ، فالحق أن ابن زنبل لم يغفل تناول الأسباب الحقيقة لهذه الهزيمة المذكورة فهو يؤكّد في صفحات كتابه أن جيش الغورى كان عامراً بالصراع الداخلى ، وأنه قدم في معركة مرج دابق فشّات العسكر الماليكى الذى كان يخشى يأسها أو التى كان بينه وبينها عداوة ، بينما احتفظ بملكه المجلبي بعيداً عن القتال ، مما أوغر صدر الفئة الأولى بل وامتنع عن القتال ، ولم تطع الأوامر في ميدان القتال ، كما يشير إلى أن شرافق الماليك كانت تنهب أبواب الماليك القتلى ويفصل في تناول الصراع الداخلى بين العناصر المملوكية المختلفة . والواقع أن معركة مرج دابق حسمت منذ اللحظات الأولى ، ولم يدخل المعركة ضد العثمانيين إلا عدد قليل رغم ضخامة أعداد جيش الغورى . إنها أشبه ما تكون بمعركة الساعات الست في التاريخ المعاصر ، لقد حقق سليم نصراً بلا حرب في معركة مرج دابق ، وكان ميدان المعركة على الجانب المملوكي غوضى هائلة ، انسحاباً ، وتأملاً ، وفي أثناء الانسحاب نهب الماليك بعضهم بعضاً ، وما ذكرته بعض المراجع من مقتل على الطرف المملوكي لم يكن الا حالات بطولة فردية ، تم التركيز عليها دون التفات للصورة العامة . وظهرت المقاومة المملوكية – الى حد ما – واضحة في القاهرة ، على يد طومان باي ، ورغم استمرار الصراعات المملوكية ، وطبع كل ملوك في أن يكون سلطاناً ، الا أن الصورة التى يقدّمها لنا ابن زنبل تظهر بطولات مملوكية .

وقد أشار ابن زنبل لكتابه النيران العثمانية كسبب من أسباب حرنيمة الملاليك.

القسم الأول

ابن زبده الرحال ودخول

(العثمانيون) مصر

هراء بقلم: د. عبد الرحمن عبد الله الشيبي

Cloud
Cloudy

Cloudy

Cloudy

١ - ابن زنبل

بين مصادر العصررين المملوكي والعثماني

الباحثون في التاريخ العثماني عامه ، وتاريخ مصر العثمانية خاصه لا غنى لهم عن الرجوع لمصادر الحقبة المملوكية الخالصة (١٤٥٠ - ١٥١٧) ، خاصة من يهتم منهم بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للتاريخ ، لسبب بسيط وهو ان العناصر الحاكمة — كما سبق القول — كانت في الغالب هي العناصر نفسها في العصررين المملوكي والعثماني على سواء ، بل وبعد ذلك ايضا ، كما ان النسبيج الاجتماعي وعلاقات الانتاج كانت في غالبيها واحدة مع اختلافات بسيطة ، رغم محاولات الدولة العثمانية فرض الاصلاح باصدار القوانين وهو امر غير مجد — كما سبق القول — ما لم يصاحب تغير في البنية الاجتماعية التي تعد القوانين أحد أساليب تغييرها لكنها بالتأكيد ليست الأسلوب الوحيد .

وقد انعكس النسبيج الاجتماعي حتى على فئات المؤرخين أو أنواحهم ، فليس بين ايدينا المؤرخ الفلاح او ذو الاصول الفلاحية في العصر المملوكي الخالص ، اللهم الا اذا اعتربنا قصيدة ابن شادوف ذات جذور تمتد للعصر المملوكي . وهذه القصيدة شرحها في العصر العثماني يوسف الشريبي و هو فلاح ايضا فيما يبدو ، او له اصله فلاحية على الأقل (١) ، وقد وصل الباحثون المؤرخون (٢) الى ان أبي شادوف ليس شاعراً معروفاً بعنده وانما هو « صوت مجهمول عن حال الفلاح » . انه شاعر شعبي مجهول » والمعلوم ان الأشعار الشعبية المجهولة قائلها ، عادة ما لا يكون واضعها مؤلفاً واحداً ، وانما هي بمثابة ثراث تراكمي يضيف اليها كل من يصادفها اذا كانت لديه ملحة الشعر ،

(١) في كتابه « هز القحروف في شرح قصيدة ابن شادوف » .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : قصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، الهيئة العامة للكتاب - سلسلة تاريخ المصريين .

ومن هنا فليس هناك ما يمنع أن يكون لهذه القصيدة الشهيرة أصولاً تعود إلى العصر المملوكي الخالص (١٢٥٠ - ١٥١٧) وأنها ان شاعت في العصر العثماني ، فليس هناك ما يمنع من توغل جذورها عملاً إلى أبعد من ذلك ، أما شارح القصيدة (يوسف بن محمد بن عبد الجود بن خضر الشريبي) فهو حقيقة تاريخية ، وأنه شرح قصيدة أبي شادوف هذه بناء على طلب الشيخ أحمد السنديوي أحد علماء الأزهر (٣) .

وفيما عدا قصيدة أبي شادوف أن جاز استنتاجنا السابق ، فالمؤرخون في العصر المملوكي أما عسکر خالصون أو عسکر اداريون ، أو أولاد عسکر (أولاد مماليك) وهم المعروفون باسم (أولاد الناس) ، وإن كان خاير بك قد أطلق عليهم في بداية العصر العثماني (أولاد الصرمة) ووصفهم بأنهم صرم أولاد صرم (بضم الصاد وفتح الراء) وجعل لها الباحث ميكل ونتر Michael Winter (٤) مقابلة لجليزيا Old Shoes ، أي الأحذية القديمة . ومن المعروف أن خاير بك هو أيضاً بطلوك وكان من أصول عرقية مختلفة .

ومن هنا تأتى أهمية ابن زنبيل الريال ، فقد كان الرجل ضارباً للرمل وليس هذه المهنة من المهن العسكرية أو الإدارية ، كما أنه لم يكن من (أولاد الناس) الذين هم أولاد الصرمة على حد تعبير خاير بك فيما بعد . وكان لهاته ابن زنبيل أثرها في عرضه للأحداث التاريخية ، وطريقته في تفسيرها كما سبقت في سياق هذه الدراسة .

وسنتعرض في السطور التالية أهم الكتابات التاريخية في العصر المملوكي (١٢٥٠ - ١٥١٧) ، مع نسبة كل مؤرخ للفترة التي ينتهي إليها (عسکرى خالص - عسکرى ادارى - ابن ناس ...) . إن أول من تلقاء هنا هو بيبرس الدوادار الناصرى المنصورى (ت ١٣٢٥) وهو أمير كان من مماليك المنصور قلاوون ، ومن مماليك ابنه الناصر محمد بن قلاوون من بعده ، وكان بيبرس الدوادار قائداً عسكرياً لاماً ، بالإضافة

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، قصول ، ج ٥٧ .

(٤) في كتابه : Egyptian Society under ottoman rule 1517-1798.

إلى وظائفه السياسية ، كما كان — كما هو واضح من اسمه — دوادار ، إى شاغل وظيفة الدوادارية ، إى حمل دوامة السلطان وأبلاغه بالرسائل الصادرة عنه وتقديم الشكاوى إليه (٥) . ولبيبرس هذا كتابان هما : (التحفة المملوكية في الدولة التركية) و (زيدة الفكر في تاريخ الهجرة) والمقصود بالدولة التركية في عنوان كتابيه الأول دولة المماليك البحرينية ، أو الدولة المملوكية الأولى ؛ لأن العرق الغالب على مماليك هذه الدولة كان هو العرق التركي ، وكتابه الثاني بمثابة تاريخ عام للإسلام ينتهي سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ مـ . ومن الطبيعي أن يكون الاهتمام الأول لبيبرس الدوادار في كتابيه هذين هو التاريخ العسكري والسياسي ولم يشر الرجل في قليل أو كثير لأوضاع الفلاحين ، ولا حتى البدو (العربان) .

والمؤرخ العسكري الثاني هو أبو الفداء المشهور (ت ١٣٢١) وهو من سلالة أيوبية ولكنه اندمج في الحياة العسكرية والسياسية للمماليك ، فقد صحب أبياه مع جيش المنصور قلاوون للهجوم على حصن المرقب الذي كان بأيدي الصليبيين سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ مـ وكان أبو الفداء خيراً في شئون الحرب ، فقد كان « يخرج مع جيوش المماليك سواء ضد المغول أو الأرمن ، كما كان علياً بالأحداث العسكرية والسياسية التي كان هو شاهد عيان لها ، بل وشارك في صنع بعض أحداثها » (٦) . وكتاب أبي الفداء المشهور هو (المختصر في أخبار البشر) ومن الطبيعي أن يذكر أبو الفداء على تفاصيل أخبار الشام التي فيها نشأ ، ومن الطبيعي أيضاً لا يذكر شيئاً عن فلاحي مصر أو الشام أو حرافيش مصر أو زعرا الشام (الزعرا والمفرد ازعر) ، هو ابن البلد غير الملوك ولا البدوي في بلاد الشام) وإن اهتم بأخبار العربان باعتبارهم عناصر عسكرية ، ويعرض أبو الفداء تاريخه منذ بداية التاريخ الإسلامي على التسلق الحولي (عام فعام) ويركز على وفيات الأعلام حتى سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ مـ

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور . العصر المملوكي في مصر والشام . القاهرة . النهضة العربية ، ١٩٦٥ ، ص ٤١٦ .

(٦) قاسم عبد قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند المسلمين . القاهرة . دار المعارف ، ١٩٨١ ، ص ١٢٩ .

وعندما سقنا هذين المثالين على المؤرخين العسكريين ، كنا نقصد أنهم عسكريون بالمفهوم الملوكى ، فلم يكن هناك فصل بين ما هو عسكري وما هو سياسى في هذا العصر ، فكل عسكري هو سياسى بالضرورة ، وهو عسكري في نطاق مصلحته الشخصية أو نطاق مصلحة مجموعة أو شرذمته أو عرقه ، فهو يمارس السياسة لصالحه في نطاق مجموعته ، وهو يمارس السياسة في نطاق مجموعته ضد المجموعات الأخرى ، وهو يمارس السياسة إذا وصل إلى السلطنة للاحتفاظ بمقعده خلال دوامة من الصراعات الداخلية ، وعيشه في الوقت نفسه على الحدود متربقة العدو الخارجي . . . انه بالضرورة (بتاع كله) وهو مصطلح متغلل في التاريخ المصرى ، لكنه ان كان صالحًا لعصور مضت ، فقد أصبح مدعاة للتخلص في عصور لاحقة .



فإذا انتقلنا للمؤرخين الإداريين وهم ذوو خلفية عسكرية ودينية بالضرورة ، والاختلاف بينهم وبين المؤرخين العسكريين الآتف ذكرهم في الدرجة لا في النوع ، فقد ناق المؤرخون الإداريون زملاءهم الآتف ذكرهم في زيادة تبحرهم في علوم عصرهم ، وتوليهم منصب متعلقة بالتنظيم والإدارة ودواعين الإنشاء ، ومن هؤلاء ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) وهو من أسرة تولت ديوان الإنشاء بمصر لفترة تقرب من قرن من الزمان وكان تلميذاً لابن تيمية المشهور ، وعمل بالقضاء وقد أصابه بعض مما يصيب القريبين من السلطان فأمر السلطان الناصر محمد بمصادرة أمواله وسجنه ثم عفا عنه ، وفي فترة لاحقة عزل من وظيفته ورسم أو فرض عليه الترسيم وهو مصطلح يعني تحديد الأقلام . وكتاب ابن فضل الله العمرى الذى بهمما هو (مسالك الأمصار فى ممالك الأمصار) وهو كتاب موسوعى لكنه يحوى جزءاً تاريخياً حوليا يصل إلى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، ومن المتوقع أن يشير مثل هؤلاء المؤرخين إلى عناصر المجتمع كلها من فلاحين وعربان وأهل ذمة بالإضافة طبعاً للطبقة الحاكمة .

اما أبو العباس أحمدالمعروف بالقلقشندى لنشأته فى قرية قلقشندة (قرقشندة كما ينطقها العرام - فى محافظة القليوبية مركز طوخ الآن) وصاحب كتاب (صبح الأعشى فى صناعة الأنشا)، فقد التحق بالعمل فى ديوان الانتشا فى عهد الظاهر برقوق واستمر فى العمل فيه حتى وصل لدرجة رفيعة وروافته متىته سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م، وهو لم يكتب كتابه هذا ليكون مرجعاً للباحثين فى التاريخ وإنما ليكون دليلاً للعاملين فى ديوان الإنشاء (قريب من وزارة الخارجية الآن) ومن هنا؛ فإننا نجد فيه فيضاً من المعلومات عن المراسلات والألقاب والتواقيع كما تعرض لفئات المجتمع والقبائل وغيرها ذلك.

وفي فترة من الفترات ، كان من غير المقبول أن يعمل أبناء المالك في البلاك العسكري بحكم انتقاء مبدأ التوريث في المجال العسكري (مناصب أو اقطاع) فلم يكن أمام هؤلاء الا العمل في ميدان التجارة أو إدارة مشروعات حرفية وخدمية (حمامية أو حباشة .. الخ) واجبها طائفة منهم للعلم ، وقد عرف هؤلاء بأنهم (أولاد الناس) فهم ليسوا أرقاء كآبائهم وإنما لهم آباء معروفون وأمهات معروفات ، وكان أهل مصر يحترمونهم ربما أكثر من آبائهم على أساس أنه « لم يمسسهم الرق » وإنما ولدوا أحراراً ، وربما لم يكن أهل مصر على وعي بأن (للرق) أو (للعبودية) أو « لجماعة المالك » تراثاً يورثونه لأبنائهم جيلاً بعد جيل كما يورثونهم ملامح وجوههم وبياض بشرتهم .. الخ ، وتمة سمة اجتماعية أخرى لأولاد الناس هؤلاء هي أنهم نشأوا مدللين في (حجور النساء) على حد التعبير الشائع ؛ فلم يتمكن آباؤهم بتعليمهم فنون القتال وانصرفوا عنهم لشراء مالك جدد كانوا أدواتهم في الحرب والصراع . ولاحظ أن نظرة هؤلاء المالك من أولاد الناس للتركيب الاجتماعي لم تكن تختلف عن نظرة المؤرخين العسكري ، فهم يهتمون بالتاريخ العسكري والسياسي ويسجلون وفيات المشاهير ، ولا يشيرون للتاريخ الاجتماعي إلا لما ، وعندما كنت أعد دراسة لرحلة عبد اللطيف البغدادي لمصر التي تعرض فيها لفترة جفات الملت بمصر فاكلت الأخضر واليابس حتى

أكل الناس الرم و الجيف بل ولحوم البشر أيضا ، رأيت أن أعارض ما ذكره عبد اللطيف البغدادي بما ذكرته المراجع الملوكيّة ، فهالني أن المؤرخ من أولاد الناس كان يخصّص أكثر من ثلاثة أرباع ما يكتبه عن العام الذي يؤرخ له لوفيات الأعيان من أمراء وقضاة ، وبخصوص أقل من الربع بقليل للقتن والدسائس بين جماعات المالكية ثم لا يفرد للمجاعة وأحوال أهل البلاد الا سطراً أو سطرين يختتمها بانخفاض التل ، وإن الناس من أهل البلاد أكل بعضهم بعضاً ، وانتهى الأمر عند ذلك . على أية حال ، فمن مؤرخي هذه الفتنة :

— ابن أبيك ، صاحب كتاب (كنز الدرر أو الدر المطلوب في أخبار بنى أيوب) وعرفنا شيئاً عنه من خلال الاشارات الواردة في كتاب (العصر المالكي في مصر والشام) (٧) .

— وابن دقماق ، صاحب كتاب (الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطانين) (٨) .

— وخليل بن شاهين الظاهري في كتاب (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) .

وابن تغري بردي صاحب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وهو كتاب مشهور .

— وابن إياس صاحب بداع الزهور في وقائع الدهور ، واسميه الكامل أبو البركات محمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) وقد تناول ابن إياس الوقائع التاريخية نفسها التي تناولها ابن زينل الرمال وتعرض بالتفصيل للمعارك بين المالكية والعثمانيين قبل سقوط دولته المالكية ودخول مصر في حوزة الدولة العثمانية ظاهراً ، وإن ظلت في حقيقة الأمر على نحو آخر في أيدي المالكية . ومن الطبيعي أن يكون ابن

(٧) تأليف د. سعيد عبد الفتاح عاشور .

(٨) قرأنا ما أورده د. عاشور عنه في كتابه الأنف ذكره .

إيس (ابن الناس) متعاطفاً مع المالك حزيناً لذهب دولتهم غير مهرب بالعثمانيين غير سعيد بقيام دولتهم ، ونفضل هنا ايراد جاتب من بدائع الدهور يتناول فيه الحرب بين طومان باي والقوات العثمانية ، وهو جاتب مما تعرض له ابن زنبل أيضاً ليقف القارئ على طريقة التناول عند الكاتبين ، وعدم اختلافهما في الحقائق الأساسية وإن كانت المهمات الاجتماعية ، وطريقة التفكير الشائعة في هذه الفترة أوضح ما تكون عند ابن زنبل لأسباب وضحتها في غير موضع من هذه الدراسة . فيما يلى نص ابن إيس عن موقعة الريadiane (شمال القاهرة) وهي الواقعة التي أصبحت بعدها السلطنة المملوكية في حكم المنتهية (٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م) (٩) :

« . . . فلما كان يوم الخميس التاسع عشر من ذى الحجة (١٠) وقعت كابينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذلك الا أن السلطان « طومانباي » لما توجه إلى الريadiane ونصب بها الوطاق (١٠) ، فمحسن الوطاق بالماكحل (الدافع) ، وصف هناك الطوارق ، وصنع عليها تسلير من الخشب وحفر خندقاً من الجبل الأحمر إلى غيطان ، وقد تقدم القول على ذلك ثم ان السلطان جمل خلف الماكحل نحو ألف جمل وعليها زكائب فيها عليق ، وعلى أقبابها صنائق كبار بيض وحرم يخفقون في الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، وأن الحصار يقيم مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ، فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أيام يومين ، فلم يجسر السلطان طومانباي أن يتوجه إليهم ، ولو توجه إليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريadiane لكن عين الصواب » .

« فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره رحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومانباي ذلك زعق النفير

(٩) ما بين القوسين اضافة من الباحث .

(١٠) الوطاق هي الخيبة الكبيرة تعد للقيادة ، وتعنى أيضاً خيام المعسكر والجماع وعلاقات . عن أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدليل .

في الوحلق ونادي السلطان العسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان فركبت الأماء المقدمون ودقوا الطبول حربياً ، وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الواقعة التي كانت في مرج دابق ، فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لا بن عثمان وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كبيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك الدوادار . وقتل في هذه المعركة ابن ابن سوار قتل في الريدانية ودفن على جده سوار في طريقه التي تجاه تربة يشبك الدوادار ، وكذلك قتل هناك سنان باشا وزير ابن عثمان الكبير » .

« ثم ان العثمانية تحاربوا وجاءوا أفواجاً أفواجاً، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطربوهم بالبندق الرصاص ، فقتل من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الأماء المقدمين جماعة ، منهم أزيك المكحل وآخرون منهم ، وجرح الآتابكي سودون الدواداري جرحاً بالغاً وقيل انكسر فخذذه في غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار . فلم تكن الا ساعة يسيرة مقدار خمس درجات ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبراً وتمت عليهم الكسرة ، فثبتت بعد الكسرة السلطان طومان باي نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه في نهر قليل من العبيد الرماة والماليك السلاحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، فلما تكاثرت عليه العثمانية وزرائى العسكر قد قتل من حوله ، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنفج (١١) السلطاني وولى واحتفى ، وقيل إنه توجه نحو طرا (١٢) وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر ... » .

« ... ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا إلى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة ، فتوجهوا جماعة من العثمانيين إلى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس

(١١) العلم أو الشارة .

(١٢) سجن معروف بهذا الاسم .

وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريادانية فاطلقواهم أجمعين ، واطلقوا من كان في سجن الدليم والرخمة والقاعة أجمعين . ثم توجهوا إلى بيت خاير بك المعار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان الماشرين ومساتير الناس وصارت الزعرا (١٢) . والغلمان ينهبون بيروت في حجة العثمانية ، فانطلق في أهل مصر حجرة نار ، ثم دخلوا جماعة عدة من جمال السقاين وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك ، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد (١٤) والعبد السود ، واستمر النهب عملا في ذلك اليوم إلى بعد المغرب ، ثم توجهوا إلى شون القمع التي بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال . وهذه الحادثة التي وقعت لم تمر لأحد من الناس على بال وكان ذلك مما سبقت به القدار في الأزل (١٥) ، وقال الشيخ بدر الدين الزيتوني في هذه الواقعة :

نبكي على مصر وسكنها قد خربت اركانها العامرة
واصبحت بالذل مهقرة من بعد ما كانت هي القاهرة

« . . . ومن هنا نرجع إلى أخبار ابن عثمان ، فإنه لما نزل الوطاق الذي نصبه في بولاق عند الرصيف أقام به إلى يوم الثلاثاء رابع المحرم ، فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الاشرفت طومان باي بالوطاق واحتاط به ، فاضطررت أحوال ابن عثمان للغالية ، وظن أنه مأخذ لا محالة ، وأشيع أنه هجم عليه بجمال وهي محملة ساسا وأطلق فيها النار ، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجم الغفير من الزعرا وعياق بولاق من النووية وغيرها وصاروا يترجمون بالمقاليع وفيها الحجارة ، واستمروا على ذلك إلى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار

(١٢) الزعرا ، جمع أزعر ، والمقصود العوام من أهل المدن من ليسوا معاياط أو بدوار ، وهي تقابل الفلاحين من أهل القرى .

(١٤) المرد جمع أمرد أي لم تنتهي لحيته ولم يظهر شاربه ، والفرض مفهوم .

(١٥) فكرة الجبر أو المقدر والمكتوب وهي أوضح ما تكون عند ابن زنبل كتفسير للأحداث ، كما وضحتنا في غير هذا المكان في هذه الدراسة .

الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشيب منها النواصي فملعوا منهم رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب تائراً بين الفريقين من طلوع الفجر إلى الذي كان بالريانية . ثم ان المالك جراكسة صاروا يكبسو البيوت بعد المغرب . واشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبو وطلق العثمانية والحرات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت والحرات على المالك جراكسة » .

« ومثلاً تعامل شاة الحمى في قرض يعلم في جلدتها »

« فصاروا الاتراك (١٦) كل من يظفرون به من العثمانية يقطعنون رأسه ويحذرون بها بين يدي السلطان طومان باي وصار الطالب مطلوب . فلما كان يوم الخميس السادس المحرم اشتقد القتال بين العثمانية وبين الاتراك ونادي السلطان في الناصرية وقناطر السبع للزرع والعياق بان كل من قبض على عثماني يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدي السلطان ثم ان العثمانية طردوا الاتراك من بولاق وجزيرة الفيل وملكوها منهم ، ثم طردوا الاتراك من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم ثم إن الاتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار ، خوناً من العثمانية ان يجمعوا عليهم ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التي في الناصرية وقبضوا منها على مماليك جراكسة فأحرقوا البيوت التي حول الزاوية ، وفيمهم صغار وشيوخ . ثم ان العثمانية طردوا الاتراك عن الناصرية إلى قناطر السبع » .

« ثم إن السلطان طومان باي نزل في جامع شيخو الذي بالصلبية وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة إلى قناطر السبع في نهر قليل من العسكر ثم رسم بحفر خندق في رأس الصليبة ، وآخر عند قناطر السبع ، وآخر عند رأس الدولة ، وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدرة البقر . ثم ان السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من

ذلك ، واثبّع ان السلطان قسم العسكر اربع غرق : فرقة الى جهة قناطر السباع ، وفرقة الى جهة الدولة ، وفرقة الى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهة باب زويلة . فلم يقاتل من المالكية السلطانية الا القليل ، وصاروا يختفون في الاسطبلات خوفاً من القتال ، وقد دخل الرعب في قلوبهم من العثمانية ما يقى يخرج منها » (١٧) .

« ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا على مصر العتيقة ، وطلعوا من على القرافة الكبيرة ، وملدوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها ، فدخلوا الى ضريحها وداسوا على قبرها وأخذوا قناديلها الفضية والشمع الذي كان عندها ، وسط الزاوية ، وقتلوا في مقامها جماعة من المالكية الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها . ثم ان السلطان قصد بهم قناطر السباع وطلع جماعة فوق موادن الجامع المؤيدى ، وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص وينعنونهم من الدخول الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلعوا لهم الاتراك وقتلوا في المئنة اشر قتلة » .

« ثم صارت القتلة من الاتراك والعثمانية اجسادهم مرمية من بولاق الى قناطر السباع والى الرملة والى تحت القلعة ، وفي الحارات والازقة من الاتراك والعثمانية ، وهم أبدان بلا رؤوس . وهذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب وهم يسلحون الناس ويعرونهم من أنوابهم ، ويقتلون من يلوح لهم من العثمانية ، ولو لا لطف الله تعالى لمجموا على القاهرة ونبوا أسواقها ودورها . ثم ان السلطان طومان باي نادى في القاهرة ان كل من مسيك احدا من عسكري ابن عثمان وطلب منه الامان ملا يقتله . ومن العجائب ان السلطان طومان باي لما ظهر خطب باسمه على منابر القاهرة في يوم الجمعة ، وكان في الجمعة المضية خطب باسم « سليم شاه بن عثمان » مكان كما يقال :

لَا تيأسنْ مِنْ فَرْجٍ وَلَطْفٍ وَقُوَّةٌ تَظَهُرُ بَعْدَ ضَعْفٍ

(١٧) يعطي ابن زنبل تفسيراً أعمق لهذا الموقف وهو الصراع بين المالكية والمالكية الامراء ، وتفضيل السلطان الغورى قبل موته لمنتهى معاياكه المالكيب .

« فاستمر السلطان طومان باي يتنق مع عسکر ابن عثمان ، ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصى عددهم ، من يوم الأربعاء الى يوم السبت طلوع الشمس ثامن المحرم ، فرأى عين الغلب وقد تكامل العسکر عن القتال واختفوا في بيوتهم ، وتفرق النساء كل واحد في ناحية ، واستمر السلطان وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء منهم شارب الاعور وآخرون من الأمراء العشرات ، فلما ظهر له الغلب هرب وتوجه الى نحو بركة الحبس ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في افعاله ، فكان كما يقال :

قليل الحظ ليس له دواء ولو كان المسبح له طبيب

« وهذه رابع كسرة وقعت لعسکر مصر مع ابن عثمان ، وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً (١٨) . ولما هرب السلطان طومان باي وقع في القاهرة المصيبة العظمى التي لم يسمع بمعناتها فيما تقدم من الزمان ، فلما انهزم صبيحة يوم السبت ثامن المحرم طافت العثمانية في الصليبة وأحرقوها جامع شيخو ، فاحتراق سقف الايوان الكبير والقبة التي كانت به كون أن السلطان طومان باي كان به وقت الحرب وأحرقوا البيوت التي حوله في درب ابن عزيز ، ثم قبضوا على الشهيف يحيى بن العداس خطيب الجامع وأحضروه الى بين يدي سليم شاه بن عثمان فهم يضربون عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ركب واتى الى ابن عثمان وشفع في ابن عداس وخلصه من القتل ، ولو لا كان في اطهه مسحة لغيرها عنقه في الحال ، وقاموا شدة عظيمة من الطربة »

« ثم إن العثمانية طافت في العوام والقلمان من الزعر وغير ذلك ، ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالع : وربما عوقب من لا جنى ، فشارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة الى الرملة ومن الرملة

(١٨) هذه هي التفسير الباحثة لبوبرة الاحداث تعمق بوضوح عمق المذكرة (ذكرى القضاء والقدر) في هذا العصر خاصة ، مع ان هناك اسباباً اكثراً وضوحاً ، ككتافة التيران العثمانية ، والهزازات العميقة بين المماليك مما جعلهم - كما كانوا في معركة مرج دابق قبلها - في حالة خلاف مستمر . ففكرة المقدر المكتوب اكثراً ما تكون وضوحاً عند الرمال باعتبار مهنته . يختار بـ « المولى » .

الى الصليبة الى قناطر السباع الى الناصرية الى مصر العتيقة ، فكان مقدار من قتل في هذه الواقعة فوق العشرة آلاف انسان في مدة هذه الأيام الأربعية ، ولو لا لطف الله تعالى لكان لعب السيف في أهل مصر قاطبة » .

« ثم ان العثمانية صارت تكبس على المالك الجراكسة في البيوت والحرات فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه . ثم صاروا العثمانية تهجم الجوامع وتأخذ منها المالك الجراكسة ، فهجموا على جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك من الجامعات والمدارس والمزارات ، ويقتلون من فيها من المالك الجراكسة فقيل قبضوا على نحو ثمانمائة ما بين امراء عشرات وخاصكة ومماليك سلطانية فضربوا ارقابهم اجمعين بين يدي ابن عثمان . وقيل ان المشاعلي الذي كان هناك كان افرينجيا ، وقيل كان يهوديا من الارواح ، فكان اذا ضرب عنق أحد من المالك الجراكسة يعزل رؤوسهم وحدها ورؤوس الغلمان والعربيان وحدها ثم ينصب الحال على الصوارى ويعلق عليها تلك الرؤوس في الوطاق الذى في الجزيرة الوسطى . وكان المشاعلي اذا جز رأس المالك يرمى جثثهم فى البحر . وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير « قالصوه روح لو » أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطريا ، وهي مرمية قدام سبل السلطان والكلاب تنهش في مصارفه وتحم بطنها شأنه كان رجلا جنديا . وقتل في هذه الواقعة الأمير « يخشبى بن قائم » الذى قرر امير مجلس كها تقدم ، وقتل آخر من الأمراء الطلحة والغشوات والخاصكة وغير ذلك ؛ صارت الجثث مرمية في الرملة الى سوق الخيل إلى الخيمين والكلاب تنهش أجسادهم ، وصارت الخيول في الرملة وفي الأسواق ، والأرقاف ، وقد قتلوا بالتدفق الرصاص »

« . . . ومن هنا نرجع الى اخبار السلطان طومان باي ، فإنه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المناواط ، وقيل بوردان ، فانكسر عسكر السلطان طومان باي كما تقدم القول على ذلك ، فلما انكسر توجه الى نحو تروجة بالغربية فلقاءه « حسن بن مرغى » وأبن أخيه « شكر » مشايخ البخيرة في ضيعة تسمى البوطة فعم « حسن بن مرغى » و « شكر » على السلطان طومان باي هناك ، وكان « حسن بن مرغى » بيته وبين

السلطان طومان باي صداقتة قديمة ، فاركن له طومان باي ونزل عنده على سبيل الضيافة ، ثم ان السلطان طومان باي احضر الى حسن وابن أخيه شكر مصحفاً شرifa وحلفهما عليه انهم لا يخونانه ولا يغدرانه ولا يدلسان عليه بشيء من اسباب الملك ، فحلنا له على المصحف سبعة أيام بمعنى ذلك خطاب حينئذ قلب السلطان طومان باي عند ذلك ونزل عنده ، فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب ، وأرسل اعلم السلطان سليم شاه بذلك ، فأرسل اليه جماعة من عسكره تقبضوا عليه ووضموه في الحديدة وتوجهوا به الى ابن عثمان . فلما رأى من كان مع السلطان طومان باي من الامراء وال العسكري انهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حوله ونشتوا في البلاد وتبت الحيلة على السلطان طومان باي ، وخانه حسن ابن مرعي بعد أن حف له على المصحف الشريف واركن اليه ، وكان حسن ابن مرعي من اعز أصحاب طومان باي ، وله عليه غالبة الفضل والمساعدات من أيام السلطان الغوري ، واقام عنه بما عليه من المال ، فلم يذكر له شيئاً من ذلك ولا أمر فيه الخير ، فكان كما يقال في المعنى :

لا تركنن الى الخريف فهاوه مستوخم وهو واوه خطاف
يثنى مع الأجسام مشى صديقها ومن الصديق على الصديق يخاف

« فلما أحضروا السلطان طومان باي بين يدي ابن عثمان كان عليه مثل ليس العرب الهوارة زلط وعليه شاش وملوطة باكمام كبار ، فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له وعاتبه ببعض كلمات ، فلما خرج من قدامه توجهوا به الى خيمة ناقم بها وأحاطوا به الانكشارية بالسيوف لاجل الحفاظ به ، غائم هناك أياماً وهو بوطلق ابن عثمان ببر إنبابة ، فلما وردت الأخبار الى القاهرة بمسكه فصار طائفة من الناس تكتب بمسكه وطائفة تصدق بذلك ، فأقام السلطان في الوطلق عند ابن عثمان وهو في الحديدة الى يوم الاثنين ثانى عشرين ربیع الأول من تلك السنة وكان ذلك اليوم يوم الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الاكبر ، فعدوا بالسلطان طومان باي من بر انبابة الى بولاق ، فطلعوا به من هناك وهو راكب على اكتيშ (١٩) وهو في الحديدة ،

(١٩) غرس هجين ، والجمع اكتيشه . واکاداش . فارسية دخلت التركية . محمد السعيد سليمان ، تأصیل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدليل .

وعليه ليس العرب الهواة كما تقدم . وكان السلطان طومان باي لما تيقنوا عليه اقام في الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما ، وكان اشبع ان ابن عثمان يرسل طومان باي الى مكة ولا يقتله ، ثم بدأ له من بعد ذلك ما سندكره . وفي مدة اقامة ابن عثمان في الوطاق فكانت العثمانية يطوفون في المدينة نهارهم كلها ، ومن بعد العصر يرجعون الى الوطاق يباتون به » .

« فلما بلغ ابن عثمان ان الناس لا تصدق بمسك طومان باي فدفع من ذلك وعدى به ، فلما طلع من بولاق شق من المقى وقادمه نحو اربعينأة عثمانى ورمأه بالنقط ، فطلع من على سوق مرجوش وشق من التاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل الى باب زويلة وهو لا يدرى ما يصنع به فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف ، فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : أقرعوا لي سورة الفاتحة ثلاثة مرات . فيسبط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاثة مرات وقرأ الناس معه ، ثم قال للمشاعلى : اعمل شفلك ، فلما وضعوا الخية في يربنته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكتوف الرأس وعلى جسده شياه جوخ احمر ، وفوقها ملوظة بيساء بأكمام كبيرة ، وفي رجله لباس جوخ ازرق » .

« فلما شنق وطلعت روحه صرخت الناس صرخة عظيمة وكثُر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وفتَّ منها ما لا يخص ، وكسرهم ثلاثة مرات في نهر قليل من عسكره ، ووقع منه في الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال . وكان لما سافر عليه السلطان الغوري جعله نائب الفيفية عنه إلى أن يحضر من حلب فراس الناس في غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت في غالية الأمان من المناسر والحريق وغير ذلك . فلما مات السلطان الغوري عليه وتسلطه عوضه ، اطل من المظالم أشياء كثيرة مما يعمل في أيام

الغوري ، ولم يشوش على أحد من الناس في مدة سلطنته ، ولا يقبل في أحد من الناس مرافعة ولا صادر أحداً من المباشرين في مدة سلطنته ، ولما وصل ابن عثمان إلى الشام وقصد أن يخرج إليه فشكى أن الخزائن خالية من الأموال ، فقالوا له الأمراء وجماعة من المباشرين : أفعل كما فعل السلطان الغوري وخذ أجرة أملاك القاهرة سبعة أشهر وخذ على الرزق والقطاعات خراج سنة . فلم يسمع لهم شيئاً وأبى من ذلك ، وقال : ما أجعل هذا أن يكون في صحيقتي » .

« وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر واربعة عشر يوماً ، فإنه تسلط رابع عشر شهر رمضان ، وانكسر وهو رب تاسع عشرين ذى الحجة . وكان في هذه المدة في غاية النك والتعب وقاسي شدائده ومحناه وحررياً وشروراً وهجاجاً في البلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويلة ، واقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته ، وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له ثابتة ووضعوه فيه ، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغوري عمه ، فغسلوه وكفوه وصلوا عليه هناك ، ودفنه في الخوش الذي خلف المدرسة ، ومضت أخباره كأنه لم يكن ، وقد قلت من أبيات :

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولئ وزال كاته لن يذكرها
شنقوه ظلماً فوق باب زويلة ولقد أذاقه الوبر الأكيرا
يا رب فاعف عن عظام جرمه واجعل بجنات التعميم له قرا

« وكان شنق السلطان طومان باي من سعد سليم شاه بن عثمان ولم ينتج أره من بعد ذلك ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة فقط ، ولا علت رأس سلطان على باب زويلة فقط ولم يعهد بمثل هذه الواقعة في الزمن القديم ، ومن عهد سوار شاه لما كلبوه على باب زويلة لم يعلق عليه من له شهراً طائلة غير السلطان طومان باي » .

ضريباً أمثلة للمؤرخين العسكري ، والعسكر والأداريين ، وأبناء العسكرية (أولاد الناس) ، لكن هذا لا يعني أنه ليست هناك فئات أخرى من المؤرخين لهذا العصر فلدينا الذهبي (شمس الدين احمد) المتوفي ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م المنحدر من أسرة تركمانية مقرها ديار بكر (شرق تركيا الحالية) وكان والده يعمل في صياغة الذهب ومن هنا أتى اسمه (الذهبي) وقد انشغل بالعلم وتولى وظائف ذات طابع ديني في دمشق ، وعرف عنه اتقانه للحديث النبوى ، ومن أهم كتبه (تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) انتهى فيه إلى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) وهو يذكر — كل المؤرخين الآتى ذكرهم — على الواقع العسكرية والسياسية ، لكنه ينوه بهم باهتمامهم بالنشاط الدينى .

وهناك أيضاً المؤرخ والعالم الديني الشهير ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) وقد ولد في مصر وعاش فيها ومات بها ، أما العسقلاني فنسبة إلى أصل أسرته ، ولا يبدو أن ابن حجر مملوك الأصل أو حتى تركي ، فهو في الغالب من أصول عربية ، وقد حقق ابن حجر شهرة كبيرة في علم الحديث ، وكان تقاضي قضاة الديار المصرية مدة تزيد على العشرين عاماً وفقاً لما ذكره شمس الدين السخاوي تلميذه ، وقام بتدريس الحديث والفقه ، وتولى الخطابة في جامع عمرو ابن العاص والجامع الأزهر ، وأهم مؤلفاته التاريخية إحياء الغمر بأثناء العمر (٢٠) بدأه بسنة ميلاده ٧٧٦ هـ (١٣٧٣ م) وانتهى به سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) (٢١) ، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه أقرب لروح أهل مصر وأكثر توازناً ، وقد اعتمد على مصادر شفوية بالإضافة للمصادر الأخرى ، وهو يهتم بالجوانب الدينية والشرعية بحكم خلفيته الدينية المتنية ، وهو يستخدم الشهور القبطية باعتبار استخدامها أمرًا شائعًا خاصة في الأرياف وإن كان تاريخه الأساسي بطبيعة الحال بالشهر والسنوات الهجرية ، ونورد فيما يلى قبساً من كتاباته تبين اهتمامه

(٢٠) حققه ونشره الاستاذ الدكتور حسن بشي ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ٢ مجلد .

(٢١) قاسم عبد قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين .

بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية : « وفي ثانى عشر صفر (سنة ٨٢١ هـ) صرفة (السلطان) القاضى الحنبلي محب الدين احمد بن نصر الله (البغدادي الحنبلي) وكان محب الدين احسن يأنه يعزل نعكر بإن سأله ناظر الجيش أن يسأل له السلطان في الاعفاء ، فبلغ ذلك السلطان فأعجب به ، وقال : « لو لا أنه رجل جيد ما طلب الإعفاء » وأمر أن يستمر ، فظن حصول مقصوده بذلك من الاستمرار ، فصبر على ذلك مدة ، وسخط منه كاتب السر لغير اقتضاه فاحتال عليه بإن قال للسلطان : « هذا الحنبلي شيخ كبير وقد تكرر سؤاله الإعفاء وأن يقرر له رزق على جهة حل (أي من مصدر حلال) يأكل منها ويعيد الله ويدعو للسلطان » فأمر السلطان باجابتة لذلك فخلعه ولم يشعر محب الدين بذلك ، فضج ودار على الأمراء غلم ينجح ، وقرر له وقف يلبعا التركمانى .. وكان يظن أنه بما تحيل به يستمر ثائعاً كثت حيلته ... » هذا مثال من (المقالب) أو (الذنب) التي شاعت في العصر المملوكي .

« .. وفيه (عام ٨٢١ هـ) حضر جماعة من أهل دمياط وشكوا من ابن الملاح الكاتب النصارى وانه متاجر باللواء ويستخدم من يكون جميل الصورة من أهل البلد ويبلغ فى اظهار الفاحشة حتى انه ربما قام بحضورة الناس خلا به الشاب منهم بحيث لا يواريه الا جدار المخدع او شبهه ، ثم يخرجان معاً على الهيئة الدالة على المراد . وكثير ذلك منه وأنف جماعة من الناس ومنعوا أولادهم من الخدمة عنده وهو يفسدهم بكثرة العطية ومعاقرة الخمر والفناء مع ما هو فيه من الجاه العريض حتى كان الى البلد يقف فى خدمته ، ومهمما قال لا يرد ومهما فعل لا يتعقب ومن نازعه فى شيء افسد حاله عند ناظر الخاص المتتكلم على البلد ، فرغموا فى أمره قصة تتضمن هذا وغيره من المفاسد ، فعقد له مجلس بحضورة السلطان ، فلما ادعى عليه انكر ، فقامت البينة بشيء من ذلك ، فبادر وأسلم وحكم باسلامه ولقب محب الدين .. وأذعن والتزم وتوجه الى دمياط وحسنت سيرته بالنسبة الى ما كان ، والله أعلم بغيه .. » *

نحن هنا ازاء رجل كان أبوه ملاحا ، افضم — ربما كأبيه — لجيوش المسلمين وحارب معهم حتى أصبح له أهمية المالك ، فوصل من خلال خدماته العسكرية الى منصب غير قليل شأنه ، وقد كثرت هذه الفتنة كثرة كبيرة في العصر العثماني ، خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، إذ انضم الآلاف من أهل أوروبا والبحر المتوسط الى البحرية العثمانية طليعاً في الغائم ، وشنوا مع المسلمين هجمات على السواحل الأوروبية من اليونان حتى إسبانيا ، وراق بعضهم أن يعلن إسلامه وهو لا يعلم عن الإسلام شيئاً ، وكان مسلكيهم الخلقي مشيناً ، وعرفوا في المصادر العثمانية باسم العلوج (جمع علچ) ، وكان لهم صفات البحارة والقراصنة ، وقد وصل بعض هؤلاء لمناصب مهمة بعد ذلك ، ومن المتوقع أن يحاول هؤلاء مواومة الإسلام مع حياتهم بكل ما فيها ، وليس العكس أى تعديل حياتهم لتتشمى مع روح الإسلام وقد ظل تراث هؤلاء للترة لكنه سرعان ما اختفى والا بماذا نفس اعتراف عالم دين على حملة الدولة على المخدرات على أساس أنه لم يرد بشأنها نص ، وأن المطلوب هو منع الخمور فقط ، لا شك أن هذا من بقايا تفكير هذه الفتنة ، وما معنى أن يتعب واحد من الباحثين نفسه ويسوق الشاهد تلو الشاهد ليثبت أن الخمر حلال ، بينما أثبت العلم الحديث تأثيرها الشار على العقل والأعصاب ... الخ .

تم ذاتاً أخيراً على ذكر المؤرخ الشهير تقى الدين المقريزى (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) الذى ولى ديوان الانتفاء ، وتولى الحسبة ، وجاور بهمة المكرمة وقام برحلات عديدة .. والحق أن المقريزى لم يترك جائباً من جوانب الحياة المصرية دون أن يتعرض له في كتاباته على نحو آخر ، وانعكست ثقافة المقريزى وخبرته العملية الواسعة في تلك الطائفة الكبيرة من المؤلفات التي تناولت تاريخ البشرية والتاريخ الإسلامي العام ، وتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصره (دولة السلاطين الجراكسة) ، كما تناولت موضوعات جزئية مثل النقوش والمجامع والقبائل العربية والحج .. وأهم مؤلفات المقريزى الخطط المقريزية المعروفة باسم المواجه والاعتبار في ذكر الخطط والأثار ..

وهو كتاب موسوعي شامل يضم إشارات قيمة للحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في مصر . وكتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » يتناول المجالات في مصر حتى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، ومن كتبه أيضاً حولية المعروفة السلوك لمعرفة دول الملوك .

★★★

من هذا العرض السابق لأهم المصادر المشهورة عن العصر المملوكي، يتضح لنا أن هناك عدة مراجع قليلة ، تتنسق بالتوغل في عمق المجتمع المصري وأوضاعه السياسية لكونها صادرة عن عناصر لا تنتمي للطبقة العسكرية الحاكمة ، وهذه المصادر هي :

— قصيدة أبي شادوف وشرحها اذا وضعنافي اعتبارنا أنها من الأدب الشعبي الذي تنتجه ضمائر الجموع وبالتالي فهي صالحة للعصرين المملوكي والعثماني المملوكي على سواء ، وهي — أى القصيدة — هي المصدر الفلاحي الوحيد بين أيدينا .

— كتابات ابن حجر العسقلاني ، وهي نموذج لكتابات عربى ، غير بدوى (أى عربى متحضر مستقر) عالم بأمور الدين وكثير من أمور الدنيا .

— كتابات المقريزى القاهرى ابن حارة برجوان .

— كتاب ابن زينل الذى نحن بصدده ، فهو ليس كتاباً في التاريخ العسكري فحسب ، وإنما هو حافل بإشارات متكاملة للعناصر المكونة للمجتمع المصرى ، وحافل بالاشارات النفسية والاجتماعية التي تعبّر بوضوح عن نسيج هذا المجتمع ، بالإضافة لاشارة المفيدة عن توجهات الدولة العثمانية مما تعرّضنا له في غير موضع من هذه المقدمة .

نحن إذن أمام مجموعة قليلة من المصادر — ابن زينل من بينها — ليست من تأليف الطبقة العسكرية الحاكمة .

★★★

ونظرًا لأهمية الملك في التاريخ المصري ، ولتأثيرهم المتد — ربما على نحو أو آخر — حتى تاريخنا الحديث والمعاصر ، عن لى في فترة من الفترات أن أعد ثبناً كاملاً بالمراجع عنهم ، ما نشر منها وما لم ينشر وكانت هذه القائمة غير الكاملة ، وقد حذفت من هذه القائمة المصادر التيتناولتها بالدراسة آنذا .

— ابن أيك الدوادار ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٦ هـ / ١٢٣٥ م) درر التيجان وغيره توارييخ الزمان . مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٠٠ تاريخ .

— ، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٣٩٩ تاريخ .

— الجزرى ، شمس الدين أبو عبد الله ، تاريخ الجزرى (بفتح الجيم والزاي) مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٩٥ تاريخ .

— ابن الجيعان ، شرف الدين أبو البقاء (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف قايتباى ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢١٠ — تاريخ .

— ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٢٧٧ م) ، درة الأسلام في دولة الأثراك — مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة الملك سعود ، رقم ٧٦ ص والمقصود بدولة الأثراك دولة الملك المماليك البحريية لفليمة العنصر التركى على ممتلكاتها .

— السيوطي ، جلال الدين (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) تاريخ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهري ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٥٩ تاريخ .

— ابن خلكان ، أبو العباس (ت ١٢٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، وفيات الأعيان وأئماء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ — ١٩٧٢ .

— السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) الضوء اللمع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، بدون تاريخ نشر .

— السبوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، عيسى البابى الطبى ، ١٩٦٧ — ١٩٦٨ .

— وله أيضا ذيل طبقات الحفاظ للذهبى ، دمشق ، مطبعة التوفيق ، ١٣٤٧ هـ .

— ابن شاكر الكتبى ، فخر الدين محمد بن أحمد (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) غوات الوفيات ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

— ابن شاهين ، غرس الدين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٧ م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بال رافيس باريس ، ١٨٩١ .

— الشجاعى ، شمس الدين (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، تحقيق بريارة شيفر ، فيسبادن ، شتليز ، ١٩٧٨ .

— الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) الواقي بالوفيات .

— ابن عبد الظاهر ، محى الدين (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) تشريف الأيام والعصون في سيرة الملك المنصور . تحقيق مراد كامل . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦١ .

— وله أيضا الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر . الرياض ، مطبع القوات المسلحة السعودية ، ١٩٧٦ .

- العینی ، بدن الدین محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) السیف
المهند فی تاریخ الملک المؤید ، تحقیق فہیم محمد شلقوت .. القاهرۃ ،
دار الکتاب العربی ، ١٩٦٧ .
- الغزی ، نجم الدین محمد بن محمد (ت ١٠٦١ هـ - ١٣٥١ م)
الکواکب السائرة باعیان المائة العاشرة .

★★★

فإذا ما انتقلنا إلى الفترة العثمانية وهي الفترة التي يسمى بها المؤرخون
الواعون الفترة المملوکية العثمانية ، وجدنا جملة من المصادر الأصلية
لم تحظ للاسف بالاهتمام الكاف ، ولم تعد - حتى المطبوع منها -
متوفرة بين أيدي الباحثين ، نذكر منها :

- الديان بکری ، حسین بن محمد (ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م) تاریخ
الخمیس فی أحوال أنفس نفیس ، القاهرۃ ، المطبعة الوھبیة ، ١٢٨٣ هـ .
- احمد شلبی ، ابن عبد القنی الحنفی المصری ، اوضح الاشارات
غیمن تولی مصر من الوزراء والباشات المعروف بتاریخ العینی . حققه
ونشره د. عبد الرحیم عبد الرحمن عبد الرحیم ، القاهرۃ ، ١٩٧٨ .

— البکری الصدیقی ، محمد بن ابی سرور ، کشف الکربة فی رفع
الطلبة ، حققه د. عبد الرحیم عبد الرحمن عبد الرحیم ، نشر فی المجلة
التاریخیة المصرية العدد ٢٢ ، ١٩٧٦ .

— وله أيضا الفزحة الجلية فی ذکر ولاة مصر والقاهرۃ ، مخطوط
— بمکتبة جامعه برنسنون بالولايات المتحدة برقم ٤٤٥ مجموعه جرت
Garrett .

— وله أيضًا التحفة البهیة فی تملک آل عثمان الدیار المصریة ، مخطوط
بمکتبة فینا .

— الدمرداشى ، أحمد ، كتاب الدرة المصنفة في أخبار الكناة —
مخطوط بالكتبة البريطانية .

— الورثانى ، الحسين بن محمد ، نزهة الانظر في علم التاريخ
والأخبار ، بيروت ، ١٩٧٤ (رحلة) .

— الحموي ، محب الدين ، الدرة المضيئة في الرحلة المصرية —
مخطوط بجامعة ييل Yale (رحلة) .

— الفاسى ، أحمد بن محمد الفهري ، الرحلة (مخطوط بدار الكتب
المصرية — برقم ١٤٠٣ تاريخ) (*) .

★★★

هذا بطبيعة الحال إلى جانب الوثائق التي تضمها الأرشيفات الوطنية
وغيرها من الهيئات ، وقد أشار بعض الباحثين المصريين إلى هذه الوثائق
العربية وقدموا دراسات شاملة عن تكوينها وتصنيفها ومواضعها (٢٢) .

أما الوثائق العثمانية فتفق اللغة حاثلاً بين المؤرخين العرب وبين
الاستفادة منها ، فقليلون هم الذين باتوا يعرفون هذه اللغة خاصة بعد
كتابة التركية الحديثة بالحروف اللاتينية ؛ مما أوجد فجوة بين التركية
الحديثة والتركية العثمانية ، لكن المطالع في كتب المؤرخين الأوروبيين

(*) استغنا عند سرد هذه المصادر المتعلقة بالحقيقة المملوكية العثمانية بما أوردته
ميكل وتنر في كتابه Egyptian Society Under ottoman rule وقد اكتفيت
بالمصادر العربية ، فقد أورد وتنر كثيراً من المصادر المكتوبة بالتركية العثمانية ، بالإضافة
للبرامج الحديثة بلغات أوروبية .

(٢٢) د. عبد اللطيف ابراهيم على اهتم كثيراً بوثائق الوقف المملوكية ونشر بعضاً
منها في الدوريات العلمية وفي كتابه دراسات تاريخية وأثرية في وثائق عن عمر المالك .
كما قدم د. عبد الرحيم عبد الرحمن دراسات مفصلة عن وثائق تاريخ مصر الاقتصادي
والاجتماعي في العصر العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) في دار الوثائق المصرية في كتابه
عنوانه من تأسيساته . د. صلاح هريدي في كتابه دور الصعيد في مصر العثمانية ،
الآخرى من إشارات لها . د. دار العارف .

(ميكل ونتر مثلا) الذين أتيح لهم الاطلاع على هذه الوثائق فترجموها أو ترجمت لهم ، يكتشف أن في هذه الوثائق فيضاً من المعلومات عن مصر ، فلاحيها وأعرابها ومالكيها ، وقد قدم لنا ميكل ونتر (٢٣) على سبيل المثال ، معارف جديدة عن جماعة الفلاح وهم مماليك امتلكهم فلاح مصرى قبح ، كا أضاف لعلوماتنا غير قليل عن دور العربان في حياة مصر السياسية والاجتماعية .

وتد قدم الأستاذ الحق^٢ يفكرة عن حياة ابن زنبل لم أجد مبرراً
لنكراها هنا : ولا شك أنى مدین بكتابية هذه الدراسة للفترة التي قضيتها
أدرس مقرر « علم التاريخ عند المسلمين » لما يزيد عن عامين في أحدي
الجامعات العربية ، مما أتاح لي فرصة الاطلاع على كثير من المراجع
في هذا الموضوع .

Egyptian Society under ottoman rule. في كتاب (٢٢)

٢ - الأسلحة والنظم العسكرية

في عصر ابن زنبل

ظهرت عدة دراسات ذات طابع تفصيلي عن المالك (١) من حيث نشأة نظامهم ، وتكوينهم العرقي ، والبلطنة التي اتموها بعد سقوط الدولة الأيوبية ، وحروبيهم التي حققوا فيها انتصارات كبرى ، يوم كانت طبيعة الحرب تعتمد على البطولة الفردية ، وعلى الأسلحة التقليدية ، وكذلك حروبيهم الذي منوا فيها بهزائم ساحقة يهدى استخدام الأسلحة النارية ، وتغير طبيعة التشكيلات العسكرية ، وكهزيمتهم الساحقة في معركة مرج دابق ، أمام العثمانيين سنة ١٥١٦ ، التي كانت نصراً للعثمانيين دون أن يخوضوا معركة حقيقة ، وكهزيمتهم أيضاً في معركة الريadianة شمال القاهرة أمام العثمانيين سنة ١٥١٧ ، وفشلهم في حرب الاستنزاف التي خاضوها ضد الجيش العثماني في مصر ، وكهزيمتهم الساحقة أمام جيش نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ ، وكانت الهزائم التي حاقت بمصر بعد ذلك نتيجة القبض بطبيعة الاجتماع الملوكى ، كما كان الانتصار الذى حققه مصر في تاريخها الحديث نتيجة التخطيط المحكم ، وتحديث السلاح ، وتغيير روح الاجتماع الملوكى إلى حد ما كما سيتضح من هذه الدراسة .

ولنبدأ بتكون الجيش الملوكى وطبيعة تشكيلاته بشيء من التفصيل بالرجوع لابن زنبل وغيره من المصادر المتاحة .

يسير لنا ابن زنبل إلى الكراهية الشديدة بين مجموعات (القرانينص) ومجموعات (الأجلاب) ، حتى إن السلطان الغورى آخر (الأجلاب) ولم يجعلهم يخوضون حيث الخطر ، وفي الوقت نفسه امتنع (القرانينص)

(١) كالدراسات التي قام بها المؤرخون : السيد الباز العرينى فى كتابه (المالك) وسعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه (العصر المالكى) وعلى ابراهيم حسن فى كتابه (دراسات فى تاريخ المالك البحري) وغيرهم .

عن خوض المعركة أسوة بالأجلاب ، ونعني بالمعركة هنا معركة مرج دابق . فمن هم القرانيص ؟ ومن هم الأجلاب ؟ وما سبب الاحتقاد الدفينية بينهما ؟ . القرانيص هم مماليك السلاطين التدامى (في حالتنا هذه مماليك السلاطين السابقين على الغورى) ، وهذا يعني أن القرانيص لم يكونوا فئة واحدة ذات تراث انتمائى واحد ، وبالتالي لم يكونوا فئة عسكرية واحدة ، أو كتيبة متربطة ، اذ لم يكن يجمعهم الا كراهيتهم للسلطان (الحالى) واجترار أيام العز التى عاشهوا زمن السلطان او السلاطين الذين عايشوا قبل ذلك فى كنفهم . وكانوا بطبيعة الحال بحكم (الأقدمية) او الأسبقية الزمنية يعتبرون أنفسهم (أهل الخبرة) ومن سواهم مجرد صبيان ، وكان كل واحد من القرانيص يعتبر نفسه أميراً او قائداً . ومن الطبيعي أن ينظر السلطان (الغورى في حالتنا هذه) نظرة شك لانتفاء كل واحد منهم الى استداه الذى اشتراه وأعتقد ، كما كان من الطبيعي أن ينظر لهم - بشكل عام - كمصدر خطر ، ومن ياب احداث التوازن الاستراتيجي بين القوات ، فقد كان يفرق في المعاملة بينهم لخاصة من الناحية المالية ، وأن يحاول زرع الفتنة بينهم ، الا انهم ، على اية حال ، كانوا على وعي كامل بأنهم قرانيص وأنهم غير الاجلاب .

والأجلاب او المجلوبون هم المماليك الذين قام السلطان الحالى (الغورى في سياقنا هذا) بشرائهم او الحصول عليهم بطريقه او أخرى . وعند وصولهم يضعهم في معسکرات خاصة بهم (طبقات) فيعيشون معاً ، ويتم تعليمهم وتدریبهم ، ثم يعتقون ويفرض لكل منهم راتب (جاميكية) ، وتقدم لهم الاقطاعات والسلاح ، بالاشارة الى إكرامهم بالخيل والقمash وما الى ذلك .

وفي هذه الحال يمكننا ان نتبين مدى الحقد الكامن في صدور القرانيص ضدهم ، خاصة اذا تجاوز السلطان الحد بدموى التوازن الاستراتيجي بين القوات ، فهذه الحجة لابد ان يكون لها حدود ، ولنطالع اثر هذا التجاوز في معركة مرج دابق فيما كتبه ابن زنبل :

« .. ولم يقاتل في هذا اليوم — يقصد مرج دابق — أكثر من ألفي شارس .. وأما جلبان الغوري الذين هم مشتروعاته فلم يتحركوا من مواضعهم ولم يهزوا رمحا ولا جذوا سيفا .. وعلى ما قبل أن السلطان الغوري أمر بأن أول مرة يخرج القرانصة — أو الترايبيص — لكونهم أعرف بالحرب من الجلبان ، وكان قصده أن يقطع القرانصة ليكتفى شرهم ويصفو له الوقت فإنه كان يحسب حسابهم .. ثامر بتقاديمهم في الحرب وأخر جلبانه .. فتغيرت نيات القرانصة وقالوا : نحن نقاتل بانفسنا مع النار وانت واقف تنظر علينا كالعين الشائمة ما ثامر أحد من ماليك يخرج للميدان فكان العسكر مختلفاً في بعضه مفسودة النية .. » .

ونأتي بعد ذلك للخاصية ، وهم تربية السلطان شخصياً اي انهم أكثر قرباً وحظوة من الأجلاب ، فالأجلاب يشتريهم السلطان ويعهد لهم بدمى الماليك بتدريبهم وتعليمهم أو الإشراف على تعليمهم ، أما الخاصية فالسلطان (الغوري في حالتها هذه) هو نفسه الذي يشرف على تدريبهم وتعليمهم ، ومعنى هذا انهم بمثابة حاشية له بالإضافة لمهامهم العسكرية ، فهم ملزمون للسلطان دوماً ، وقد زاد عددهم في أواخر العهد المملوكي ، وأمتازوا بحسن المظهر وأناقة المركوب واللبس .. ولم يشر ابن زنبل بهذه الفئة خاصة وهم قليلاً العدد على آية حال اذا قيسوا بالجلبان البالغ عددهم ١٣ ألف مقاتل ، جرى تحييدهم لخلافات داخلية كما سبق القول فلم يؤدوا دورهم في معركة مرج دابق .. أما الخاصية ، فيمكن استنتاج موقفهم من عبارات عامة اوردها ابن زنبل مثل : « وباتوا — اي الجيش المملوكي كله على غير حرب ولكن لم يهنا لأحد منهم فوم من مكر بعضهم لبعض » وهو يصف في هذه العبارة جيش الماليك في اليوم السابق على معركة مرج دابق .. وإن كان ابن زنبل قد أشار لبعض البطولات التي قام بها بعض الخاصية كالأمير بخشباني (أمير مجلس) ، لكن بشكل عام لم يقم الخاصية المذكورة بدورهم في الحرب ، فقد تقدم الأمير سودون العمجي إلى الغوري والمعركة دائرة و قال له : « يا مولانا السلطان أين جلبانك ؟ أين خاصيتك (خاصيتك) هكذا عملت بنا ولازلت تائماً في حظ نفسك حتى أهلكت نفسك وأهلكتنا معك » .

ناتى الى تشكيل آخر من تشكيلات الجيش المملوکي وهم اجناد او عساکر الامراء ، فقد كانت مكانة كل امير مرهونة بعدد مماليكه وكان هذا بدوره مرهونا بحالة الامير المالية ، فعندما يحدثنا ابن زبیل عن الامراء الذين خرجوا مع الغوری ، فان هذا يعني حديثه عن تشكيلات عسكرية صغیرة بعدد هؤلاء الامراء ، ولما كان ابن زبیل يقرر لنا ان كل امير من هؤلاء كان يمکن موته للسلطان ليكون هو السلطان بدلا عنه ، اتضح لنا ان هذه التشكيلات — تبعاً لأمرائها — كانت تتنافس في تقديم التشكيلات الاخرى في ساحة الوجىء ، اى أنها — اى هذه التشكيلات كانت تتنافس في البعد عن الخطير ، لا اقتحامه فيما عدا استثناءات ليست كثيرة ذكرها لنا ابن زبیل .

اما فرقة أولاد الناس ، فكانت بمثابة فرقه احتياطية . والاصل في النظام الملوكي ان أولاد المالك لا يدخلون في التشكيلات العسكرية ، لكن حدث في اواخر العصر الملوكي ان تم ادراجهم في هذه التشكيلات ، وكان هذا في الغالب رغبة في استفادتهم من الرواتب والاقطاعات ، اذ كان العمل الاساسي لأولاد الناس هو التجارة وادارة المشروعات ، ولم يكونوا يواظبون على التدريب ويدعون فقط للحرب عند الضرورة ، وكانت الأفكار المعروفة عنهم أنهم تربوا « في حجور أمهاتهم » وأنهم « خيحة » او « زينة » على حد العبارة التي أوردها ابن زنبيل .

وأخيراً أجناد الحلقة ، وهم الأكثر عدداً والأقل تجانساً ، وكانوا بمثابة الجيش الدائم للدولة ، وقد انضم إليهم بعض أصحاب الحرف من الطوائف المختلفة ، واعتبر من أجناد الحلقة العريان ، وفي وقت السلم كان على كل أربعين من أجناد الحلقة مقدم إلا أنه لم يكن له سلطة عليهم إلا أثناء الحرب ، فهم بمثابة عسكر احتياطي لا يدعى للخدمة العسكرية إلا إذا قاتلت الحرب ، وهم وإن كانوا يأترون بأمر السلطان إلا أنهم ليسوا ملكاً له ولا من عتقائه وكان منهم حراس القلعة ، وكان السلطان يرسل منهم بعض السفراء في مهام خاصة ، وكان عدد كبير منهم يخدمون في بيوت الأمراء (عساكر مراسلة) وفي أواخر عهد المماليك أصبح

أجناد الحلقة مجرد هيكل ، لم يكن فيه من الصفات العسكرية سوى الاسم فيما يقول واحد من الباحثين الغربيين (٢) .

ومن بين أجناد الحلقة شخص العريان بالفقرات التالية ، باعتبارهم عنصراً عسكرياً لعب دوراً مهماً . لقد غافت انتقاماتهم القبلية انتقامهم للسلطان ، وكانتوا في أحيان كثيرة ينتظرون هزيمة أحد الطرفين لينقضوا على الطرف المهزوم ليسلبوه ، رغم أنهم قد تزاوجوا مع المالكين في بعض الحالات وأصبحوا نسباء ، فقتلوه العادل لجأ إلى عربان الشرقيه أنسابه ، وقبيلة الهواوير في الصعيد تزاوجت مع المالكين فيما يقول الباحث ميكيل ونتر (٣) .

كان الجيش المملوكي أذن كبير العدد (بفتح العين) ، بل والعدد (بضم العين) أيضاً ، ومع هذا حاقت به هزيمة ساحقة في مرج دابق ، ومن بعدها الريانية ، وكان تركيبه كما ذكرنا آنفاً ، ولم يكن هذا التركيب أو هذا التشكيل يبشر بالنصر ، وهنا من حق القارئ أن يتساءل : أليس هذا هو التركيب نفسه – أو قريباً منه – الذي حقق المالكين من خلاله انتصارات عظمى على المغول والصلبيين ؟ والإجابة : بلى ، لكن الوضع لم يكن هو الوضع ، وتؤجل الإجابة عن هذا السؤال حتى نستعرض أسلحة المعركة ، فالسلاح ليس مجرد أداة قتالية ، وإنما هو يفرض نوعاً خاصاً من العلاقات أو لنقل أنه يؤثر في طبيعة الاجتماع العسكري (٤) .

لقد كان محور المهارة المملوكية يتمثل في الفروسية وبالنسبة للعسكر المشاة استخدام السيف والرمح والبلطة (الناس) وما إلى ذلك ، وقد حدثنا الرحالة العرب والأحاتب عن مهاراتهم الفائقة في هذين المضمارين ، فالرحالة الإيطالي الأصل ، البرتغالي الانتقامي لودفيجو فارتيما يحدثنا – بانيهار – عن مهاراتهم الفائقة في هذا المجال . لقد وصفهم فارتيما

(٢) بولياك ، الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين . ترجمة عادل زعيم ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٩٨ .

(٣) في كتابه : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني .

John Ellis, The Social history of the machine Gun. London, (٤)

Groom Helm, 1975.

الذى سُمِّيَ باسم **الخاج** بونش المصري ، والذى زار مصر في آخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر - بائهم كالجان وتحدث عن قدرتهم القتالية باعجاب شديد ، بل ان ابن زيد يشيد بذلك ولا ينكره رغم هزيمة الملك أيام العثمانيين ، وأكثر من هذا فقد اعترف السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان بمهاراتهم الفائقة في هذا المضمار ، وستتناول هنا بشيء من التفصيل أسلحتهم . ولنبدأ بالسيف وهو سلاح استخدموه بكثرة مشاة وفرسانا ، وكانت مراكز صناعة السبائك المملوكية في القاهرة ودمشق وكانت دكاكين السبائك في القاهرة في منطقة بين التصرين ، وكانوا يilloونها بالسموم ، وعرفت هذه المواد التي يغمسون فيها سبائكهم (بالسقايات) وهي محليل من البورق والملح ، وملح البول والزرنيخ والنورة على نسب معينة (٥) . وال الحرب بالسيف سواء للراكب أو للراجل ، تقتضي اقتراباً شديداً من الشخصين المقاتلين . اقتراباً يكاد يكون التحامًا ، وحمل السيف يحتاج إلى قوة بدنية وهو أمر متوفّر لدى الملك ، كما يحتاج لقوّة بدنية وحذر وهاً أمران تدرب عليهما الملك جيدا . انه سلاح فردى على أية حال ، وقلما يشتراك محاريان في ملاقاة محارب واحد بالسيف ، فهذا ضد روح الفروسية نظرياً على الأقل ، لكن غالباً ما ينسى المقاتلون مثل هذه المسائل في مواجهة اعتبارات عملية .

اما الرمح ، فهو أيضاً ضمن الأسلحة التي أنتجتها المصانع الحربية المملوكية ، وكانوا يصنعون قصبيته من خشب الزان او من (غاب) او بوص مصممت مستوردة من الهند ، ومنها نوع يركب فيه السهم . والسيم سلاح يقتضي في بعض الأحيان اقتراب المقاتلين ، لكنه في أحيان أخرى يقتضي من بعد غير بعيد ليصيب الخصم . وفي هذه الحال يحتاج لمهارة في التصويب ، والطعن بالرمح - على أية حال - يقتضي مهارة أقل من القتال بالسيف .

(٥) أورد هذه التفاصيل او السقايات أحمد عدوان في كتابه : العسكرية الإسلامية نقاً عن : بكتور الرماح : نهاية السؤال والأمنية في تعليم أعمال الفروسية . مخطوط بجامعة القاهرة ، ولم نتمكن من الاطلاع عليه . ومحمد بن منكلي : الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر - مخطوط يدار الكتب المصرية .

اما القرس ، فهو قوس خشبي يشد طرفاً بخيط اقصر من قضيب القوس فيثنيه و يجعله على هيئة قوس ويشد فيه السهم وهو قطعة حديد لها نصل ثلاثة (جمع نصل) ، ويقذف السهم بالاستعمال اليد او الرجل او عن طريق آلة تشبه المجنح ، وكانت هناك اقواس لرمي مادة تشتعل بمجرد ارتظامها بالهواء ، ولم تكن كثيرة الاستعمال ، ولم تستعمل في معركة مرج دابق اذ لم يشر اليها ابن زبيل او ابن اياس ، وهناك طرائق لاذع سهام كثيرة برمية واحدة ، وهناك سهام تسمى الجروح استخدمها المالكى وهى عبارة عن « آلة حربية لرمي السهام والنقط والحجارة ويقال لاستخدامها من الجنд الجرخى ، وهو ما نسميه بالسهم النارى » (١) .

وغنى عن الذكر أن مدى الرمى للسهام أقل بكثير من مدى رمى المقدوف من البندقية العثمانية . أما الطبر (بفتح الطاء والباء) فهي الفأس الحربية وتلك لا تczف ، وإنما تحتاج لاقتراب شديد من الخصم ، وكلما كانت المواجهة شديدة كانت أصابتها أخطر ، وأما الجنبيه فهي الخنجر وسميت بهذا الاسم لأنها سلاح مساعد توسيع في الجب ، وكانت تصنع في الزرداخنة (دار صناعة السلاح الأبيض) .

وكان من الطبيعي أن يحتزز المالكى لأنفسهم بجملة احترازات لوقاية أنفسهم ، سواء في حروبهم مع بعضهم وبعضهم الآخر او مع أعدائهم الخارجيين . فاستخدموا الخوذة من الجلد أو الحديد ، والمفر الذى يغطى الوجه كاملاً غالباً يظهر الا العينان وقد تمتد أحياناً على الأذرع والظهر فتسمى (ررف) (٢) وبطبيعة الحال ، فإن هذا لا يغنى كثيراً في مواجهة رصاص البنادق ، كما أن الإصابة ان كانت في البطن أو الجانب الأسفل أدت إلى تدحرج الجندي فيقترب منه الأعداء للإجهاز عليه بالدبابيس والطبر والرماح . وقد تفنن المالكى في أساليب الوقاية وفقاً لمقتضيات عصرهم ، وكان تفنهم هذا مفيداً في عصر ما قبل البندقية ،

(١) أحمد عدوان ، العسكرية الإسلامية .. من ٥٨ وقد أرجع هذه المعلومة إلى الهروي في كتابه الذكرة الهروية وكتب أخرى .

(٢) من تعليقات رسوم المتحف الحربى بالقاهرة - القلعة .

ومن ذلك التجنف وهو شبيه بالدرع واستخدموه القناز من جلد البقر او جلد المطا (حوان صحراوي) والجوشن لوقاية الصدر والمضض وهو خوذة مسدولة على قفا المحارب وحول رقبته ، والرانتات وهي جوارب طويلة تكسو الساق ، وفي المتحف الحربي المصري نماذج مختلفة للتروس العائدة للعصر المملوكي ، وكان بعض المالك يرتدون قمصاناً مصنوعة من الزرد الخالص ، وكان بعضهم يغطي حتى ساقيه بهذه الدروع الثقيلة . من هذا العرض يتضح أن الجندي المملوكي كان متلماً بالعدد ، ونفهم من رواية ابن زبيل أن الجيش العثماني كان جنوده أخف حركة وأسرع خاصية في مرج دابق ، كما نفهم أن السلطان سليم عندهم رأى رسول الغوري وهم « في الحديد » على حد تعبير ابن زبيل علم أنهم ما أتوا بهذا الشكل الا لارهاب جنوده ، وقال لهم بما يفيد الم يكن لدى استاذكم (الغوري) أحد من العلماء يرسله لنا ، لكنه إنما أرسلكم لنا بهذا الحديد (يقصد الدروع وخلافه) كي تفهموا عساكرنا أنه لا مجال لاصابتكم ، ثم أمر سليم — فيما يقول لنا ابن زبيل — بقتالهم وربماهم أمم العسكر ليراهם جنوده . وبصرف النظر عن قسوة هذا التصرف ، ففيبدو أنه كان أمراً ضرورياً لرفع معنويات عساكره وازالة الرهبة من الجنود العثمانيين ، ونفهم من رواية ابن زبيل أيضاً أن جنود العثمانيين كانت رواتبهم أقل بكثير من رواتب الجنود المالك ، كما نفهم أن مظهراً لهم كان أقل ابهة وثراء من منظر الجنود المالك ، وأن أسلحتهم — فيما عدا البنادق وآلات قذف النيران — كانت أقل شأناً مما لدى المالك ، على أن البنادق وآلات قذف النيران لم تكن هي الوحيدة المسيبة للنصر العثماني ، وأنها كان هناك تخلخل الجبهة المملوكية الداخلية ، وستتعرض في السطور التالية لتجارب انتصرت فيها جيوش أقل تسليحاً على جيوش مدجحة بالسلاح ، مع عدم اغفال أهمية السلاح بطبيعة الحال .

كان الجندي المملوكي متلماً في مرتبة زمنية كان السلاح فيها قد غداً أخف وربما أمضى ، وإذا كان التاريخ يفسر بعضه ببعضه الآخر فليس خروجاً عن سياقنا هذا أن نذكر أن مسألة تخفيض الائتلاف التي يحملها

الجندى ، والتى قد تعمقه عن الحركة وبالتالي عن واجبه القتالى كانت احدى شواغل قادة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، خاصة وأنه كان على الجندي أن يعبر حائلًا مائياً وأن يواجه تلا رملياً عليه صعوبة أو اختراقه ممثلاً في خط بارليف ، فكان الحل العبرى المستوحى من التاريخ بأن يكون مع كل جندي من فوج العبور الأول عربة يدفعها باليد فيها معداته الثقيلة ، وأن يكتفى بحمل ما هو ضروري جداً على كتفه وظهره ، غيمكنه أن يترك عربته بجانبه ليؤدى واجبه القتالى ثم يدفعها عند نيسر الأمور ، وكان الحل العبرى البسيط أيضًا بازالة الساتر الترابي بقوة دفع المياه بدلاً من ضربه بالداعم فكان هذا — بالإضافة لأسباب أخرى — أحد أسباب النصر .

اما ابراج الحصار فلم يشر اليها ابن زينب ويبدو ان الغورى لم يصحبها معه . وابراج الحصار بمثابة سترة للرجال الذين يشتغلون في جو المخانق انتاء لقذائف منجنىقات العدو ، ولم نفهم من رواية ابن زينب ان الغورى قد استصحب معه حتى المنجنىقات عند توجهه الى الشام ، ومن الطبيعي الا يصحب معه دبابات — والمقصود بالدبابات هنا آلات نقب الأسوار ، كما لم يشر ابن زينب الى العرادات (آلات قذف النقط المشتعل) وكلها آلات انتجهما المصانع الحربية المملوكية ، وهذا يقودنا الى سؤال مهم جداً : ماذا كان يريد السلطان الغوري بخروجه للشام ؟ ان الاجابة عن مثل هذا السؤال توضح أن الهدف لم يكن محدوداً لديه ، وبالتالي فهو لم يتخد القرار الصحيح ، ولم تكن هناك توجيهات للأركان بالهدف الاستراتيجي للمعركة . فابن زينب لم يحدثنا عن اجتماع مجلس الحرب ، وهو مؤسسة قديمة في التاريخ الاسلامي والمملوكى ، وهو مجلس يجتمع برئاسة السلطان واتابك العسكر ، ويحضره الخليفة العباسي في القاهرة ، وكان حضوره شرفياً ، ويحضره أمراء العسكر ، من جلبان وقرانيعن ... الخ ومهتمه تحديد الهدف من الحرب ، والمدى الذي يمكن أن يصل اليه الجيش المقاتل ، ومتى يستمر ومتى يتوقف ، والغاية المراد تحقيقها .. اتنا نقرأ في كتب التاريخ عن مجلس الحرب الذى عقده قطر عندما تلقى تهديد المغول ، وستعرض فيما بعد لذلك

يشيء من التفصيل . إننا نفهم من رواية ابن زنبل أن الجنود المالك نوجنوا بأنهم سيخوضون حرباً وهم في الشام قبل قيام الحرب بساعات محددة ، أو لتقى بيوم واحد . ونفهم من ابن زنبل أنه حتى الأمراء فوجئوا بأنهم سيخاربون ، وأن كثيرين كانوا يظنون أن السلطان خرج لعقد صلح بين السلطان سليم وغريمه اسماعيل الصفوي الشيعي الفارسي .. المسألة إذن مجرد حملة هي بمثابة (تشريفه) أو (استعراض للقوة) وتناقض أقوال الرواة الذين يروى عنهم ابن زنبل ، فهو يقول لنا أن الأمير سيباي نصح السلطان الغوري بعدم الخروج من مصر ، وأن يأمر أمراءه في الشام بمواجهة العثمانيين إن كان ثمة خطر لكنه رفض ، فإن كان حقاً يريد الخروج للحرب فماين المنجنيقات والمرادات .. ولم يقل لنا ابن زنبل أنه قسم المهام على جيشه قبل الخروج ، ولم يجمّعهم ليقسموا بين الولاء والطاعة اثناء القتال ، وهو اجراء له أهمية بالغة في هذه العصور وربما في كل العصور .

كان انتقال الغوري إلى الشام إذن اجراء استفزازيا لا مبرر له ، ويصرف النظر عن تناقض روايات ابن زنبل ، فإن الأحداث التاريخية التي أعقبت ذلك تفيد أن السلطان سليم لم يكن ينوي بالفعل أن يتوجه إلى مصر ، وأنه طوال اقامته فيها كان قلقاً على الاوضاع في الاناضول والروملي (أوروبا العثمانية) ، وكرر السلطان سليم لكل من قابله من أمراء المالك أن له لم يكن ينوى القدوم إلى مصر ، بل لقد عرض على طومان باي بعد هزيمته الغوري أن يذكر اسمه في الخلبة ويسكت اسمه على السكة ويعترف به خادماً للحرمين الشريفين وكفى ، لكن طومان باي لم يوافق بعد أن أجبره بعض أمراء المالك على ذلك .

والتاريخ كما قلنا يفسر بعضه ببعض ، فقد كان أحد أسباب نصر الكوبير المجيد أن التوجيه الاستراتيجي كان واضحاً ومحدداً : العبور والتوقف عند المرات الحاكمة والتوقف لفتح باب التفاوض من متطلقات تفاوضي جيد ، وتisksكت القيادة بذلك بعد تحقيقه معطية إننا صماء لأطالبين بالاستمرار ، ذلك لأن هدفها الاستراتيجي المقرر منذ البداية

والمحسوب حسابه قد تحقق بالفعل ، والامر كان مختلفا تماما في حرب ١٩٦٧ ، فالشواهد مما قرأتاه من تعرضا لهذه الحرب (هيكل وغيره) أنه لم تكن هناك نية حقيقة للحرب ، بل وفنهما أن جهوداً بذلك مع دول كبرى لمنع نشوب الحرب ، فنفي أن كانت الاجراءات السابقة على الحرب ؟ . لكن حرب ٧٣ المجيدة ثابتت بعد أن تعلم المصريون الكثير ، وبيدو أيضا أن طبيعة الاجتماع العسكري كانت قد ابتعدت على نحو أو آخر عن التراث الملوكي .

★★★

نعود للمسألة التي أثثناها من أن استخدام العثمانيين للبنادق والأسلحة النارية لم يكن هو السبب الوحيد لهزيمة المالك في مرج دابق والريدانية ، فئة تجارب عسكرية حتى في القرن السابع عشر ، حيث أصبحت الأسلحة النارية أكثر تطوراً من الأسلحة النارية التي استخدمها العثمانيون تقييداً إمكانية تحقيق انتصار من قوى لا تستخدم هذه الأسلحة إذا تعممت بكثافة بشرية وتخطيط سليم (٨) ، ومن ذلك أن البرتغاليين في بداية القرن السادس عشر كانوا يستخدمون البنادق قديمة الطراز muskets ، ومع هذا لم تحسن هذه البنادق الهدف الاستراتيجي لتوائهم المهاجمة في جنوب أفريقيا ، واكتشف البرتغاليون أن مدفعهم لا تصلح مع هؤلاء الذين ينبطحون على الأرض حتى كأنهم جزء منها ثم يشعرون إذا حان الوقت في استخدام سلاحهم البدائي ، وفي القرن السابع عشر أدرك الهولنديون أن أهل البلاد من الخواصان قد عرفوا أن بنادق المشاة الهولنديين Dutch muskets تحتاج بعد اطلاقها لفترة زمنية لإعادة تعميرها reloading : فكانوا ينتهزون هذه اللحظات للانقضاض على أعدائهم ، وأدرك أهل البلاد صعوبة اشعال فتيل

(٨) اعتمدنا في كثير من الأفكار الواردة في هذه الفقرة على :

عبد الرحمن عبد الله الشيشي : آخر الأسلحة النارية في مجتمعات جنوب أفريقيا في القرنين ١٧ و ١٨ و ١٩ ، دراسة في التاريخ الاجتماعي العسكري ، مجلة كلية الآداب جامعية الملك سعود ، المجلد ١٤ ، العدد ١ ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٩٧ م ، ص ٦٢ -

البنديقية أثناء هطول المطر to ignite in rain فكانوا ينتهزون هطول المطر لشن هجوم مضاد بأعداد كبيرة ، وواجه الزولو الأسلحة النارية بحصار العدو ومحاولة الاقتراب منه بأعداد كبيرة ، وقد أثبتت تكتيكم هذا نجاحاً ملحوظاً في مواجهة الأسلحة النارية لهذا العصر ، رغم كثرة ضحاياهم ، وظل رجال العرب والمورخون لمدة تصل إلى نصف قرن يكتبون مندهشين من هول انتصارات قبائل الزولو على الجيش البريطاني ، ذلك لأنهم — أي الزولو — بمثابة شعب مسلح (وليس مجرد جيش) وكانتوا يقتربون من العدو فجأة بأعداد كبيرة ، وكل هذا لم يتم لهم من محاولة الحصول على السلاح الناري وفهمه والتدريب عليه في حدود إمكاناتهم .

وتروى لنا صفحات التاريخ الهزيمة المنكرة التي أحاقت بحملة عكس على السودان سنة ١٨٨٣ ، فقد استغل المهديون طبيعة الأرض ، واستدرجوا عدوهم بعيداً عن مصادر المياه .. الخ ومع أن بنادق معركة مرج دابق كانت من البنادق قديمة الطراز التي تحتاج لفترة لإعادة التعمير . ولم يحاول الملاليك ابتداع خطة لمواجهة هذا السلاح الجديد ، لأن طبيعتهم (طبيعة مجتمعهم) لا تقسم بالمرونة من ناحية ، ولأنهباب أخرى سنوردها فيما بعد ، وكان العربان بمجرد سماع صوت (البندق) على حد تعبير ابن زينل يولون الإدبار مسرعين قائلين : ومن الذي يطبق النيران ؟ بينما كان الهجوم والاتفاق كافياً لبطلان مفعول هذه البنادق خاصة باستخدام تشكيل قرني البقرة الذي استخدمه الزولو وغيرهم ، لكن روح القبيلة التي غلبت روح الوطنية أو بمعنى أدق روح الائتماء للملاليك جعلتهم يولون الإدبار في مرج دابق والريدانية ، ثم عملوا بعد ذلك وبسرعة على إنشاء أمرار الملاليك لآل عثمان . ولم يتعلم الملاليك التطورات العسكرية الحادثة في مجال السلاح ، بل ولم يستوعبوا ضرورة تغيير طريقة التشكيل أو حتى الصنف لمواجهة ، موقعاً في الأخطاء نفسها عند مواجهة حملة نابليون بونابرت ١٧٩٨ فكانوا أيضاً يواجهون العدو بصفوف متراصة ، مما يجعل ملاقاته لا تخيب أو لا يخيب منها كثير ، بينما كانت طريقة الطوابير الطويلة المقللة أو ترك فرجات بين

المقاتلين يؤدى إلى ضياع كثير من مقدرات العدو . لقد واجهوا أسلحة بونابرت المتطورة بنفس طريقة الصف التي واجهوا بها آل عثمان والصلبيين والمغول . إن طبيعة اجتماعهم يجعلهم عنصراً متجمداً يصعب إصلاحه .

ويروى لنا ابن زبيل أن رجلاً مغرياً كان قد آتى إلى مصر حاملاً معه بندقية (أوريبية) إلى السلطان الغوري ، « وأخبره أن هذه البندقية ظهرت في بلاد البندق (البنديقية غالباً) وقد استعملها جميع العسكر الروم والعرب ، وهي هذه » فأمره أن يعلمها لبعض معايلكه وجئ بهم فرموا بخضرته غسامة ذلك ، وقال للمغربي : نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى ... فرجع المغربي وهو يقول : من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية ... » . ونقرأ في أكثر من وضع في كتاب ابن زبيل لعنت على أول من صنعها (أول من استخدمها) ويروى لنا على لسان أمراء المالك أنها حرام ، واستخدامها لا يدل على الشجاعة والفروسية فلو رمت بها امرأة لأصابت ، وكيف ترتفع على مسلم ، وكيف توجه النيران إلى من يشهد بالوحدانية ... الخ . وغنى عن القول أن نذكر أنه لا فرق بين أن تقذف النار في وجه من يشهد بالوحدانية ، وقطع رأسه بالسيف أو بقر بطنه بالرمح ، أو هتك جسده تحت أرجل الحيل ، أو حرقه أو أغراهه ... الخ ، وربما كان المثل المصري الشائع « الذي تغلب به العب به » يعود إلى أصول عثمانية في هذه الفترة ، والحقيقة أن استخدام الدين في مثل هذا المجال نوع من الكذب والعبث ، وعدم القدرة على التكيف وعدم القدرة على تغيير طبيعة الاجتماع . يقول الباحث ميكل ونتر (١٠) : « وتعد فترة حكم الشركس أو المالك البرجية فترة أضمحلان إذا ما قورنت بفترة المالك البحريمة (التركية) فلم يعد للسلطنة أداء خطرون ، إذ إن الفرنجة (الصلبيين) كانوا قد طردوا سنة ١٢٩١ ومع مطلع القرن الخامس عشر بعد انسحاب تيمور لنك من الشام ، لم يعد المغول يشكلون تهديداً

(١٠) في كتابه : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني ، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم (سلسلة الألف كتاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

أيضاً فلم يطور الجيش طرائق فنية عسكرية جديدة (تكتيكات) ، كما لم يتخذ تكنولوجيات عسكرية جديدة ، ذلك أن المالك رفضوا استخدام أسلحة نارية وهي التسليح الحديث لهذا الزمان ، معتبرين أنها أسلحة لا تمت للفروسية أو الرجولة أو الاسلام ، كما لم يمكن استخدام البنادقية من فوق صهوة جواد . . . ونتيجة لذلك من الجيش الملاوكى بفترة طويلة من الركود . . . بينما كانت الجارة الشمالية (الدولة العثمانية) تتطور تطوراً سريعاً من امارة صغيرة اقيمت في بداية القرن الرابع عشر في الركن الشمالي الغربى من الأناضول . . . واشتبت في حرب مقدمة ضد البيزنطيين وراجحت توسيع باسطراد على حساب الحكام المسيحيين في البلقان المشرق ، وعلى حساب الإمارات التركية في الأناضول . . . وبعد أن استولى العثمانيون على القدسية ازداد توجس المالك من التوسيع العثماني . . . وفي نهاية القرن صارت العلاقات الدولية في الشرق الأوسط - تجاه - أكثر تعقيداً اذ حرم الاكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والوصول للهند ، مصر من عوائد تجارة التوابل فأفسهم ذلك في مضاعب اقتصادية . . . لكن الحقيقة أن هذه المصاعب الاقتصادية لم تكن هي سبب جنود العقلية المملوكية وامتناعها عن تطوير قواتها المسلحة ، فقد ظل النظام العسكري الاجتماعي المملوكى مختلفاً على نفسه لفترة طويلة قبل الاكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح . فلم تكن المسألة مسألة مشكلة اقتصادية وإنما هي في الأساس مشكلة اجتماعية ، فقد امتلك المالك - بالفعل - الملاحد (المدافع) لكنهم لم يتتوسعوا في صناعتها بعد زوال الخطر المغولى والصليبي ، ويشير لنا ابن زنبل إلى أربعة مدافع مملوكية تم دفنها في الرمال في مصر كما خرج معه للشام أمير مكحل (أي خبير مدفع) ، وان كان ابن زنبل لم يشير الى ملاحد (مدفع) مملوكية في معركة مرج دابق ، ولم تطلق الا قذيفة واحدة من هذه المدفع المملوكية اطلقتها رجل عابر أصم وفقاً لرواية ابن زنبل .

وإذا كان التاريخ - كما كررنا آنفاً أكثر من مرة - يفسر بعضه ببعضه الآخر ، فإن تغير طبيعة الجندي المقاتل كانت أحد أسباب نصر

اكوبيه المجيد سنة ١٩٧٢ ، ففي هذه الحرب زاد عدد الجنود المؤهلين المتعلمين القدر على استيعاب الموقف والقدر على التطور ، مكان العابرون مهندسين واطباء ومعلمين ومحاسبين عسكريين ، ومن هنا فقد بنت الدولة بعد ذلك قضية التعليم كقضية محورية .



وحتى لا يفهم من العرض السابق أن المعركة بين المماليك والعثمانيين كانت معركة بين طرفين حاز أحدهما كل المزايا فانتصر ، وحاز أحدهما كل النقائص والعيوب فانهزم ، كان لا بد من التعرض للجيش العثماني المنتصر على نحو ما تعرضنا للجيش المملوكي ، وقد أشار ابن زبيل لشيء من هذا ، وسنورد مقتطفات مما أورده في سياقها .

بالحقيقة أن القوات المسلحة العثمانية لم تكن تختلف كثيراً من حيث التكوين عن القوات المملوكية ، فالنظام في كليهما مملوكي (قوامه العبيد البيض) ، فما الذي جعل كفة العثمانيين هي الراجحة . إن ذلك يعود إلى حزم السلطان العثماني وإحداثهم للتوازن بين (ثنت) العسكر فأمسكوا بالعصا بحرم ، وكان التوازن الاستراتيجي بين القوات معلوماً محسوباً له حدود ، والأهم من ذلك أن القوات العثمانية كانت في حالة مواجهة خطير دائم منذ فترة طويلة ، فهي في حالة قتال متواصل سواء في الأناضول قبل توحيده تحت سيادة آل عثمان ، أو في البلقان حيث اتخذت الحروب طابع الجهاد المقدس ، أو ضد نارس حيث اتخذت الحروب أيضاً طابع الجهاد المقدس ضد الشيعة الذين كان يطلق عليهم الروافض بل وأحياناً الكفار . كل هذا جعل الجندي العثماني أكثر يقظة واحساساً بالخطر من المماليك المصريين الذين عاشوا في ظل النعمة طويلاً بعد زوال الخطرين المغولى والصلبى . أما من حيث التشكيل والتركيب ، فهو واحد تقريباً كما سبق القول فيما عدا بعض التعديلات على الجانب العثماني انتصاراتها دخول الأسلحة الناريه ، وفيما عدا قلة الاختلافات العرقية أو العنصرية بين الانكشارية (اليونكرية) الذين

كانتوا هم عماد الجيش العثماني في هذه الفترة والفترة السابقة عليها ، والفترة اللاحقة عليها الى ان تم التضاء عليهم بعد أن استعصوا على الاصلاح وهو ما سلط ذكره فيما بعد .

تقرأ في كتاب محمد مزید بك (١١) : « من اهم اعمال علاء الدين — اخي السلطان اورخان الأول الذى حكم سنة ١٢٨١ م ، وكان علاء الدين متولياً لأمور الدولة الداخلية بينما تفرغ اورخان الثاني لتوسيع الدولة ومقاومه اعدائها — ائله وضع نظاماً للجيوش المظفرة وجعلها دائمة اذا كانت قبل ذلك لا تجمع الا وقت الحرب وتصرف بعده ، ثم خشي من تحزب كل غريق من الجندي الى القبيلة التابع لها وانقسام عرى الوحدة العثمانية .. فما شار عليه أحد فهو لهذا العصر واسمه قره خليل باخذ الشبان من أسرى الحرب ، وفصليهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم ابا الا السلطان ولا حرفة الا الجهاد ، ولعدم وجود أقرب لهم بين الأهالى لا يخشى من تحزبهم .. فلما كثر عددهم ذهب بهم الى الحاج بكتاش فدعوا لهم وأسماهم ينى تشارى ، اوى الجيش الجديد وحرف الاسم بالعربية الى انكشارية .. » .

هل يختلف هذا النظام في روحه عن نظام المماليك ، بالطبع لا ، والفارق الوحيد انه لم يكن لأحد الحق في أن يكون الله انكشارية الا السلطان ، وهو فارق جوهري على آية حال .

ومهما يكن من أمر ، فهى مرحلة لاحقة خرج الانكشارية عن حدودهم وتعدوها؛ مما جعلهم سبباً في تأخر الدولة . وقد أصدر السلطان محمود الثاني في ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ قراراً بلغاء هذا النظام بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم ، فحقيقة الأمر ان نظام المماليك (سواء بحرية او برجية او انكشارية) نظام غير طبيعي نحن الحال ان يفلح أحد في تكوين قطاع من البشر على نحو ما يكون قطاعاً من الثيران ، واذا كان محمود الثاني

(١١) في كتابه الدولة العلية العثمانية . تحقيق احسان عباس ، ص ١٢٢

قد أجرى مذبحة للإنكشارية سنة ١٨٢٦ ، فقد سبقه محمد على وأقام المماليك مذبحة سنة ١٨١١ . والقضاء على عدد كبير من المماليك أو الإنكشارية لا يحل المشكلة ، إذ إن تراثهم يبقى من خلال ذرارتهم ، ومن خلال تراثهم المتوجل في المجتمعات التي عاشوا فيها ، ولم تكن مصر في عهد محمد على ولا الدولة العثمانية في عهد محمود الثاني قد يلتفت مرحلة حضارية يجعلها تدرك أن مجرد اصدار القوانين أو ذبح المماليك لا يكفي لحل مشكلة هذا التراث الملوكي (تراث العبيدين البيض) ، فهناك الحل للمعماري أي إعادة تصميم المساكن بحيث تنسجم على روح معسكر العزاب ، و إعادة ترتيب نظام الترقى والكافيات ليكون قعلاً لصاحب الانجاز الأكبر ، ومراقبة تشكيل أي تكتلات في الجهاز الإداري على أساس مصلحية أو عرقية ، ومراقبة تبادل المنافع بين مسؤولي أجهزة الدولة المختلفة ، ومنع الاحتكاك المباشر مع مسؤولي الجهاز الإداري قدر الامكان باتجاه المعاملات بالبريد مثل .. الخ ، ولعل اثارة قضية (أهل الثقة) و (أهل الخبرة) في السنتين من هذا القرن هي في حقيقتها إعادة طرح قضية مملوكية صميمية .

ولم يكن تخلص محمود الثاني من الإنكشارية هو المحاولة الوحيدة فقد سبقه عدد من السلاطين في محاولات أخرى مختلفة ، لعل أهمها محاولة جرت في عهد عثمان خان الثاني سنة ١٦٢٢ ؛ لكن محاولته فشلت وقتله الإنكشارية (١٢) .

وكم أفسدت الصراعات المملوكية الحياة السياسية في مصر ، كذلك أفسد الإنكشارية الحياة السياسية في الدولة العثمانية ، وكما نبه مماليك مصر حصاد جهد الفلاحين من أهل البلاد ، فعل الإنكشارية الشيء نفسه في الأناضول ، وإن كانت درجة الذل التي حاقت بالفلاحين المصريين أشد وأفظع فلم يكونوا من العناصر المقاتلة لسكان الأناضول ، وحقق العريان في مصر بعض المزايا في ظل المماليك لا لشيء إلا لأنهم عناصر مقاتلة .

(١٢) محمد فريد ، مرجع سابق ذكره . عن ٢٧٨

ولم يكن ابن زنبل جاهلاً تمام الجهل بالوضع العثماني ، فهو يحدثنا عن الخلافات بين السلطان سليم وأبيه وأخوته :

« ... فان السلطان سليم كان له اخ اكبر منه يسمى السلطان احمد وكان حاكم بورصة ، وكان اخوه قرقورد حاكم المغنيسيا ، والسلطان سليم قبل ان يتسلطن كان حاكم طرابزون ، ولكنه كان ذا همة وطلب الملك على اخوته فالله تعالى زواج ابنة ملك التتار خان ليكون ظهراً له فتزوجها ، ثم تجرد بعد ذلك لأخذ الملك من أبيه لما سمع من الجواسيس الذين كانت تأتيه بالأخبار بأن أباه السلطان بايزيد ضعيف على موت ، وانه أرسل لولده احمد يحضره ليقلده الملك ... وجرد سليم العسكر على أبيه الذي أمر بالخروج لللاقاته .. وعاون كمال أغا السلطان سليم ضد أبيه الخ » .

الصورة على الجانبين اذن لم تكن تختلف الا في التفاصيل ، لكن احساس العثمانيين بالخطر كان أعمق مما لدى مماليك مصر ، وكان العثمانيون ، كما سبق القول ، في حالة حرب مستمرة ، بينما كان المماليك المصريون قد أنسوا للراحة منذ فترة طويلة ، بالإضافة بطبيعة الحال للأسلحة النارية التي كانت لدى العثمانيين ولم تكن لدى المماليك .

وكان انهيار الانكشارية بعد ذلك في القرن القاسع عشر يرجع للأسباب نفسها التي أدت لانهيار العسكرية المملوكية ، ومحور هذه الأسباب هو عدم القدرة على التطور واستيعاب الأسلحة الجديدة ، وتغيير تشكيلاتهم وفقاً للظروف المتغيرة ... الخ .



لم يكن سبب تفكك الدولة العثمانية وانهيارها في النهاية - فيما يقول بول كولز (١٣) الباحث في التاريخ الاجتماعي - نتيجة قصور في القوانين والتشريعات ، فقد أخذت أوزيماً كثيراً من التشريعات والتنظيمات

(١٣) في كتابه : العثمانيون في أوروبا (سلسلة الآلف كتاب الثاني - الهيئة العامة للكتاب) ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ .

العثمانية ، لدرجة أن كتاب كولز *الأنف ذكره* صدر ضمن سلسلة عنوانها (الحضارة الأوروبية European civilization) ، مما يعني أن أوروبا اختت كثيراً من النظم العثمانية ، كما أن أحد السلاطين العثمانيين العظام عرفة باسم (القاتونى) وأحياناً (الباهر) أو العظيم ، وهو السلطان سليمان ، وفي مرحلة الانهيار العثماني يذكر بول كولز نقلًا عن مراقبين معاصرین أن الأجهزة الإدارية العثمانية لم تكن تختلف من حيث التركيب عن الأجهزة الإدارية الأوروبية ، كل ما في الأمر أن الأجهزة العثمانية كان يشغلها العبيد ويدبرونها بروح العبيد (المالك) ، وهناك فرق كبير بين أن يوكل تنفيذ القوانين لثلة من العبيد لا تعمل على تنفيذ روح القانون ، وإنما تدور حوله وتفرغه من معناه تحقيقاً لمصالح « الشراذم » أو التكتلات المصلحية . وإذا تجاوز التطور جماعات المالك عمدوا إلى التظاهر بالقوة والتفاهم بالتفوّذ أو تشكيل جماعات التفوّذ والظهور بمظاهر القوة الكافية ، لقد كان النظام المملوكي في فترة من الفترات ذا مزايا عسكرية : لكنه في كل الأحوال كان لعنة على المستوى الاجتماعي !! .

القسم الثاني

وافعة السطه الغوري

مقدمة

بقلم الاستاذ / عبد المنعم عامر

لم تشهد بلاد مصر في تاريخها السياسي فترة أظلم من تلك الحقبة التي خضعت فيها لحكم المالكية البحريية ، والجراكسة ، من سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥١ م) ، ٩٢٣ هـ (١٤٠٧ م) ، فلقد حاول يأهله مصر في هذه المدة ما ران على قلوب هؤلاء المالكية الحكام من الاستعباد والقهر(١) ، واشتدت الحياة على المصريين في نظام الاقطاع الذي صار فيه الفلاح المصري أجيراً تتنازع ثمار جهوده أهواء الفالبين وذوى التفوه من الحكام والكشافة (٢) ، ومن هم على شاكلتهم من التابعين .

(١) هذان التاریخان اللذان حددهما الاستاذ الحقق يشيران فقط الى قيام السلطة الرسمية للممالک وسقوطها ، لكنهما لا يشيران الى فترات الحكم الملكي الفعلية ، فالحقيقة التاريخية وتعنى بها الحقيقة التي تلت الفتح العثماني لمصر ، كانت ايضاً مملوكة فلم يكن للعثمانيين الا الخطبة والسلطة وحماية السواحل المصرية ، أما الحكم الحقيقي فقد ظل كما هو في أيدي المالكية ، لذلك عرفت الحقيقة العثمانية لدى عدد كبير من المؤرخين باسم الحقيقة العثمانية المملوكية . راجع الدراسة التفصيلية في صدر الكتاب .

(٢) كان منصب الكاشف (والجمع كشاف أو كشفة - بفتح الكاف والشين) منصباً في نهاية من الأهمية في عهد سلاطين المالكية ، وكان يفوق منصب والي الأقاليم ، ففي عهد دولت المالكية الأولى (البحريية) كان هناك كاشف للوجه البحري يمتد من نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وأخر للوجه القبلي يمتد نفوذه إلى جميع أقاليم الصعيد ، وكان الكاشف يسمى والي الولاة وكان له نفوذ كبير على الأقاليم التابعة له ، أما في عهد المالكية الجراكسة فكان لكل من الوجهين البحري والقبلي نائب . (عاشر ، العصر المالكي ، ص ٣٥٨) واستمر المنصب في العصر العثماني المملوكي ، لكن الكاشف تحولوا إلى مجرد مديرین لقرى الكشوفية وتقلصت مدة توليهم لتصبح سنة واحدة ، رغم قيامهم بتحصيل المال الميدري ، والاشراف على الجسور وضبط الأمن .. الخ . واستقلوا معاذيبهم للاستيلاء على أراضي الغير والاثراء . (عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصري في القرن ١٨ ، ص ٤٨) *

ولم تكن مصر في هذا الوقت وحيدة فيما صار إليه أمرها ، أو فيما آل إليه حال أهلها ، واتما شاركها في النظام العام للحكم وفي اللون الخاص لأسلوبه القسم الثاني من السلطنة المملوكية ، ممثلا في البلاد الشامية .

فلقد كانت الوحدة قائمة بين مصر والشام منذ أن غلب صلاح الدين الأيوبي الاستعمار في الحروب الصليبية ، وتولى أمر السلطنة وقضى على الروح الانفصالية في البلاد العربية والإسلامية ، فجبر بفعله ذلك الصدع الذي أصاب بنیان الدولة الإسلامية بانهيار الدولة العباسية وسقوط الدولة الفاطمية .

وكانت مصر والشام بعد حكم صلاح الدين بلدا واحدا تحكمه القاهرة ، مقر الدولة ومركز السلطان ومقام الخليفة العباسي ، ودام حكم دولة الأكراد (٣) مدة اثنتين وثمانين سنة ، إلى أن سقطت الدولة الأيوبيية زمن توران شاه على أيدي المماليك الذين استقدمهم أبوه الصالح نجم الدين أيوب حماة لدولته وقد كانوا معه مدة سجنه بالكرك حتى خلص من السجن سنة سبع وثلاثين وستمائة وملك مصر ، فحمد لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، ثم أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وبطانته المختصين بدهليزه اذا سافر ، وأسكنهم معه في قلعة الروضة ، وسماهم المماليك البحريية ، وكانوا نحو الألف ، كلهم من الأتراك ، ولقد كان شراء المماليك أمراً تالقه الملوك والأمراء ليتقوا به (٤) .

(٣) المقصود الدولة الأيوبيية .

(٤) عين بعض الخلفاء العباسيين مماليك (عبيدا بيضا) لحكم مصر ومنهم الوالي على بن يحيى الأرماني في الفترة من ١٠٢٦ م / ٩٤١ م إلى ١٠٢٨ م / ٩٤٣ م) ويزيد ابن عبد الله التركى في الفترة من ١٠٢٥٤ م / ٩٦٨ م إلى رمضان من العام نفسه ، واستطاع =

وأول من تسلطن من هؤلام المماليك الملك المعز عز الدين أيك الجاشنكير (٥) التركمانى الصالحي سنة ثمان وأربعين وستمائة بعد زواجه من شجرة الدر وحدوث الفتنة فى البلاد مما ترتب عليه اجتماع رأى الأمراء على إقامة الأشرف مظفر الدين موسى من ذرية الدولة الأيوبية شريكا له فى السلطنة، فأقاموه معه وعمره نحو سنتين ، فصارت المراسيم تصدر عن الملكين إلا أن الأمر والنهاى للمعز ، وليس للأشرف سوى مجرد الاسم ، إلى أن قبض عليه المعز وسجنه ، وقطع اسمه من الخطبة ، وانفرد بالسلطنة ، فكان ظلوما غشوما سفاكا للدماء .

واستمر حكم المماليك البحرية إلى أواخر سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وقد فسدت في مدة حكمهم أحوال المملكة ، وزاد افساد العرب في البلاد ، وغامر غالب النواب في البلاد الشامية ، فخرجوا عن الطاعة ، فاقتضى الحال إقامة سلطان تجتمع حوله الكلمة ، ويسكن به الاضطراب .

فتولى الملك السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق بن الفى ، وهو جركسي الجنس ، أخذ من بلاد الجركس ، وبيع في بلاد القرم ، وجلب إلى القاهرة فاشتراه الأمير يليغا الخاصى ، وأعتقه ، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب (٦) .

= احمد بن طولون وكان واحدا من ريق الخليفة العباسي المعز بن الموكى ، إن تكون له ولديته دولة شبه مستقلة بمصر ، فكما أن أسلوب المماليك لم ينته بسقوط السلطة المملوكية سنة ١٥١٧ فإن له أيضا جذورا تاريخية أعمق في مصر .

(٥) الجاشنكير في الأصل وظيفة يقوم شاغلها بتذوق الماكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خرقا من أن يكون مسموما . (عاشر ، مرجع سابق ذكره ، من ٤٠٣) .

(٦) أو الجالب أي الذين تم شراؤهم كبارا (ليسوا في مرحلة الطفولة) أما المماليك الترابيون فهم الذين تم اسرهم أثناء الحروب وهم اطفال .

وبدأ عهد دولة المماليك العراكسة ، واستقر برقوم في الحكم ، فأخذ يكثر من شراء المماليك ، وقد رخص لهم بالسكنى في القاهرة وبالزواج ، فنزلوا من الطباق في القلعة ، وتزوجوا بنساء أهل البلد ، وأخلدوا إلى البطالة ، وتغيرت أحوال الدولة وعاداتها ، ورفع نواب البلاد الشامية لواء العصيان ، ووقع بينهم وبين عساكر مصر وقائع كثيرة ، سفكت فيها الدماء ، وقد دام الاضطراب حتى حضر يلبغا الناصري بعساكره من الشام ، فحارب عساكر السلطان برقوم خارج باب النصر ، فانهزمت عساكر السلطان واختفى برقوم ، واستولى يلبغا على القلعة ، فأخرج حاجي بن الأشرف آخر سلاطين الدولة الأيوبية من دار الحرير ، وولاه السلطنة ، ولقبه بالمنصور .

ثم قبض يلبغا على كثير من الأمراء ، وامتدت أيدي العساكر الشامية إلى النهب والسلب ، فارتجمت القاهرة ، وأكثر الناس من الشكوى إلى يلبغا ، فمنع هذا ، ثم أخرج جميع مماليك الظاهر برقوم من مصر ، وأكثر البحث عنه حتى ظفر به ، فقبض عليه ، وأرسله مسجونا إلى الكرك .

وبعد هذا حدثت عداوة بين الأمير منكاش وبين الأتابك يلبغا تسبب عنها فتنة ومحاربات آل الأمر فيها إلى أن هرب يلبغا وخلص الأمر إلى الأمير منكاش ، فعزل وولي . وتصرف تصرفا مطلقا .

وفي تلك المدة تمكّن الملك الظاهر برقوم من الخروج من الكرك ، وانضم إليه مماليكه وكثير من العرب ، وحصل له مع ولاء الشام والملك المنصور وقعات عديدة انتهت

برجوعه الى السلطنة ثانية ، فمال اليه كثير من الناس ، وصار يهجم على البلاد الشامية ليخضع له النواب فيها حتى استتب له الأمن .

وكان تيمورلنك في هذه المدة يعبث في البلاد بجيشه الباغية ، وحصل بينه وبين المصريين وقعت كثيرة ، واستولت عساكره على بغداد ، ففر صاحبها الى مصر ، فأكرمه السلطان ، وأنزله في دار تطل على بركة الفيل ، ثم جهز له جيشا ، وسار معه بنفسه الى الشام ، وكان تيمورلنك قد رحل عنها ، فرجع السلطان برقوق الى بلاده ، وتوجه صاحب بغداد الى مملكته .

وكانت هذه المدة كلها حروب وشدائد ، ووقع فيها غلام وبلاء بمصر ، تسبب عندهما خراب كثير في البلاد . واستمر السلطان برقوق في الملك الى أن مات سنة احدى وثمانمائة ، وتبعه في الحكم من بعده أربعة وعشرون سلطانا من الماليك الجراكسة ، آخرهم الملك الأشرف طومان باي الذي تولى السلطنة بعد وفاة السلطان سليم العثماني مع السلطان أبي النصر الأشرف ، قانصوه القورى ، ودام سلطانا الماليك الجراكسة احدى وعشرين ومائة سنة تقلبت فيها البلاد أطوارا مختلفة من العمارة والغراب ، وخضع الحكم فيها لنظام القوانين التترية بعد أن كانت الأحكام تقضى على الشريعة الإسلامية ، واختلط الحق بالباطل ، ومزج الحسن بالقبيح ، وصار نظام الحكم ذا وجهين ، الوجه السياسي ، والوجه الشرعي ، وقد فوض لقاضى القضاة كل ما يتصل بالأمور الدينية من الصوم والصلوة وأمن الأوقاف والأيتام

والنظر في القضايا الشرعية كالديون والزوجية ، وجعل العكام لأنفسهم قوانين أخرى ، يقضون بها في أقضيتها ، وقد رجعوا فيها إلى أصول قوانين جنكيز خان التي وضعها بعد أن صار ملكا .

وكانت القلعة مسكن المالك السلطانية وخصوصاً النساء بنسائهم وملائكتهم ودوارينهم ومطابخهم ووسائل ظلائهم ، وكان بها عدة أبراج لسجن النساء والمالك ، وجب هائل مظلم كريه الرائحة كثير الوطاويط أعد لذلك أيضاً .

واستجد في القاهرة أيام المالك الجراكسة عمارت فخيمة ، وكشت القصور والبساتين في ضواحي المدينة وفي بولاق ومصر القديمة ، وكان نطاق العمارة آخذًا في الاتساع رغم كثرة التقلبات وتواлиها ، فقد كان المالك يتنافسون ويتفاخرون في بناء الدور والمدارس والجوامع والأسبلة والقبور .

وكان أهل مصر ينتفعون بما في أيدي المالك من الرزق ، وكان خدمهم يبيعون للناس ما تصل إليه أيديهم من اللحم والسمن والعسل ، وسائل المأكولات والملبوسات ونحو ذلك بأبخس الأثمان . وكانت لهم سوق يباع فيها القاضل من الأطعمة التي يأخذها الخدم من الأسمطة .

ثم فشا في الناس الفلم والعدوان ، وكثرت المصادرات ، وغلبت السيئات على الحسنات ، ومال العكام وأتباعهم إلى الغواية والفساد ، وآخلوا بكثير من شعائر الدين .

أما سكان الريف فقد كانوا يعيشون في نظام يغيب من القطاع ، يقوم على استغلال الفلاح المصري وسلبه أمواله وثمار جهوده ، وكانت البلاد المصرية مقسمة إلى أقاليم ، تسمى كشوفيات . وعلى كل إقليم كشاف من الأمراء ، وفي الوجه القبلي سبعة أقاليم وبالوجه البحري سبعة أخرى .

وكان يعين في كل سنة على كل إقليم كشافون آخرون يسمون « كشافي التراب » وعملهم جمع ما يتعين على الأقاليم أداء إلى الدولة من الأموال والرجال لحفتر الترع واقامة الجسور ، وحفظ شواطئ النيل زمن الفيضان . وتعيش قبائل العربان بين هذه الأقاليم أو على حدود البلاد ، وتتشعب هذه القبائل إلى طوائف ، يرأس كل منها أمير ، من تحته جماعات أخرى من الأمراء .

ولم يكن هم المالكين بصالح البلاد شيئاً يذكر بجانب ما كانوا يهتمون به من المصالح الذاتية ، وقد دبت فيهم نوازع الحسد ، وجرت بينهم دوافع الضيق وحب التعالي والطمع ، فأبطل كل واحد منهم ما أحکمه الآخر ، ونقض ما أبرمه^(٧) ، فتفرق كل منهم ، وساقت سيرتهم ، وصاروا شيئاً وأحزاباً تهوى بها رياح الجهالة والعمق ، فأصبحوا بلا عدة تحفظهم ولا قوة تمنعهم وعم الفساد في البلاد ، قاصيها ودانيها ، وتتوالت موجات الفلاء والأمراض ، وتعاقب الوباء ، وأهمل أمر الرى . وسائ توزيع المياه ، فطمت الترع والخلجان ، وانقطعت المياه من المزارع ،

(٧) طبيعة المجتمع الملوكى (اجتماع العبيد) تفرض ذلك ، فروح العسكرية الذي اجتمع فيه أغذاب ، وروح ارتباط جملة مماليك بسيد (او استاذ) تقتضى بالضرورة أن يحطم كل مملوك جهد الملوك الآخر .

وخيفت السبل ، وسلب الأمان ، فطمع العثمانيون في ملك المالك (٨) .

★★★

ويسجل هذا المخطوط الذي ألفه ابن زنبل ، الشيخ أحمد الرمال حوادث الحرب التي قامت بين المالك والسلطان العثماني ، من أولها ، في موقعة مرج دابق بالشام إلى نهايتها في موقعة أمبابا ، وانتهت بهزيمة المالك والقضاء على سلطانهم المطلق .

والشيخ أحمد الرمال ، هو أحمد بن أبي الحسن علي بن نور الدين المحلي الشافعى ، ابن زنبل وهو خير من يؤرخ لهذه الواقعة ، فقد عاصرها وعاش في جوها وشاهد الحوادث فيها ، وكان منها بمنزلة المشير على المالك يضرب لهم الرمل ، ويكشف لهم عن حظهم في كل موقعة ، وهم يأنسون إلى رأيه ، ويصدقون قوله .

وقد توفي ابن زنبل بعد سنة ٩٦٠ هـ ، وبقي كتابه المسمى « وقعة الغورى والسلطان سليم وما جرى بينهما » مخطوطا لم ينشر ، حتى كان عام ١٢٨٧ هـ فطبع جزء من الكتاب ، طبع حجر بالاستانة ، لكن لم يتم تحقق نشر جملة الكتاب رغم أنه يصور حقبة هامة من حياتنا التاريخية ، وقد اعتبره المؤرخون مصدرًا أصليًا من مصادر التاريخ المصري ، واعتمد عليه رواد القصة التاريخية فنسجوا من

(٨) هذه مسألة خلافية بين المؤرخين ، فالثابت أن السلطنة المملوكية هي التي تحرشت بالدولة العثمانية دون استعداد حقيقي للمواجهة العسكرية ، ولم تحدث معركة حقيقة في مرج دابق ، وإنما حقق العثمانيون في هذه المعركة « نصرًا بلا حرب » (راجع الدراسة في صدر هذا الكتاب) وتضيف هنا أن بكرات مصر (المالك) كان لهم وضع خاص لم تمسسه الدولة العثمانية كثيراً بعكس الحال في الولايات الأخرى .

بعض حوادثه قصصا له أثره في الحياة الأدبية المعاصرة ، كما فعل السيد الأستاذ سعيد العريان في قصته المشهورة « على باب زويلة » .

ولكتاب ابن زنبل عدة مخطوطات :

١ - المخطوط رقم ٣٧٦ تاريخ تيمور ، وهو محفوظ بدار الكتب بالقاهرة ، وعدد صفحاته ٢٣٧ صحفية ، مقاسها ١٩٠ × ١٤٥ ملم وعدد الأسطر في الصحفة ستة عشر سطرا ، وفي كل سطر سبع كلمات . وقد كتب بخط تعليق وبقلم واحد ، عدا الصفحات رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٣٩ و ٥٠ ، والجزء الأسفل من الصحفة ٣٨ فقد كتبت بقلم مختلف ، وتاريخ الفراغ من نسخ هذا المخطوط يوم السبت السادس عشر من شهر صفر سنة ١٠٦٥ هـ .

٢ - المخطوط رقم ٧١٤ تاريخ تيمور بدار الكتب بالقاهرة ، أوله ٠٠ الحمد لله على كل حال ، وبعد فقد سأل الفقير محمد الزنبلي الرمال أن يوفقه الله تعالى ويعينه على التيسير أن يؤلف سيرة الملك الأشرف السلطان الفوري مع السلطان سليم خان ..

وآخره ٠٠ ولما مات تولى محمد باشا ، ثم تولى على باشا الطواشى ومات بمصر ، ودفن بجانب القاضى بكار ، وهلم جرا ، باشا بعد باشا الى يومنا هذا .

وكان الفراغ من نسخ هذا المخطوط رابع يوم من شهر رجب من شهور سنة ١٢٠٩ هـ ، وقد كتب هذا المخطوط على ورق صقيل لامع من ٣٠٣ صحفائ ، مقاس كل صحفة منها ٢٣٥ × ١٧٠ ملم ، وعدد الأسطر في الصحفة الواحدة خمسة عشر سطرا ، وفي كل سطر ثمانى كلمات .

٣ - المخطوط رقم ٤٤ تاريخ بدار الكتب ، وهو جزءان ضخمان ، يحوى الجزء الأول ٦٠٩ صحفاً ، والجزء الثاني ٢٠٦ أوراق ، وقد قام بنسخ الجزء الأول محمد قناوى محمد، وفرغ من كتابته فى اليوم السادس والعشرين من شهر شوال سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وalf من نسخة أعارتها البطريريكية القبطية الأرثوذكسية المرقسية بالقاهرة لدار الكتب .

وهذا الجزء ناقص من أوله ومن آخره .

وأما الجزء الثاني فقد انتهى نسخه فى يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من شهور سنة ثمان وستين (وalf) من الهجرة ، وعليه تمليل برسم شيخ الاسلام محمد الدميرى العنفى تاریخه سنة ١١٥٧ هـ .

وأول الجزء الثاني . . . ولما أصبح الله بالصبح وأضاء بنوره ركب السلطان طومانبای بعدما صلى الصبح ، وكذلك الأمير جانم بمراكبه من بر الشرق الى بر الغرب .

٤ - مخطوط بمكتبة الجامعة بالاسكندرية مبيع من الدكتور عطية سوريال ، وعليه خاتم احدى خزانات الكتب بالمانيا .

ولقد اعتمدت فى نشر الكتاب على المخطوط رقم ٣٧٦ تاريخ تيمور ، وجعلته الأصل ، لسبق وجوده ولتكامله واتفاقه مع المخطوط الآخر المحفوظ بمكتبة جامعة الاسكندرية فى كثير من نواحي الشبه ومع المخطوط رقم ٧١٤ تاريخ تيمور بدار الكتب ، وان الخلاف الموجود بين هذه المخطوطات

الثلاثة والمخطوط رقم ٤٤ تاريخ بدار الكتب لهو خلاف واضح وجوهى وبخاصة خلاف العجم الذى يرجع سببه الى الاستطراد والسرد لحوادث تاريخية لا صلة لها بهذه الفترة من الزمن ، والى ذلك الشعر الطويل الكبير الذى يرافقه المخطوط رقم ٤٤ عن حوادث قديمة ، قد لا يكون لها صلة بما يعرضه الكتاب من تاريخ وقعة السلطان سليم مع السلطان الغورى مما لا يجد فيه القارئ فائدة ترجى او لذة تحسن ، وانما عمد فيها واضع الكتاب الى جمع قصص منه ما يمثل القصص المثيولوجى ومنه ما يمثل غيره ، بدون ربط او شبه ، وفي استطراد يكاد يذهب بالمادة التاريخية التى حواها الكتاب .

ويبدو لي أن هذا المخطوط لا يصور المخطوط الذى ألفه ابن زنبل تصويرا صادقا لخلافه مع المخطوطات الأخرى ولأن عنوانه كتب بنفس الخط وال عبر اللذين كتب بهما تمليلك الشيخ محمد الدميرى ، فضلا عن أن الجزء الأول منه منسوخ نسخا حديثا ، ولم يتيسر لي العثور على الأصل المنسوخ منه هذا الجزء .

ومن خصائص هذا المخطوط الذى أقوم بنشره أن العلامة الألمانية للورق تتفق مع تاريخ النسخ ، وأنه معقب تعقيبا كاملا ، تحوى كل صفحة يمنى في زاويتها السفلية الكلمة التى تبدأ بها الصحيفة التالية لها ، وقد التزم الناشر كتابة « قال الرواى » بعبر أحمر .



ولقد عرض المؤرخ ابن اياس فى كتابه : « بدائع الظهور فى وقائع الدهور » الحوادث التاريخية التى روتها

ابن زنبيل في كتابه ، مفرقة على التوقيت اليومي الذي اتبعه ابن اپاس في كتابة تاريخه ، وتخالف روایتا هما في كثير من الأحيان ، ولقد أثبت الخلاف في هوامش الكتاب مضافا اليه ايضاحات لأسماء البلاد والأعلام والمعطيات اللغوية ، التي توضح للقارئ ما يستغلق عليه ادراكه من الألفاظ والتعبيرات التي لا تشيع في أسلوبنا المعاصر ، وأسميت الكتاب « آخرة المالك » مع المحافظة على الاسم الأصلي « وقعة السلطان الغوري مع السلطان سليم » ، تمشيا مع الجرس الموسيقى لأسماء الكتب الحديثة .

وعنيت في تحقيق الكتاب ونشره بترقيم الأسلوب وتفصيم عباراته إلى فقرات متناسبة تتفق في حوادثها ومجرياتها وفي أزمانها ، ولم أعمد إلى تصويب عبارة الكتاب من الناحية اللغوية أو من الناحية الاعرابية ، ابقاء على الأسلوب في وضعه الذي يصور اللغة التاليفية في عصر ابن زنبيل حتى يكون الكتاب مادة للدراسات اللغوية المقارنة في العصور المختلفة .

ولقد ذيلت الكتاب بملحق يوضح القاهرة وما كانت عليه أقسامها أيام المعركة فتتضخج للقارئ ميادين القتال وأماكن الحوادث ، واعتمدت في هذا على كتاب خطط المقريزى وكتاب خطط على مبارك المسماى « الخطط التوفيقية » وعلى كتاب « تاريخ العبرى » ، وأرجو أن أكون قد وفقت في تزويد المكتبة التاريخية المصرية بمصدر هام من مصادر التاريخ المصرى .

ذكر خروج السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى من مصر

لقاء السلطان سليم بمصر دابق

وكان خروجه من مصر يوم السبت السادس عشر (★*)
ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وتسعمائة (١٥١٥ م) ،
وكان أمراء دولته (★★) في ذلك العهد ، أولهم سودون
العجمى أمير كبير (★★★) وأركماش أمير سلاح ، وأمير
مجلس (١) ، وسيدى محمد بن السلطان الغورى ، وأمير

(*) ذكر ابن اياس ان السبت يوافق الخامس عشر رباعي الآخر .

(★*) كان عدد الأمراء الذين تعينوا للسفر صحبة الغورى خمسة عشر أميراً منهم
أرباب وظائف خاصة ، وأمراء مقسمون بدون وظائف عشرة ، وأما الأمراء الذين تخلقا
بالقاهرة فنتم طومان باي أمير دوادار كبير ابن أخي السلطان ، وقد تعين أن يكون
ثائب القبة عن السلطان إلى أن يحضر ، والأمير نقطبى ثائب الڭاغة ، والأمير أوزمك ،
والامير ثانى بك النجمى ، وكان قرر أمير الحاج يركب الحمل ، والأمير ازيك ،
والامير قانصوه أبو سنة ، والأمير قانصوه التاجر ، والأمير يخشبى ، وكان قد توجه
إلى القىوين لمعارة الجسر الذى بها ، والأمير خاير بك المغار ، وكان مقينا بشفر رشيد
لعمارة البراج الذى هناك ، والأمير خدايرى ثائب الاسكندرية ، والأمير قانصوه
الشهير بروح لو .

(★★★) أمير كبير : وظيفة ذات شأن عظيم ، ويقوم بخدمة من يشغلها ثلاثة آلاف
وخسمائة مملوك ، ويقتضى نظامها أن يكون شاغلها من مقدمى الألوف . وكانت
الوظائف حسب منازل أصحابها على النحو التالى : أمير كبير ، ثم يليه أمير سلاح ،
ثم أمير مجلس ، ثم أمير دوادار الكبير ، ثم أمير الخور الكبير ، ثم رئيس نوبة التواب ،
ثم أمير حاجب الحجاب ، ثم أمير حازدار الكبير ، ثم أمير الحاج الشريف . ولا يشقى هذه
الوظائف إلا من جملة مقدمى الألوف .

(١) يدير مجلس السلطان أو الأمير . أشار إلى هذا المنصب المقلتشنى فى صبح
الاعشى ، ج ٤ ، مع ١٨ *

آخر كبير (٢) ، وسودون داودى رأس نوبة النواب (٣) ، وأنس باى حاجب الحجاب ، وقانصوه ابن السلطان جركس ، والأمير نقطبى نائب القلعة ، والأمير قانصوه ابن سلطان كسرت ، والأمير طومان باى دوادار (٤) كبير ، والأمير تنم الزردكاش (٥) ، والأمير جان بلاط أبو ترسين ، والأمير تان بك الخازنadar (٦) ، والأمير يزبك المكحل (٧) ، والأمير رزمك الناشف ، والأمير أبرك رأس الجلبان ، والأمير اقباى الطويل ، والأمير بيرس ابن عم السلطان ، والأمير كرت بيڭ الوالى وأبو المفاخر والمعالى ، والأمير قانصوه أبو سنة ، والأمير قانصوه رجله (★) .

وكان هؤلاء الأربعه والعشرون أصحاب الظبلخانات فى مصر ، لهم الأمر والنهى والحكم مثل السلطان ، وكان كرت بيڭ الوالى أعظمهم حرمة لشجاعته وفروسيته ومخاصمه الشجعان والأبطال فى جهة الميدان .

(٢) هو المشرف على استبل السلطان ليرعى ما فيها من خيول .

(٣) النوبة فرق العسكر التي تتناوب الوقوف لحراسة السلطان وهي خمس فرق تتغير ظهرا وعصراء وعشاء وفي منتصف الليل وفي الصباح .

(٤) أى حامل دواة السلطان أو الأمير وببلغ الرسائل ، وعن طريقه تقدم الشكاوى وأوردها د. محمد السعيد سليمان فى كتابه تصليل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل هكذا (الدويدار) وذكر أنها تكتب أيضا (الدوادار) و (الدويدار) و (الدوادار) ، وفي التjom الزاهر أن أول من ايتدع هذه الوظيفة هم السلاجقة وكان يسمى أحيانا الحاجب ، وقد عظم شأن هذه الوظيفة فى القرن الرابع عشر حتى أصبحت كنيابة للسلطنة وكان الدوادار يشارىر السلطان فيمن يسمح له بدخول القصر . أما فى الادارة العثمانية ، فكان الدوادار بمثابة رئيس للكتاب (محمد السعيد سليمان ، المرجع نفسه) .

(٥) الزردكاش ، أحد المسؤولين عن السلاح خانة ، والمسئول عن صنع السلاح وأصلاحه وتتجديده (الثلقشتى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢) .

(٦) الخازنadar مسئول مالية السلطان والسلطة . (عاشر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠) .

(٧) المكحل ، مستول مداخل البارود وهي الدائع على أنواعها . انظر ابن تفرى بردى ، التjom الزاهر فى ملوك مصر والقاهرة : ج ١٢ ، ص ٢٧٧ .

(★) ذكر ابن ايساس أنه ضد الأمير الشهير بروح لو . وفي الاصل ما ذكر ، وهو ثائب قطليا ، وعدد الامراء الذين ذكرهم المؤلف عشرون .

وسيأتى طرف مما كانوا عليه ، رحمهم الله تعالى
أجمعين *

ذكر

نواب البلاد التي كانت في حكمهم

فأول النواب نائب قطيا كان قاتصوه رجله ، وأما القدس الشريف وغيره والرملة وما هناك من الضياع فكان المتولى على جميع ذلك دولتبا ، وأما صفد وطرابلس والشام وبيروت وصΐدا وأعمالهم فكان النائب عليهم الأمير تمراز الأشرفى ، وأما دمشق الشام فكان نائبتها سيباى ، وأما حمص فكان نائبتها أصلان بن يداق ، وأما حماة فكان نائبتها أقبردى الفزالى لا لقاء الله خيرا . وأما حلب فكان نائبتها الأمير خاير بك . وأما البيره فكان نائبتها جان بردى ، وعنتاب كان نائبتها يونس بن أقبية ، وأما قلعة الروم كان نائبتها أبو زيد ، وكانت أونه وجميع بلاد مرعش وأعمالها إلى ديار بكر (٨) بحكم على دولتبا ، وإلى حين ينتهي إلى جنب الروم (٩) بحكم محمود بن رمضان .

وكان على دولات يحمل المال إلى مصر من جميع حكمه وبلاده ، وهو الذي كان سبب الفتنة بين السلطان سليم وبين

(٨) هي منطقة كان الترك يطلقون عليها اسم قره أمد وكانت حاضرتها تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة (في تركيا الان) ، وقد فتحها العثمانيون سنة ١٥١٥ بعد معركة تشالديران التي خاضها العثمانيون ضد الفرس ، أي قبل موقعة مرج دابق بعام واحد . وقد جهر أهلها بالولاء للسلطان العثماني سليم الأول خوفا من تهديد الفرس . (الموسوعة الإسلامية - مادة ديار بكر) ومن خلال موقع ديار بكر الأنف ذكره يمكن نفهم نحن ابن زينل ، فند كانت ديار بكر قريبة جدا من الروم (المقصود العثمانيون) . (٩) المقصود الدولة العثمانية ، فمصطلح الروم استخدم كثيرا بهذا المعنى في مصادر الملك .

الغورى ، وفابرييك أيضًا (١٠) ، إلى أن حصل ما حصل من القتل بين الفريقين ، « ان ربك يفصل بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون » ، « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

وأما الكشاف (★) فكانت أسيوط مع بربسبي الأشرفى ، ومنوف كاشفها قانصوه العادلى ، والفيوم والبهنسا كاشفهما جانم الأشرفى ، ودمنهور مع يونس البدوى ، والمحلة مع أطاس .. وكان مشهوراً بالظلم .

وأما الثغور المحروسة فكان نائب الاسكتدرية قضا بودى ، ونائب دمياط على باى .

وأما مشايخ العربان فى الصعيد الأعلى ، فكان ابن عمرالأمير على فى جرجا ، وأولاد الأحدب فى الشرق ، وشيخ غزاله (١١) حماد بن خبير فى الجيزه ، والأمير حجازى بن

(١٠) المقصود غالباً خير بك الذى كان يكره المالك كراهية شديدة مع أنه مملوك لكن من أصول مختلفة إذ كان جورجيا ولم يكن شركسيا .

(★) جمع كاشف ، وهم الحكام . وكان الحاكم بمثابة المحافظ ، أو بمثابة وكيله أو مامور المركز إذا كان يحكم جزءاً من الكشوفية . وكلمة كاشف ماخوذة من الفعل كشف إذ أن الأصل في وظيفة الكشافة أن يكشفوا عن أحوال المحافظات ، ولما اتسعت سلطتهم وصار الحكم إليهم ، وأخذوا المحافظات التزاماً بقى الاسم التقى ملازماً لهم ، وصار الكاشف يحكم المحافظة أو جزءاً منها . انظر تاريخ الحركة القومية ج ١ للأستاذ عبد الرحمن الرافعى . وقد جاء في كتاب زيدة كشف المسالك لخليل بن شاهين الظاهري ، طبعة باريس سنة ١٨٩٤ أن الكشاف يعين مرة في كل ستة من الأمراء مقدمي الأربعون ، وكان الكشافة في أول أمرهم ثلاثة : كاشف الوجه القبلى في الولاية من الجيزه إلى الشلالات ، ويولى من تحت أمره ولاية باقليم الوجه القبلى ، وكاشف بالوجه البحرى ، وكاشف بالجيزة .

انظر أيضاً حاشية سابقة عن الكاشف .

(١١) شبّطها ميكيل وتنتر Winter في كتابه : Egypt under the ottoman rule عزاله ، بالعين غير المعجمة ، ووردت في مصادر أخرى بالعنوان (المعجمة) .

بغداد بالمنوفية ، وشيخ البحيرة كان الجويلي ، وأما الغربية
فكان من تواحي سنهور (١٢) حسن بن مرعى .

وكانوا على هذا الترتيب في زمان الغوري ، رحمة الله
عليهم أجمعين .

وكان في الشرقية أحمد بن بقر (١٣) ، وكان قليل
الخير ، سيرته سيئة .

ونرجع إلى خروج الغوري من مصر .

فلما وصل إلى غزة قام بها ثلاثة أيام ، فشكك الرعايا
للسلطان من نائب غزة ، فعزله عنها ، ورسم عليه (١٤)
وعنده على فعله وظلمه ، وزجره غاية الزجر ، وبعد ذلك
رده إليها لكونه ابن عمه .

فورد على السلطان مكتبة ، وهو مقيم بغزة ، من عند
سيبائي نائب الشام ، يذكر فيها الذي يعرضه الملوك على
المسامع العالية ، أعلاها الله تعالى ، وأدامتها . أن العبد سمع
بأن السلطان يريد السفر إلى قتال ابن عثمان وأن الملوك
يقوم بهذا الأمر ، ويكون السلطان مقينا بمصر ، ويمد
الملوك بالعساكر المنصورة .

والذى يعلم به مولانا السلطان أن خاير (★) بك ملاهى

(١٢) عرف بها الأستاذ عبد المنعم عامر في حاشية لاحقة .

(١٣) الصحيح بقار (بقتح الباء وتشديد القاف وفتحها) .

(١٤) رسم عليه أي حد أقامته ، والمصدر ترسیم ، والجمع تراسیم . ويعنى أيضا
الوضع تحت المراقبة . (عاشر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠١) .

(★) في الأصل خير بك ، وفي غير هذا الموضع من الكتاب خاير ، وكذلك في كتاب
بدائع الزهور لابن ابياس : خاير ، وقد التزمت كتابة الاسم على هذا الرسم توحيداً للشكل
وتحديداً للنطق به .

عليها (١٥) ، ومكاتبته لا تنتقطع من عند ابن عثمان في كل حين . فرد عليه السلطان : ها نحن قد جئناهم بأنفسنا .

ثم أمر بالرحيل بالجيوش والعساكر ، وهم يموجون كالبحر الراهن ، والسحب الماطر ، فرسانا كالعقبان الكواسر ، ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر ، فألقى الله تعالى فيهم الفتنة . فكان كل من الأعيان يتمنى هلاك السلطان حتى يكون هو السلطان ، فبهذا الموجب هلكوا أجمعين ، ويبعثون على نياتهم .

ومن غريب صنع الله تعالى أن السلطان الغوري كان له رمال حاذق ، فكان كل حين يقوله له السلطان : « انظر الى من يلي الحكم بعدي » ، فيقول : « حرف السين » .

فكان السلطان يعتقد أنه سيباي .

وكان كلما كتب سيباي للسلطان بما يفعله خاير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بأنه معه ، وأنه ملاхи على أبناء جنسه ، ويحرضه على المجيء إلىأخذ مصر من البراكسة ، والسلطان الغوري لا يقبل من سيباي نصيحة حتى نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته ، وكان ما كان .

ولم يتمكن سيباي من ملاقاة السلطان الا على سعسع وهي قرية من قرى الشام .

وحضر سيباي قدام السلطان ، وقدم تقدمة عظيمة ، لها قدر وقيمة .

(١٥) ملاхи علينا اتي معاد لنا ، ولحي فلانا عنده وقيمه ، ويقال لحاد اشي قبحه ، ولا حاد نازعه وخاصمه (المعجم الوجيز ، مادة لحي) .

فشكراه السلطان على فعله شكرها زائداً بعد أن خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على أحد من التواب غيره .

وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة إنما هي من سيباى ، وما قصده إلاأخذ السلطة كما ذكر المنجم الرمال على حرف السين ، ولا يظن ويختصر في فكره ، أن السلطان سليماً يقدر يدخل أرض مصر أبداً لما يعلم من شجاعة الجراكسة ، ولا يمكنوا أحداً من أخذ بلادهم ، وما دروا أن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وكان السلطان الغوري يعلم أن سيباى بطل من الأبطال ، لا يخطر الموت على باله ، فإنه كان فارساً مناعاً ، وبطلاً شجاعاً (★) ، ذا عزم شديد ، وبأس مدید . فكان السلطان لا يحسب إلا حسابه .

وأما خاير بك فإنه لم يكن السلطان يحسب له حساباً لما يعلم من جيانته ، وعدم شجاعته ، فأخذه من لا يكتره .

وكان سيباى من مماليك السلطان قايتباى ، وكان رجلاً يعد برجال ، وهو الذي عمر المدرسة التي بدمشق ، المعروفة بمدرسة سيباى – وهي إذا طلعت من سوية باب الجابية (★★) وأنت طالب إلى دار السعادة تكون على يسارك – ووقف لها الأوقاف ، ورتب لها الخيرات ، رحمة الله عليه .

قال الناقل ، وهو الشيخ أحمد بن زنبل الرمال المعلى ،

(★) في الأصل فارساً مناع وبطلاً شجاع .

(★★) أحد أبواب دمشق .

الجامع لسيرة الجراكسة (★) ، وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن عثمان ، فان السلطان سليما كان له اخ اكبر منه يسمى السلطان احمد وكان حاكم برصه (١٦) . وكان اخوه قورقود (١٧) حاكم المغنيسا (١٨) ، والسلطان سليم قبل ان يتسلط على حاكم طرايزان (١٩) ، ولكنه كان ذا همة في طلب الملك والرياسة على اخوته ، فأللهمه (٢٠) الله تعالى زواج ابنته ملك التتار خان ليكون ظهرا له ، فتزوجها . ثم تجرد بعد ذلك لأخذ الملك من أبيه ، لما سمع من الجواسيس الذين كانوا يأتونه بالأخبار بأن آباء السلطان بايزيد ضعيف على موت ، وأنه أرسل لولده احمد يحضره ليقلده الملك من

بعدده ..

(★) الجراكسة ابناء شعب موطنهم غرب القوقاز وتقسم من الشاطئ الشرقي للبحر الاسود ، وقد هاجروا الى تركيا وسوريا والاردن ، وهم ينسبون الى ابيهم جركس .
 (١٦) جرت العادة على كتابتها بورصة (بالصاد) منطقة ومدينة بآسيا الصغرى وكانت عاصمة للدولة العثمانية في الفترة من ١٢٢٧ الى ١٣٦١ ثم انتقلت العاصمة الى ادرنة ثم الى استانبول (اسطنبول) سنة ١٤٥٣ . (محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق احسان حقى ، ص ١١٩) .

(١٧) تكتب عادة كركورد ، وتقرأ في تاريخ الدولة العلية العثمانية محمد فريد : « لما كان تعينه (السلطان سليم) بمساعي الانكشارية يقتضي توزيع الامارات عليهم حسب المقاد اعطي لكل فخر منهم خمسين دوكا ، ثم عين ابنه سليمان حاكما للقسطنطينية وسافر بجيوشه الى بلاد آسيا لحرابية اخوته وأولاد اخوته حتى يهدى بالله يداخلته ولم يبق له مزارع في الملك . فاقتفي اثر أخيه احمد الى انتقدة ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات بينه وبين الوزير مصطفى ياشا الذي كان يخبره بمقاصد السلطان . لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير ثم قتلة جزاء له وبعده لغيره ثم ذهب الى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد اخوته وأمر بقتلهم وبعد مقتله توجه بكل سرعة الى صاروخان متأنثه كركورد ففر منه الى الجبال وبعد البحث عليه عدة اسابيع قبض عليه وقتل » .

(١٨) في آسيا الصغرى . واليها ينسب حجر المفناطيس .

(١٩) عادة ما تكتب طرايزون ، كانت حاضرة لملكة طرابزون الرومية . على البحر الاسود وتبعد ١٤٠ كم عن مدينة ارضروم (ارض الروم) ، واسمها مشتق من (ترابيزوس) اللاتينية . فتحها العثمانيون سنة ١٤٦١ . (محمد فريد ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٦٠) .

(٢٠) السياق يقتضي ذلك . وفي الأصل المطبوع بتحقيق الاستاذ عامر (الهمهـما) .

فخاف أحمد من أخيه سليم لما يعلم من طلبه الملك لنفسه ، فتأخر عن المجيء .

فجرد سليم العساكر على أبيه .

فلما سمع أبوه ذلك أخذته الغيرة ، وأمر بالخروج للاقاته .

فخرجت العساكر ، ووقع العرب بين الفريقيين ، فكانت الكسرة على السلطان سليم . فانهزم ، وأخذت زرداخاته (٢١) بحملتها ، فهرب الى الكوفة .

فدخل عند رجل ، يقال له ، كمال أغا ، وهو دزدار القلعة ، فأضافه ومكث عنده مدة أيام .

فشكا له السلطان سليم مما جرى له ، وما ذهب منه من المال والرجال وهو متغير في أمره ، وقد قصد أخذ الملك من أبيه قبل أن يعطيه لأخيه أحمد ، فلم يصح له ذلك .

فقال له كمال أغا : عندنا من مال أبيك شيء كثير متحصل ، وكنا نريد أن نرسله له ، فخذنه وتقوا به (★) .

ففعل كما قال له كمال أغا ، وجمع له عسكراً أكثر من الأول .

(٢١) الزرداخاته يعني بيت السلاح ، والمقصود كل رصيده من الأسلحة . عن الزرداخاته راجع القلقشندى ، صبيع الأعشى ، ج ٤ ، صص ١١ - ١٢ .

(★) في الأصل : وتقوا .

وكان السلطان سليم لا يتوقف في جمع العسكر ، لا على رومى ولا على عجمى ، بل كل من اختار أن يكون من عسكره قبله ، ويعطيه الجامكية (★) ويجعله من عسكره .

فجمع عسكراً كثيراً ، وجرد على أبيه ثانياً ، يريده القسطنطينية (٢٢) .

وكانت عساكر أبيه كلهم مالوا إلى السلطان سليم لما يعلمون من علو همته .

وأما أبوه السلطان بايزيد . فإنه كان رجلاً مباركاً من أولياء الله تعالى ، لا يحب العظمة ولا التجبر ، وكان رأس عسكره أغاً اليكنجيرية (٢٣) ، يونس أغاً .

فلما وصل الخبر إلى السلطان بايزيد بأن ولدك سليمماً جرد عليك ثانياً أمر العسكر بالخروج لقتال ولده ، فلم يطعه أحد من عسكره . فجاء السلطان سليم إلى أن وصل إلى مدفن أبي أيوب الأنباري ، رضي الله عنه .

فدخل الوزير الأعظم ، وكان اذ ذاك فرهاد باشا ، على السلطان بايزيد ، وأخبره بذلك ، وأعلمه بأن العساكر كلها مالت إلى السلطان سليم وبغضون ما يعلمون من تعففك والعصمة الملكية ، وأنت تعرف ما يترتب على ذلك .

(★) الجامكية : كلمة فارسية . معناها الراتب الذي يصرف للمحاربين يقصد شراء الملابس ، ثم صارت في الاصطلاح الملكي والثماني تعنى مرتب الجنود .

(٢٢) غريب استخدام الرمالي لهذا المعنى لدينته استقر اسمها منذ الفتح العثماني على استانبول (استنبول أو إسلامبول) .

(٢٣) مصطلح آخر للانكشارية . من الكلمة التركية يني Yeni يعنى جديد وجرى Cery بمعنى عسكر ، ف تكون يكيجري بمعنى العسكر الجديد . يوردها الجبرتي أحياناً ينكجيري وهو جيش من المشاة أنشئ في عهد السلطان العثماني أورخان ١٤٢٦/٥٧٢٦ م ، كان جنوده عزاباً وفي عهد السلطان سليم سمح لهم بالزواج بشرط كبر السن ثم أطلق حق الزواج . وارتبط الانكشارية بالطريقة الصوفية البكتاشية . محمد السعيد سليمان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١

فأمره السلطان بايزيد أن يقول لهم : السلطان يولي عليكم ولده أحمد .

فأبوا ذلك ، وقالوا : مان يريد إلا سليم ، كلمة واحدة .
فخرج السلطان بايزيد ، يريد الكوفة ، بماله وعياله ،
وأن يقيم هناك إلى أن يموت .

ودخل السلطان سليم إلى القسطنطينية ، فجلس على
تحت الملك ، فلم يسافر أبواه إلا يومين ، ومات رحمة الله عليه
في سنة ٩١٨ . وأما أخوه السلطان أحمد فإنه لما أرسى
خلفه ليقلده الملك جاء إلى أن وصل اسكندر ، فلم يجسر أن
يدخل القسطنطينية خوفاً من أخيه ومن العسكر ، لأنهم على
غرض السلطان سليم .

فلما تولى السلطان سليم أرسل لأخيه أحمد خلعة ،
ورده إلى مكانه ، وأيضاً أرسل خلعة إلى أخيه قورقود إلى
ملكته ، وهي مفينيسيا ، ببر آناضول ، واستقر هو في
الملك .

ثم أرسل خلف كمال أغا الذي كان بالكوفة ، وجعله
أغا اليكنتجيرية ، ويونس أغا جعله وزيراً ، وجعل فرهاد باشا
باشة (★) روم ايلى (٢٤) ، ثم أمر بقتل أخيه ، واستقل هو
في الملك .

فهرب أخوه قورقود إلى مصر ، واستجار بالغورى ،
فأجاره ، فأرسل السلطان سليم يطلب منه الغورى ، فأبى أن
يمكنه منه ، فاشتدت العداوة بين الغورى وبينه حتى وقع
ما وقع .

(★) باشة بقطر تركى ، وهو لقب معناء الوالى .

(٢٤) أو الرومليلى ، الممالك العثمانية في شبه جزيرة البلقان .

قال الراوى : ومما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليم لما غزا على شاه اسماعيل سلطان العجم ، وجاء بالعساكر من على البيرة(★) ، وكان نائبه يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى ، فأمر علاء الدين أهل مرعش ، لا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئاً مطلقاً من المأكل ولا من غيره .

فمات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء ، وكان هذا سبب الحرب بين الغورى وبين السلطان سليم .

وحصن علاء الدين البلاد كلها والمحصارات والأبراج ، فلما جرى للسلطان سليم ذلك عرض على وزرائه ذلك ، وحصل له من الفم ما لا مزيد عليه .

وكان السلطان سليم حاد المرارة صعب الخلق ، فأراد أن يأمر العسكر بالحملة على تلك النواحي ، ويحاصر مرعش ، فأشار وزراؤه عليه أن يرسل يعلم بذلك الغورى .

فأمر بكتابه مرسوم إلى ملك مصر قانصوه الغورى يخبره بما فعل علاء الدولة ، فأجاب الغورى بأن علاء الدولة عاصى أمرى ، فان قدرت عليه فاقتله وخلع عليه قصاده ، وأرسلهم .

ثم كتب الغورى مرسوماً وأرسله خفية لعلاء الدولة ، يشكّره على ما فعل ، ويفسّريه على قتال السلطان سليم ، ولا يمكنه من شيء أبداً .

(★) البيرة قلعة حصينة بين حلب والشغور الرومية .

وكان قصد الغورى القاء الفتنة بين الاثنين رجاء أن يقتل أحدهما أو كلاهما ، فيكتفى شرهما ، فإنه كان يعرف شدة بأس كل منهما .

فقوى قلب علاء الدولة على قتال السلطان سليم .

وأما السلطان سليم لما قرأ جواب الغورى علم بفراسته أنه خديعة له ، فتحملت نفسه من الغورى غاية التحمل ، فكان ذلك سببا لاثارة الفتنة بينهما حتى وقع ما وقع ، كما هو المشهور .

ثم سافر السلطان سليم الى ملاقاة شاه اسماعيل ووقع الاتفاق بينهما بأن يبطل النار ، ويقاتل بالسيف والعود ، فلم يثبت السلطان سليم غير ساعة ، وولى عسکره منهزمًا ، لأن الروم لا قدرة لهم على ملاقاة الفرس من غير نار ، فعند ذلك أمر أغا اليكنجريه أن يرموا بالنار ، فما كان إلا ساعة وانهزم شاه اسماعيل ، فان النار لا يطيقها أحد .

فأخذ السلطان سليم ما وجد في أو طاق العجم (★)
وانشأ راجعا منصورا يريد قتال علاء الدولة .

وأما علاء الدولة فإنه جمع جيوشا كثيرة ، والتقي الجungan ، وكان مع السلطان سليم خان بن شهوار ، وكان شهوار هو الملك ، والحاكم على تلك الديار ، وهو أخو علاء الدولة .

فلما قبض على شهوار بالحيل التي عملت عليه شنق على باب زويلة بمصر في زمن قايتباي على يد الأمير يشبك الدوادار كبير ، والقصة مشهورة .

(★) أو طاق أو وطاق الخيمة . والمراد المخيمات الكبيرة الخاصة بالملوك أو القوار .

ثم أخذ علاء الدولة الحكم بعده .

وكان لشهوار ولد أكبر أولاده ، فهرب إلى السلطان سليم ، فما زال عنده حتى وقع هذا الحرب مع علاء الدولة ، وأصططف الفريقيان للقتال ، وخرج ابن شهوار إلى الميدان بين الجمعين باذن من السلطان سليم ، وقال : من عرفني فلقد كفى ، ومن لم يعرفني فأنا ابن شاه سوار . أين من ربى في انعام أبي ؟ أين المحبون لي ولوالدى ؟ فليأتوا تحت سنجق من حماتي من عدوى ، ولا بد لكل انسان من يحبه ويبغضه . فارتاج عسكر علاء الدين ، وافترق منه بعضه ، فمن كان يبغض علاء الدولة مالوا إلى ابن شهوار ، فما تم غير ساعة حتى عقل علاء الدولة وغالب أولاده ، وقطعت رءوسهم ، وجاءوا إلى السلطان سليم ، فأرسل بهم إلى الغوري ، فلما رأهم أحس قلبه بزوال ملكه لما يعلم من اختلاف عسكره عليه ، كما وقع لعلاء الدولة ، فان الملك ليس هو ملكا الا بالعسكر ، فإذا انحرف عليه عسكره ضاع ملكه .

ثم ان السلطان سليمما طمعت آماله في أخذ مصر ، ثم توجه إلى أدرنة (٢٥) ، ثم استشار مع الوزير الأعظم ، وهو أحمد باشا به هرسك ، وبعده بيرى باشا .

فقال ابن هرسك للسلطان سليم ، نحن تصادمنا مع عسكر مصر في زمن أبيك ، وكنت أنا باش العسكر وكسر ونا أشد كسرة ، وقبضوا على ، ودخلت مصر أسيرا حتى وقفت

(٢٥) أدرنة نسبة إلى الامبراطور أدريان الرومي ، واسمها بالرومية (أدريانا بولس) ، وهي في البر الأوربي فتحها البكلريك لالة شاهين سنة ١٣٦١ . كانت عاصمة (أوربية) للدولة العثمانية قبل فتح القسطنطينية - محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ص ١٢٩ .

بين يدي السلطان قايتباى ، فمن على باطلاقى ، وعفا عنى ، عفا الله عنه ، وقد حلفت له ألا أسحب فى وجه القبيلة(؟) سيفنا آبدا ، وصدقه على ذلك بيرى باشا .

ثم بعد ثلاثة أيام أمر السلطان سليم بعزل الاثنين ، ثم سار قاصدا عسكرا مصر ، فلما وصل الى مدينة زملطى (★) أقام ينتظر الأخبار ، فلم يأته أحد .

ذكر

ارسال القاصد من السلطان سليم الى الغوري

فأمر السلطان سليم بارسال قاض الى الغوري ، وكان اسم القاضى زيرك زاده ، وكان أخرج ، فمازال حتى وصل الى حلب ، فرأى أوطاقي الغوري خاليا من العسكر ، ما فيه الا نحو ألف أو ألفين ، لأنهم كانوا كلهم دخلوا الى مدينة حلب ، وأخرجوا الناس من بيوتهم ، وسبوا حريمهم وأولادهم ، وأذوهם الأذى البليغ ، وكان ذلك سببا لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم .

فلما بلغ الغوري بأنه جاء قاصد من عند السلطان سليم أذن له .

فتمثل بين يديه ، وتأدب غاية الأدب .

فرحب به ، وسأله عن السلطان سليم .

(★) زملطى : كما في الأصل ، وفي معجم البلدان لياقوت زملكان او زملكا قرينان احد امايا بها المكان القريب من دمشق .

فقال له القاضى : هذا ولدك ، وتحت نظرك .

فقال له الغورى : لولا أنه مثل ولدى ما جئت من مصر
إلى هنا بأهل العلم جميعا حتى نصلح بيته وبينه وأسماعيل
شاه .

ثم أجزل عطاوه وصرفه .

ثم أمر الغورى بالخروج إلى العرب ، فخرج جميع
العسكر وأودعوا جميع أموالهم عند أهل حلب بعد أن
کدوا عليهم غایة التکدير ، وآذوهم غایة الأذى .

فلما خرجوا من عندهم دعا عليهم الكبير والصغير ،
والغنى والفقير لما حصل لهم من ضررهم .

ذكر

ارسال الغورى إلى السلطان سليم قاصدا

فلما استقر الغورى في أوطانه أمر بارسال قاصدا
للسلطان سليم ، فشاور أكابر دولته ، فاقتضى رأيهم أن
يرسل رجلان من أهل العلم والدين ليتكلم بينهما بالمعروف
رجاء لحقن دماء المسلمين .

فلم يفعل ، وأمر باحضار الأمير مغلبى دوادار ، وكان
رجلًا فاضلا قادرًا على رد الأوجوبة واقامة العجة .

فقال له الغورى : جهز نفسك ، واجزئ ، اكشف لنا
خبر أهل الرم وما هم عليه ، وأعطي هذه المكاتبة إلى ملكهم .

ثم أمر عشرة من خيارات العسكر بالتوجه مع مغلبائهم إلى
عسكر السلطان سليم ، وهم ملبوسون بالملابس الفاخرة ، كل
من رآهم يتعجب في خلقهم وحسن خيلهم وهنداهم ، وهم
كالعرائس .

واصطفوا صفا واحدا .

فلما دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم من غير
اطالة ، نظر إليهم مليا وامتلاً من الفيظ .

ثم قال للأمير مغلبائهم : يا مغلبائهم ، أستاذك ما كان عنده
رجل من أهل العلم يرسله لنا .. ؟ وإنما أرسلك بهؤلاء
العشرة يرعب بهم (★) قلوب عسكري ويخوفهم بروؤية
أجناده ، ولكن أنا أكيدك بمكيدة أعظم من مكيدته .

ثم أمر برمي رقبة مغلبائهم وجماعتهم ، وعيط (★) من
صميم قلبه بجلاده .

فارتجفت قلوب الحاضرين لذلك .

فقام الوزير يونس باشا ، وقبل الأرض بين يديه ،
وقال : الرسول لا يقتل ، وليس له ذنب .

فقال : لا بد من ذلك .

فقال الوزير : فان كان ولا بد فأبق على كبيرهم مغلبائهم .
فأمر بحبسه ، ورمي برقبة العشرة قدام أو طاقه ، واحدا
بعد واحد ، وهو ينظر إليهم .

(★) في الأصل : بها .

(★★) التعيط : الصياح ، لفظة يستعملها أهل لبنان . وفي مصر تستعمل مرادا
بها البكاء .

وحبس مغلبائى بقلعة رملصتو يومين .

ثم أحضره وحلق ذقنه ، وألبسه طرطورا ، وركبه على حمار أخرج معقور .

وقال له : قل لاستاذك : يجتهد جهده ، وهأنا حضرت إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف .

ولم يقرأ مكاتب الغورى لشدة غيظه ، لأنه لما رأى مغلبائى والعشرة الملسين بالعديد المانع فهم بالفراسة أنهما أرسل هؤلاء إلا ليغوف عسكره من شدة باسمهم وفرسانهم .

فلما رجع مغلبائى للغورى على هذه الصفة عسر عليهم ذلك ، وأقاموا نفوسهم على قتال السلطان سليم بعد ما كانوا يظلون أنهم إنما جاءوا للصلح بين شاه اسماعيل والسلطان سليم .

ثم أمر الغورى بأن يخرج العسكر من مدينة حلب إلى أوطاقه ، ويتهيأوا للقتال .

وأمر الأمير كرتباى الوالى بأن يكشف خبر السلطان سليم وعسكره ويرجع على الفور ليمنشه عليه ، ويبادر العرب .

فلما وصل كرتباى إلى قيصرية (★) وجد أهلها قد قفلوا أبوابها وتأهبوا لقتال أهل مصر لما بلغتهم ما فعلوه في

(★) قيصرية كذا في الأصل ، والصواب قيسارية بلد على ساحل الشام . ومدينة عظيمة في بلاد الروم .

حلب وأهلها من أخراجهم من أماكنهم ونهب أموالهم، وغضب
نسائهم وبناتهم .

ثم وجدوا يونس ياشا نائب عنتاب عزل حريمه وماليه
وهو معول على الرحيل الى السلطان سليم ، وقد قلب على
أبناء جنسه ومال مع الروم . فرجع كرتباى الوالى ، وأخبره
أن قيصرية وعنتاب عصوا علينا وأرادوا قتالنا ، ومالوا مع
السلطان سليم ، وجاءنا الخبر بأن طلائع عسکر قد أقبلت ،
فلما تحققنا ذلك عطفنا راجعين .

فارتج عسکر مصر لذلك ، ووقع فيهم الخلل ، فعنده
ذلك انتبه الغورى من ساعته ، وجمع الأمراء والأعيان ،
وتحالفوا على أن لا أحد منهم يخون صاحبه ، ويكونون على
قلب رجل واحد ، ويقاتلون عدوهم بعد أن كان غالب
العسکر ما يظن الا الصلح بين السلطان سليم وبين شاه
اسماعيل .

فأما يونس باشا نائب عنتاب فإنه ندم على فعله مع
كرتبائى الوالى ، وقال فى نفسه : ربما تكون النصرة لهم ،
فلا آمن على نفسي ، ولكن أجعل لى معهم وجهها .

وركب من ساعته الى أن تمثل بين يدي الغورى ، وزعم
أن السلطان سليم قبض عليه ، وأنه هرب منه ، وجاء الى
مولانا السلطان مساعداته على عدوه .

فلم تنطل حيلته على السلطان ثم أمر بتوصيشه فى
الوقت وال الساعة .

فوسط الأمراء والأعيان كلهم مجتمعون .

فقام من بينهم الأمير سيباي نائب الشام وقبض على خاير بك نائب حلب ، وجره من طوقة بين يدي السلطان الفورى ، وقال : يا مولانا السلطان ، اذا أردت أن الله ينصرك على عدوك فاقتتل هذا الخائن *

وكان خاير بك في يده كالشاة بين يدي السبع ، وهو يجره *

فقام الأمير جان بردى الغزالى وقال : يا مولانا السلطان لا تفتن العسكر وتبدأ في قتال بعضهم بعضا ، وتذهب أخباركم إلى عدوكم ، ويزداد طمعه فيكم ، وتضعف شوكتكم والرأى لكم *

وتأخر في مكانه *

وهذه مكيدة من الغزالى ، والا كان خاير بك قد هلك ، ولكن اذا أراد الله تعالى بأمر بلغه ، والحي ما له قاتل ، فأمرهم السلطان بأن يتعالفوا ثانيا ، والا يخونون منهم أحد والخائن يخونه الله تعالى ، وعليه لعنة الله *

ثم أمر السلطان أن ينادي في حلب بالرحيل منها بالعسكر لقتال السلطان سليم ، وأن يتأهب كل أحد ويستفيق لنفسه *

وكان ذلك في يوم الجمعة الثاني من رجب سنة اثنين وعشرين وتسعمائة *

وكان له مواكب حتى رجت الأرض ، وليس الخبر كالعيان *

وكان الجلبان (★) ثلاثة عشر ألف مملوك ، كلهم مشتروات الغوري ، ولا واحد منهم الا ويعرف سائر (نوع) العرب والفروسية ، فإنه كان مجتهدا في تعليم الجلبان ، وكان قصده أن ينشئ له عسكرا من مماليكه مشترواته ، ويقطع القرانصة ، وهم مماليك الملوك الذين قبله ، وكان يحسب حسابهم خوفا من أن يمسكروا به كما فعلوا بمن قبله ، وكان آخذا حذره ، ولكن العذر لا ينفع من القدر ، والقاعدة المشهورة : من طلب جله فاته كله .

وكان معه الأربعه الأنمه من المذاهب الأربعه ، وخليفة سيدى أبى ابراهيم الدسوقي ، وخليفة سيدى أحمد البدوى ، وخليفة سيدى ابراهيم الدسوقي ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى ، وخليفة سيدى عبد القادر الجيلاني ، وكان معه المؤذنون الدواخل والوعاظ ، وكان له نظام عظيم ، فانخرم ذلك النظام ، وانتكست تلك الأعلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ذكر التقى الجماعين

ولما التقى الجماعان فى مرج دابق (★★★) ، وكان فى أول الجيش أمير كبير سودون العجمى ، وأركمان أمير سلاح ، وأخشيباى أمير مجلس ، وكان أمير آخر سيدى محمد بن السلطان الغوري ، أقام فى حلب بأمر والده ، وكذلك دواداره جانم (★★★) الأشرفى ، ومن كان فى مقدمة العسكر سودون الدوادارى رأس توبة التواب ، وانس يائى

(★) الجلبان الجنود المجلوبة بالشراء .

(★★★) مرج دابق مكان مشهور فى محافظة حلب بسوريا . والمرج هو الموضع الذى تربى فيه الدواب .

(★★★) فى الأصل حاتم .

حاجب العجب ، وقانصوه ابن السلطان جركس ، وكان من الأبطال ، وتنمر الزرداشا ، وجانبلاط أبو ترسين ، وتانى بك الخازنadar ، وأزبك المكحل ، وبيرس ابن عم السلطان .

وباتوا تلك الليلة على غير حرب ، ولكن لم يهنا لأحد منهم نوم من مكر بعضهم البعض .

وكان ابتداء العرب يوم الأحد المبارك الثالث والعشرين من رجب سنة ٩٢١ (*) .

فلما اتضح النهار ركبوا كالبعر الراخر ، فإذا صفوف العثمانية قد بانت صفا بعد صف خارجا من الوصف ، والأعلام الملونة من اليسار والميمنة ، وهم سائرون كالبعر السياط والمعيط الميال ، وقد رتبوا الصف من كل طرف ، فإذا طير من الطرف الكبير الذي فيه السلطان سليم مدفع كبير (★☆) كالبرق الغاخط والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحراء ، وطلع دخان كالجبال الزرقاء .

فكان أول من يادر العثمانية بالعرب من طائفته البراكسة أصلان بن بداع ، نائب حمص ، أخذ قنطراته (★★☆) بيده ، وأطلق عنان جواده ، وصار يطعن في الفرسان يميناً وشمالاً .

فلما رأى الأمراء فعل أصلان بن بداع في حملته أخذتهم الحمية ، فحمل الأمير سيباي نائب الشام ، ثم حمل

(*) ٢٢ رجب سنة ٩٢١ = ٤ أغسطس سنة ١٥١٥ م

(★☆) في الأصل : هدنا كبيرا .

(★★☆) المنتظارية الله من الآيات الحرب .

أمير كبير سودون العجمي ومماليكه خلفه نحو الألف ملبيين ، ثم حمل الأمير جان بلاط أبو ترسين ، ثم الأمير علان دوادار تانى ، ثم حمل قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم حمل كرتباى الوالى ، وكان فارس المنيا والموت التزؤام ، فلله دره من شجاع ، كان فريد عصره !

ثم حمل تنمر الزرددكاش ، وبخشبائى أمير مجلس ، والأمير أنس باى حاجب العجباب ، والأمير قنচوہ کرت ، والأمير تانى بك الخازنadar ، والأمير تانى بك النجمى ، والأمير بيبرس ابن عم السلطان الغورى ، والأمير قانصوه أبو سنة ، والأمير الفاجر ، والأمير خاير بك المعمار ، والأمير جان بردى نائب بيروت ، والأمير جان بردى الغزالى ، وغاير بك نائب حلب ، وكلاهما كان رأس المتعصبين على الغورى ، والأمير تمراز نائب طرابلس .

وحملوا جملتهم حملة واحدة ، وصادموا الروم ، ومالوا في القتال ، والروم الآخرون لاقوهم كالأسد الدخال .

قال الشيخ أحمد بن زنبل المعلى : ولم ير في التواريخ القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الواقعة ، ولا اجتمع فيها مثل هذين العسكريين ولا أكثر عددا .

قال : ولم يقاتل في هذا اليوم من البراكسة أكثر من ألفي فارس . وهم الأمراء الذين قدمنا ذكرهم وأتباعهم ، وأما جلبان الغورى الذين هم مشترواته ، فلم يتعرکوا من مواضعهم ، ولم يهزوا رمحا ، ولا جبدوا سيفا .

وبسبب ذلك أن الله تعالى لما أراد إزالة دولتهم أوقع فيهم الخلف لأمر يقضيه وحكم يمضي .

وعلى ما قيل ، ان السلطان الغوري أمر بأن أول مرة يخرج للحرب القرانصة (★) لكونهم آعرب بالحرب من الجبلان ، وكان قصده أن ينقطع القرانصة ليكتفى شرهم ، ويصفو له الوقت (★★) فإنه كان يحسب حسابهم خوفاً من مكرهم ، فأمر بتقديمهم للحرب ، وأخر جلبانه . فعلموا مكره لما رأوه واقفاً هو وجلبانه ، لم يتحرك منهم أحد من موضعه ، فتغيرت نياتهم عليه ، وقالوا له : نحن نقاتل لأنفسنا مع النار ، وأنت واقف تتنظر علينا كالعين الشامنة ، ما تأمر أحداً من مماليكك يخرج للميدان .

فكان العسكر كلهم مختلفاً في بعضه ، مفسود النية ، ليس لهم رأي يرجعون إليه ، ولا تدبير يقفون عليه ، بل كل من تكلم كلاماً يقول الآخر بضده ، فمن ذلك انخرط نظامهم .

وأما الأمراء الذين تقدم ذكرهم نحو الألفين ، هم ومن يلوذ بهم ، اعتمدوا على الله تعالى في حملاتهم ، وأصفوا نياتهم ، وصدموا الروم ، وضرب الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل ، لأنهم كانوا يقاتلون على قلب رجل واحد ونيات متفقة ، ليس لأحد منهم في قلبه غل ولا مكر ولا حسد لأحد ، وهذا أحسن ما يكون له ي يريد النصر .

ولقد أجاد القائل : اذا أراد الله بقوم خيراً وفق بينهم ، واذا أراد بقوم شراً فتتهم ، وأوقع الخلف بينهم .

(★) القرانصة ، الجندي القرانيص وهي قبيلة الهجرة الموصولة بالديوان ، أصحاب الأرزاقي الكبيرة المتعينون إلى الامارة . ويكونون في منزلة أمراء الخمسونات . وكانت عدتهم مائة نفس ويسمون أيضاً الوغاد .

(★★) في الأصل : يصفى .

ومن أعجب ما يكون من العجب ، أن هؤلاء القوم القربيين من الآلfi فارس المتقدم ذكرهم من الجراكسة يقاتلون قتال الموت في نحو مائة وخمسين ألفاً من الروم والترك ما بين الوف مشاة ، ومثلهم خيالة من عسكر الروم ، ثم حطوا عليهم حطة واحدة .

في بينما هم كذلك الا والسلطان سليم رفع حصانه من قلب الصد الكبير حتى وصل إلى الصد الوسطاني ، وفي يده سيف عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وصاح على عسكره : هكذا تعارضون قدامي مع عدوی ؟! وعيط على الباشات .

فلما نظر الروم إلى ذلك ردوا على الجراكسة كالبحر اذا سال بعرض الوادي ، فتراجع الجميع ، وأطلقو المدافع والبنادقيات ، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر في الشرى ، وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى ، وكان يجئ كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من الدماء .

ومازال الروم والسلطان سليم سائرين حتى جاءوا إلى صف الغوري ، فرجع خاير بك والغزالى مع من انهزم من الجراكسة حتى وطاق الغوري ، ونادوا بأعلى أصواتهم : « الفرار ، الفرار ، فان السلطان سليم أحاط بكم ، وقتل الغوري ، والكسرة علينا » . وانشأ طالباً حلب .

فتبعد الجنان وتشتت العساكر ، وظنوا أن السلطان قتل كما قال خاير بك ، وانما فعل ذلك بغضاً ومكيدة مع الغوري . والسلطان الغوري واقف مكانه وحوله بعض

الجلبان القريبين منه ، وأما البعد عنه فانهم بذلوا أنه قتل
فانهزموا مع خاير بك قاصدين حلب .

فلما علم الغورى بما جرى لعسكره من التشتت صار
ينادى عليهم بأعلى صوته : يا أغوات ، الشجاعة ، صبر
ساعة . فلم يلتفت اليه أحد منهم ، وكان أمر الله قدرا
مقدورا ، وكل ذلك بفضل الله لهم ، فإنه كان يريدهم
أن يقطع القرانصه شيئاً فشيئاً ، ثم يستقل هو بجلبهن ،
ويصفو له الوقت والسلطنة .

ولقد قال أهل المعرفة : من طلب جله فاته كله ،
ولا تعاونه تغلب ولو أذن السلطان (٢٦) .

فتقدم الأمير سودون العجمي أمير كبير ، وقال له :
يا مولانا السلطان أين جلبانك ؟ أين خاصيتك ؟ هكذا عملت
بنا ولا زلت قائما في حظ نفسك حتى أهلكت نفسك
وأهدكتنا معك ، ولكن القيامة تجمع بيننا وبينك ، وسنقف
بين يدي مولانا ، سبحانه وتعالى ، يحكم بيننا بالعدل ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم التفت عن يمينه فوجد الأمير سيباى والأمير أقباى
الطويل ، والأمير علان ، والأمير أصلان بن بداع ، ومن
يشبهه هؤلاء من القرانصه الأعيان ، وهم واقفون متجهزون ،
فإن جيشه انكسر قهرا ، وما عسى أن تقاتل مائة نفس في
مائة وثمانين ألف نفس ، ولكنهم مع قلتهم أوقفوا هذا
الجيش العظيم ، ولم يقدر أحد منهم أن يتقدم .

ثم عيت هذه الطائفة القليلة من الضرب والقتل .
والكثره تغلب الشجاعة .

(٢٦) تغلب ، بضم الماء وتسكين الغين .

ومازال الغوري حتى بقى وحده وخلفه حامل السنبق، أمير اللواء ، وكان رجلا كبير السن من مماليك اينال الأجرود . فمن شدة ما حصل للغوري فانه انكسر قهرا ، ووقع على الأرض مغشيا عليه (★) .

ذكر

قطع رأس السلطان الغوري

قال .. فلما وقع السلطان الغوري على الأرض رمى حامل السنبق الرمح ، وأخذ القماش المطرز ، وكان يساوى ثلاثة آلاف ذهب ، فقال الأمير علان لأقباى الظويل : ما ترى في أمر السلطان ؟

قال له : قل ما عندك ..

قال : ان نحن تركناه ورحنا وخليناها ، يأتي العدو فيقتلوه ويأخذون رأسه ، يطوفون بها جميع بلاد الروم .

قال : فما الرأى ؟

قال : الرأى نقطع رأسه ونرمي بها في هذا الجب ، والجثة بلا رأس لا يعرفها أحد .

قال : نعم الرأى !

فأمر الأمير علان عبدا من عبيده ، فقطع رأس السلطان الغوري ، ورمي بها في جب هناك .

(★) وكان هذا يوم الاحد الثاني من رمضان سنة ٩٢٢ الموافق أول باتمة كما نظر ابن ایاس (٢٠ سبتمبر ١٥١٦) وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما .

شم ولی الأمير علان الى ناحية حلب ، وأما الأمير أقباى الطويل ، فانه طلب ناحية العجم ، وأقام بها الى أن مات .

وأما الأمراء الذين التهوا بالقتال مع الروم فانهم فاض عليهم بعرا المنايا وزاد ، وابتلوا بعساكر ملأ السهل والواد ، واجتمع عليهم ذلك الجمع الكثير ، وخاضت خيولهم في بطون القتلى ، فقاتلوا قتال منقطع من الدنيا أباشه (٢٧) .

فقصدهم الرماة بالبندق ، فوقع الأمير سيباى والأمير سودون العجمى ، وأما الأمير قانصوه ابن السلطان جركس فانه ما زال يضرب بالسيف حتى خرق عسكر الروم ، وطلع من ذلك الجانب على حمية .

فلما خلص شم الهواء وردد اليه روحه بعد أن كان أيس من الحياة ، وألف حسنة لرجل خرج من بين الآلوف ، ولكن اذا جاء أمر الله قضى بالحق ، ولا راد لله فيما قضى ، فوقن في نهر هناك ينبع فيه العرقسوس ، فالتفت عليه قوائم الفرس ، ففرق .

وكان عسكر الروم تنظر اليه على بعد ، فلما رأوه في هذه الحالة طمعوا فيه واحتاطوا به فقبضواه وعروه من الملبس ، فقطعواه بسيوفهم .

واما الأمراء فغالبهم تشتت في البلاد ، وغالبهم قتل ، وانهزمت تلك الجموع ، فتمكن عسكر السلطان سليم من أوطاق الغورى ، وأخذوا كل ما فيه ، وكان شيئا يفوق الوصف من الذهب والفضة ، والقناطير المقنطرة ، ومن

(٢٧) السياق : من قطع من الدنيا أمله .

البرق والملبوس والتحف التي جمعتها الملوك السالفة ذهبت كلها ، ونهبت في يوم واحد .

وذلك بالنسبة لما أبقيه السلطان في قلعة حلب ، وما اودعته الأمراء والأجناد عند أهل حلب ، وهو شيء لا ينحصر ، قليل جدا . وما نقل أن السلطان الغوري لما خرج للاقاوة العثمانية أخذ معه مائة قنطار ذهبًا دنانير ، ومائة قنطرة فضة أنصافا ، وكان قصده أن يجعل ذلك نفقة للعسكر ، ونوى أنه لا يزال ذاهبا حتى يصل أسلامبول ، ويأخذها من يد السلطان سليم .

وسبب ذلك أن السلطان سليم أرسل له كتابا على سبيل النصيحة ، وغالبه تهديد كالسم في الدسم ، ومن جملة ما فيه أنه قال : « ان لم ترجع عما أنت فيه من الظلم والعناء على المسلمين والا جئتكم بعسكر من الروم ، وأخرب مصرك عليك » .

فكان هذا الكلام من جملة السبب المعرك للغوري على خروجه لعرب السلطان سليم .

فأرسل في الجواب : أنا لا أحوجك للمجيءلينا ، ولكن تأهب للقاء الأبطال ، وتنظر كيف تفعل الرجال .

وصدق في قوله ، لأنه أفحى قلوب عسكره ، وأهلك غالب الأمراء من القرانصة ، فكرهته العساكر كلها ، وما خرجوا معه إلا وكل منهم يتمنى لا يرجع إلى مصر ، وكان هذا من سوء تدبيره ، وكل ذلك حتى يجري القضاء والقدر .

قال الراوى : وبات السلطان سليم في مرج دابق ، ثم أصبح وأمر أن تعد القتلى من الفريقيين .

فوجدوا الذى قتل من الجراكسة ألف نفس ، وأكثرهم من المدافع والبنديقات ، والذى قتل من عسكر الروم أربعة آلاف . ثم وجد فى القتلى رجل عظيم من الجراكسة ، وعليه من الملابس الفاخرة ما يناسب الملوك ، وعليه من الهيبة والوقار ما لا يوصف ، ووجهه يتلألأ نورا ، وقد جاء مضرب زان أخذ فنه ، فجئ ببعض من يعرف الجراكسة ، فوجده سودون العجمى أمير كبير .

فأمر به السلطان ، فغسل ، وصلى عليه ، وأمر بدفنه ، فكان ترابه فى زاوية هناك ، تسمى زاوية الشيخ أبي النور القارىء . وأما ما كان من أمر الجراكسة فإنه لما وقعت عليهم الكراهة نهب بعضهم بعضا ، وصار كل انسان منهم يأخذ ما قدر عليه ، وكل من كان له عدو وقدر عليه قتله ، ولكل شيء آفة من جنسه .

وانظر الى قوله تعالى : « ولا تنازعوا ، فتفشلوا ، وتدھب ریحکم » الآية (٢٨) .

وقوله تعالى : « اذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » الآية (٢٩) .

وقوله تعالى : « اذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » الآية (٣٠) .

ثم ذهب غالب العسكر قاصدين الى حلب ، فمنعهم أهل حلب ، لشدة ما قاسوا منهم حين مجئهم مع الغورى ، فتشتت شملهم ، وذهبت حميتهم ، وانكسرت شوكتهم بعد تلك القوة والمنعة العظيمة والباس الشديد .

(٢٨) سورة الأنفال ، آية ٤٦ .

(٢٩) سورة الأسراء ، آية ١٦ .

(٣٠) سورة الرعد ، آية ١١ .

وكان سبب سعادة أهل حلب من هذه الواقعة^{٢٨} ، فانهم كانوا أودع عندهم الجراكسة جميع أموالهم وخرجوا على جرائد الخيول فطمعت فيهم أهل حلب ، وصدوهم عن الدخول لأجل ذلك .

وأما خاير بك فانه دخل حلب ، وأخذ سيدي محمد بن الغوري ، وكان أبقاء أبوه على خزانته وأمواله بقلعة حلب ، فأخبره أن شهوار نازل على جيلان (★) بعشرين ألف فارس ، وهو قاصد أخذك ، وأخذ حلب .

فقال سيدي محمد : فما الرأى يا أمير خاير بك ؟

قال : الرأى أن ننادي في العسكر بالرحيل إلى مصر ، ويجتمع إليك ما شئت من العسكر ، وتكون ملك مصر موضع أبيك ، وأنا مساعد لك في ذلك .

فصدقه في ذلك .

ونادى في حلب بالرحيل إلى مصر ، ومن له رغبة في المسير إلى مصر فليتبعنا .

فخرج الناس على وجوههم ، وتركوا أثقالهم وأموالهم ، واختاروا سلامة الروح ، وكانت مكيدة .

وخرجوا من حلب كالهاربين .

(★) جيلان قوم من أبناء فارس انتقلوا من نواحي اسطخر فنزلوا بطرف من البحرين على الخليج العربي .

و فعل ذلك خاير بك حتى يأخذ حلب للسلطان سليم من غير حرب ..
وكان الأمر كذلك .

فانه أرسل الى السلطان يخبره بما فعل ، وأنك تسير في هذا الوقت الى حلب ، فانها خالية من العسكر المصري ، وأما عسكر حلب فمن أطاعنا أبقيتاه .

فجاء السلطان سليم بموكب ، ودخل حلب من غير حرب ، وأطاعتة الرعایا والعاشر ، فملكها ، وأخذ الأموال التي وجدها ، ونهب الغالب .

وتلاشى أمر ابن الغورى ، وما دخل مصر الا في أسوأ الأحوال ، واذا أراد الله بأمر بلغه .

قال الراوى : فلما خرج ابن الغورى من حلب ، قصد دمشق الشام ، فخرجت عليه العريان ، فنهبت أثقاله وأثقال من معه ومن قدروا عليه ، ولو لا الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير قنبردى الغزالى ، والا كانوا نهبوa جميع العسكر .

فان العسكر ماتت قلوبهم وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب ، فما دخلوا دمشق الا في أسوأ الأحوال ، فضاقت عليهم دمشق ، وغليت الأسعار ، فأقاموا بها ثمانية عشر يوماً .

وأراد الأمير قنبردى الغزالى أن يتسلط ، فقال الأمير أبرك : أولى ما تكون السلطنة أن تكون لابن السلطان . فأجابه الجلبان ، جملة واحدة وبعض من القرانصة : نعم .

فلما سمع ذلك الأمير قتبردى الغزالى أيس من السلطنة ،
فشرع فى الملاحقة عليهم ، وفى تعكيس أمرهم ، وكلما
دبروا أمراً تحصل منه منفعة يسخطهم فيه .

فقام الأمير علان وقال : تحت (٣١) السلطنة بمصر أم
الشام ؟

قالوا : بمصر .

قال : فاذهبا الى مصر ، واجتمعوا بمن فيها من الأمراء ،
واتفقوا على انسان تختارونه ، وسلطنه ، فان السلطنة
لا تصلح لأحد الا لأشجعنا وأعقلنا . وخصوصاً نحن في
أضيق الأحوال ، وعدونا في طلبنا ، كيف نسلطن علينا ولدا
صغرياً ؟ وإن كان هو ابن السلطان ، ليس فيه كفاءة وقدرة
على السلطنة على هذا الوجه وهذا الحال .

فاستصوبوا رأيه .

وما قصده الا أن تكون السلطنة له ، فإنه كان من
الفرسان المجنورة المشهورة ، وكل انسان ما يريد العظـ
الأوفر الا لنفسه . فاقتضى رأيهم بالتوجه الى مصر ، وابنـ
الغوري معهم كآحاد الناس ، لا يلتفتون اليه .

وأما القرانصة الرعوس فكل منهم يتمنى أن يكون هو
السلطان ، ولا يكون الا ما يريد مولانا سبحانه وتعالى .

ثم خرج العسكر من الشام قاصديق مصر .

(٣١) أي حاضرة السلطنة أو عاصمتها .

فقالوا للغزالى : من يحفظ الشام ؟

قال : الأمير ناصر الدين بن الحنش .

فارسل خلفه ، وخلع عليه خلعة تليق بمقامه ، فانه كان من أعيان شيوخ العربان بتلك الديار .

وقال له : البلاد بلادك ، تسلم حفظها حتى ننظر الأمر
كيف يكون .

ثم ذهب الأمير قنبردى الغزالى مع العسكر الى مصر ،
وهو كامن لهم الغدر ، لكونهم لم يسلطنه ، وأضمر على
معاكساتهم ، ومال بقلبه الى رأى خاير بك في تحريض
السلطان سليم على أخذ مصر .

فانه كان قصده الرجوع من حلب الى شاه اسماعيل ،
وما قصده أخذ مصر ولكن أطمعه في أخذ مصر خاير بك
والغزالى . فمازال الأمراء والعسكر سائرين الى أن دخلوا
مصر ليلا ، وهم في أسوأ الأحوال .

فنزل قنبردى الغزالى في بيته ، وابن الغورى في بيت
أبيه الذى بناه له فى البندقانين (★) وهو الذى قدمه
الحمزاوى ، وجعله خانا للتجار ، وبقية البيت باقية الى

(★) البندقانين ، ذكر المقرىزى أن البندقانين كان خطا من أعم اخطلاط القاهرة
وأنه كان قد يما أحد اصحابيات الخلافاء الفاطميين فلما زالت الدولة الفاطمية اختلط وضاربت
فيه مساكن وسوق تعرف بسوق البندقانين ، ومن جملته عدة جوانب لعمل قسمى
البندق ، ومكانه حاليا بين أجزاء سور الغورية بالقاهرة .

الآن ، وهى القاعة العظيمة وما حولها ، وبابها من ناحية سور الغورية (★) ، فسبحان من يغير ولا يتغير !

وكان الأمير أنس باى حاجب العجباب فى رأس حدرة البقر عن يمينك وأنت متوجه الى الصليبة (★★) ، وهو يعرف الان ببيت حمزة الذى مات فى اليمن .

وتتنمر الزردكاش فى البيت الذى فى ازائه .

وبيت الأمير تانى بك النجمى فى حدرة الصليبة عن يسارك وأنت قاصد قلعة الكبش (★★★) .

وبيت الأمير أزبك المكحل فى رأس المدابغ (★★★*) عن يسارك ، الذى كان فيه المرحوم عثمان بيتك قائم مقام .

وبيت قانصوه الفاجر أسفل منه من ناحية باب زويلة (★★★★) .

(★) الغورية مكان معروف بالقاهرة بين باب زويلة وشارع الأزهر ، مشهور بالسوق .

(★★) الصليبة مكان بالقاهرة معروف بالقرب من مسجد أحمد بن طولون .
(★★*) قلعة الكبش ، الجزء المرتفع القائم شرق مسجد الحمد بن ملولون حتى البغالة وهو معروف بمناظره التاريخية الجميلة ، وقد عرف بالكبش من اسم الجبل المبنية فوقه البيوت . وكان بهذا المكان دار الامارة زمن عمال مصر من قبل الخلفاء الامويين والعباسيين وفي أيامه وفي أيام الفاطميين جعلوا فوقه قصورا سميت بمناظر الكبش ، وقد وصفها المقريزى .

(★★★*) المدابغ الجزء الواقع فى جنوب مصر القديمة ، مشهور الان بمصانع دبغ الجلد .

(★★★★*) باب زويلة واحد من أبواب القاهرة القديمة ، وقد بناه أمير الجيش بدر الجمالى سنة ٤٨٥ هـ نسبة الى قبيلة زويلة التى جاءت من القبrians مع جره ، وقد كانت مئنتها هذا الباب عظيمتين جدا واكبر مما هما عليه الان ، وقد هدم اعلاهما الملك المزید لما بني الجامع داخل باب زويلة . وقال المقريزى كان باب زويلة عندما وضع الفائد جوهر يابين بجوار المسجد المعروف باسم بسام بن نوح . انظر الخطط التوفيقية ، المصححة ٥٠ الجزء الثاني .

وبيت بخشپای تجاھه .

وبيت أبرك رأس الجلبان فى رأس الصليبة من ناحية
الكبش .

وبيت الأمير طومانبای دوادار کبیر على برکة الفیل (★) .

وبيت الأمير علاء على برکة الناصرية ، بجوار مدرسة
أمير آخر .

وبيت قانصوه كرت بالقرب من قناطر السباع ، وأنت
قادص مصر القديمة بجوار مدرسة لاجین (★★) .

وبيت ابن السلطان جركس بقرب سیدی عماد الدين .

وبيت تقطبای نائب القلعة بقرب حمام بشتك (★★★)
الذى في رأس سویقة العزة من داخل الدرب ، وهو الذى كان
ساکنا فيه قايد آغا ناظر الدشیشه .

(★) برکة الفیل ، مكان معروف بقسم المسیدة زینیه بالقاهرة . من جامع
احمد بن طولون حتى شارع الخلیج « بورسعید » ، وكانت هذه الارض كلها بساتین ليس بها
بناء . ويشرف على البرکة الناظر من أعلى جبل بشکر ، ويرى الناظر منها باب رؤیلة وباب
مصر ومدينة مصر وقلعة الروضة وجزيرة الروضة ومجرى النيل . وكانت برکة الفیل من
اجمل متنزهات مصر .

★★★) مدرسة لاجین : انشاما لاجین الفقاری حاكم الغربية . وكان مكانها في
اول شارع محمد على من عند میدان العتبة . وكان بالقرب من المدرسة سویقة تعرف
بسویقة لاجین .

★★★) حمام بشتك ، وقد اندثرت معالمه ، ومكانه بالقرب من مسجد مصطفى باشا
فأفضل الموجود بدرب الجماميز على قرب من میدان المسیدة زینیه بالقاهرة .

وبيت أركماس أمير مجلس في الأذبكية (*) في
بيت يزبك *

وتاني بك الخازنadar في بيت الأمير ماماى الذى هو
الآن بيت قاضى العسكر *

وسودون الدوادار في بيت جانيلات بالقرب من
الخرفنش (**) ، مقابل مدرسة الباسطية *

وبيت قانصوه أبو سنة في رأس سويقة (***) العزة
من ظاهر الدرس *

وبيت خوش كلدى في التبانة بجوار سويقة البقلى *

واقبائى الطويل فى بيت ترابيه *

(*) الأذبكية ، وتنسب إلى الأمير ازبك وكان أصله من معاشر الظاهر جقمق ، وقد صاحره مرتين في ابنته ، وتولى عدة وظائف منها حجوبية الحجاب ورأس نوبة كبير وقد أنشأ عمارة الأذبكية سنة أحدي وثمانين ، وكانت الأذبكية بستانًا كبيراً غربي الخليج يمتد من أولاد عنان إلى قنطرة باب الخرق في مساحة تبلغ نحو ستين فدانًا ، ولما خاقت مصر بالسكان صارت أرض البستان تحكر شيئاً فشيئاً ، إلى أن كان زمن السلطان قايتباي ، فدخل بالاتفاقى ازبك أن يبني فيها مناخاً يحوى القاعات الجليلة والدور والمقاعد ، وأن يبني بها مسجداً كبيراً في غاية الحسن ، ثم أنشأ حول المسجد البناء الكريوط والحمامات والقياسار وما يحتاج إليه من الطواحين والأفران ، ثم سكن ازبك في تلك المقصور حتى مات *

(**) الخريش مكان معروف بالقاهرة ، أوله من عند سبيل التصررين وينتهى عند حارة الشعراوى يقسم الجمالية ، وعلى جانبيه عطف وحارات ، منها حارة برجوان ، خاليم الخليفة العزيز بالله ، أبو الفتوح برجوان ، وقد بني برجوان في هذا الجزء داراً للضيافة سكنها أمير الجيوش بدر الجمالى حتى قدم مصر وتولى الوزارة بها . وببرجوان هذا هو الذي تكفل بالحاكم يامر الله بن عبد العزيز لما تولى الخلافة صغيراً وقد لازم الحاكم إلى أن قتله *

(***) سويقة العزة ، كذا في الأصل ، وقد ذكرها على مبارك في الخطط التوفيقية سويقة العزى ، ومكانتها بين شارع سوق السلاح وشارع الدرب الأحمر ، وقد عرفت هذه السويقة باسم عز الدين أبيه العزى نقيب المشيش أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون . وهذه السويقة كانت من جملة المقابر التي خارج القاهرة فيما بين الباب الحديد وبيركة الفيل وبين الجبل الذي عليه الآن القلعة *

وبيت الأمير قانصوه رجله في الرميلة (★) .

وبيت جان بلاط أبو ترسين في سويقة صفية .

وبيت كرتباي الوالي في رأس سويقة العزة ، وأنت
قادص باب زويلة .

وكانت مصر بهذه الأمراء كالعروض المحلية ، وكل أمير
من هؤلاء كالمملوك المنفرد بنفسه ، وكل من في حارته عايش
في رزقه وفي حمايته .

فسبحان من لا يحول ولا يزول ، ولا تراه العيون .

وبيت قانصوه أصله بباب الخلق (★★) بالحدرة ،
وأنت قاصد سويقة صفية ، وهو مشهور إلى الآن ، وكان يأمر
السياسات بأن يصقلوا جلد الحصان حتى يصير يلمع كالمصقول
من الثياب ، فلهذا سمي « أصله » .

وكان بيت الأمير سودون العجمي في رأس سويقة
السباعين (★★★) على يسار القاصد للسويقة المذكورة .

فرحم الله تعالى تلك الأرواح .

(★) الرميلة مكانها الآن ميدان صلاح الدين بالقلعة في القاهرة المعروف بالمنشية .

(★★) باب الخلق كذا في الأصل ، وقد ذكر في جميع كتب التاريخ القديمة باب
الفرق ومكانه الميدان المعروف بميدان أحمد ماهر بالقاهرة (انظر ص ٥٠ الجزء الثالث من
الخطط التوقيفية لعلى مبارك) .

(★★★) سويقة السباعين ، مكانها كان معدنا من درب الخليفة إلى شارع الناصرية ،
وكان يفصلها عن القاهرة أرض مزارع ، وكان المار من بوابة الناصرية إلى جهة الشيشين
ريحان يجدها عن يساره ، وقد ذكرها المقريزي في ترجمة حكر المست مسکر حيث قال .
إن هذا الحكر بسويقة السباعين ، وكان هذا الخط من منشأة المهراتي إلى المقسى .
بساتين ثم حكرت .

ذكر

اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر

ونرجع الى اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر ، وحكاية ما وقع لهم ، وكيف كسروا قهرا باختلافهم في بعضهم ، وملحاتهم على سلطانهم ، فانهم تسببوا في هلاك سلطانهم وهلاك أنفسهم ، وكل ذلك ثمرة العناد ، كما قال القائل : « ولا تعاند تغلب ولو أنك سلطان » .

ثم اجتمع الأمراء والأعيان في ثاني يوم بقلعة الجبل ، فاقتضى رأيهم جميعا سلطنة طومانبای (★) ، وباييعوه على السلطنة في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان سنة تسعمائة واثنتين وعشرين .

وكان رحمه الله غليظ الجثة ، كبير البطن ، متوسط الطول ، كبير اللحية والوجه ، ورزق من الأولاد الذكور ثلاثة ، ولم يعش له منهم سوى سيدي محمد .

وقد أخبر ولده هذا عن والده أن الفوري عاش من العمر ستا وسبعين سنة ، وقيل ستا وثمانين سنة .

(★) ذكر ابن ایاس ان طومانبای اصله من كتابية الاشرف قايتباى ، وقد اشتراه الملك الاشرف قانصوه الغورى وكان يلود به بقرابة . فلما اشتراه قدمه الى الاشرف قايتباى ، ولهذا يدعى طومانبای عن قانصوه فصار من جملة مماليكه الكتابية ، واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد بن قايتباى ، فخرج له خيلا وقامشا وصار من فرج الملك الناصر ومعاقيقه ، ثم بقد خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى تسلطن قريبه قانصوه الغورى فانعم عليه بأمرية عشرة ، واستمر على ذلك الى ستة عشرة وتسعمائة ، فلما توفي ابن السلطان المقر الناصرى محمد انعم عليه السلطان بأمرية ميلخانة وجعله شادا لشريخانة عوضا عن ولده بحكم وفاته ، واستمر على ذلك الى ستة عشرة وتسعمائة فلما توفي الأمير ازديم بن على الكبير خلع عليه السلطان وقرر في الدودارية الكبرى عوضا عن الأمير ازديم الى ان خرج السلطان الى التجربة يسبب ابن عثمان ، فجعله ثالث الغيبة عوضا عن نفسه حتى يحضر من السفر ، خسار في الناس في غيبة السلطان احسن سياسة وكانت الناس عنه راضية (انظر بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن ایاس . ج ٥ ، ص ١٠٣) .

ولما بايعوا طومانبای على السلطنة أراد أن يقبض على
سيدي محمد بن الغوری ويأخذ ما معه من المال .

فقام الأمير أبرك رأس الجلبان وقام معه من بقى من
الجلبان ، وقال : لا سبيل الى أذى ابن أستاذنا بوجه من
الوجوه ، حتى تذهب أرواحنا . يهلك أستاذنا بينكم ،
ويغلب قهرا ، وتريدون أن تهلكوا ولده الآخر ، فلا كان ذلك
أبدا الا ان هلكنا جميعا .

فقالت القرانصة – وكان المتكلم منهم الأمير علان
والامير كرتباى الوالى ، فانهم كانوا غرض طومانبای لما
يعلمون من دينه وصلاحه وشجاعته وفروسيته ، وليس الخبر
كالعيان – للجلبان : ما حصل لابن أستاذنا في عرضنا وفي
ذمتنا ، وأنتم تعلمون أن طومانبای رجل صوفى ، فقير من
الدنيا وليس معه ما يقدم بتنظيم السلطنة ، وقصدنا نأخذ
من ابن سلطانكم قدر ستين ألفا يدفعها لطومانبای ، يستعين
بها على لقاء العدو والقادمين علينا ، وأما ابن أستاذكم فإنه
ولد صغير ليس فيه كفاية لذلك .

فاستحسن الجلبان هذا الكلام ، وخلوا ما كانوا عزمو
عليه من القيام على طومانبای .

هذا ما كان من أمر الجراكسة .

وأما السلطان سليم فإنه أقام بحلب نحو العشرين
يوما ، وكان مع الغورى خلفاء المشايخ ، مثل خليفة سيدي
أحمد البدوى ، وسيدي عبد القادر الجيلانى ، وسيدي
ابراهيم الدسوقي وأمثالهم .

فلما وقعت الكسرة على الغوري يقيت المشايخ المذكورون بحلب . فلما سمعوا بأن السلطان سليمما قادم الى حلب خافوا من سلطوته ، فأخذوا في الذهاب نحو الشام (٣٢) .

فلما رأهم على بعد مع الرایات والأعلام قال : ما هؤلاء ؟
قالوا له : هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا جاءوا مع الغوري ، فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب الى مصر .
فأمر باحضارهم .

فلما مثلوا بين يديه أمر برمي رقابهم واحدا بعد واحد ، ولم يرحم منهم كبيرا لكبره ، ولا صغيرا لصغره ، فقتلهم عن آخرهم ، فرحمهم الله أجمعين ، وكانوا يزيدون على ألف رجل ، قدر الله عليهم ذلك .
ثم أمر بالتوجه الى الشام (٣٣) .

وكان المشير له بذلك خاير بك .

ولما قدم على الشام (دمشق) أمر باحضار علي نائب القلعة ، فشنقه لأجل عدم تقدمه على استقباله ، وشنق غالب جماعته .

وكان السلطان سليم ليس له اقدام على قتل النفس ، لا يفكر في قتل أحد ، وكان الأمير خاير بك والأمير ناصر الدين بن الحسن شيخ بلاد الدوار هم المساعدون للسلطان سليم على مراده ليصيير لهم عنده يد ، وتصيير لهم مزية على سائر أهل البلاد ، ومن كان لهم عنده غرض يبقون عليه .

(٣٢) المقصود هنا دمشق .

(٣٣) اي دمشق .

قال الراوى : ثم قوى عزم السلطان سليم على المجيء إلى أرض مصر وما حرضه على مصر الا خاير بك ، فانه قصد الرجوع إلى بلاده بعد أخذ حلب والشام (٣٤) كما فعل قبله السلطان تيمور بهادر خان ، فانه كان أخذ حلب وبر الشام بحملته وأخرب الشام وحلب مرة واحدة ، وأفسد العباد والبلاد وهتك حرمات الله ، فأخذه الله أخذة رابية .

وكان قصده أخذ مصر من يد سلطانها فراح بن قرقوف ، فخشى أن يتتحول ، فعمل السكة والخطبة في مصر والعربين باسمه ، فعاد على عقبه .

وكذلك السلطان سليم لما أخذ بر حلب والشام قصد الرجوع إلى بلاده ، فأغواه خاير بك وقنبردى الغزالى وناصر الدين بن الحنش على التوجه إلى مصر ، وضمن له خاير بك أخذ مصر ، وذلك مكر منه . فانه علم أنه ان رجع السلطان سليم إلى أرض الروم لم تبق العراكسة على خاير بك ، ولو ذهب إلى تخوم الأرض ، فما وسعه (٣٥) الا أنه التزم للسلطان سليم بأخذ مصر ان شاء السلطان .

فقال له السلطان سليم : وآنى لي بأخذ مصر ، وجميع العسكر اجتمعوا بها ، وقد أخذوا أهبتهم ، وسلطنا عليهم طومانباى ، وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ، ولا بد لهم من أمر يريدونه ، ونخشى التجوين (٣٦) في بلادهم ، وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا .

(٣٤) المقصود دمشق .

(٣٥) في الأصل (فما ساعده) ..

(٣٦) المقصود التوغل .

فقال خاير بك : ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة انقطعوا ، وانقطعت قلوبهم ، لا سيما والخلف (بضم الخاء) واقع بينهم ، فانهم جميعهم مختلفون ، وكل من الامراء والأعيان قصده هلاك الآخر ، فعیشما كان ذلك فلا تخش من شيء ، وانت منصور بنصر الله لك ، وقرأ قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

فطابت نفس السلطان سليم على التوجه الى مصر ، وأخذها ، ولو فنى نصف عسكره .

ذکر

كتابة مرسوم الى السلطان طومانبای

قال : ثم أمر بكتابة مرسوم الى السلطان طومانبای ، ملخصه :

« اني أريد أن تكون السكة والخطبة باسمى ، وانت نائب عنى ، وأبقيك على ما أنت عليه » .

فلما وصل المرسوم الى طومانبای قرأه ، وفهم معناه ، وطابت نفسه على ذلك ، لكونه فيه حقن لدماء المسلمين . فقدر الله تعالى أن الأمير علان طالع الديوان ، واذا قد لاحت منه العفاته ، فرأى أولاقية (★) السلطان سليم واقفين تحت الديوان ، والناس ينظرون اليهم ، وقد أشيع الخبر بأن

السلطان سليمان أرسل ، يطلب أن تكون السكة والخطبة
باسمه (★) .

فلما رأهم الأمير علان لم يتمالك من نفسه إلا أن جذب
سيفه وضرب أعناق الأولاقية بيده ، وكانوا ثلاثة آنفار .

وطلع إلى السلطان طومانباي وهو مملوء من الغيظ
وقال له : أصحح ما قيل ؟

قال : نعم .

قال : فما الذي عولت عليه ؟

قال : آوافقه على ما أراد ، وأكون سببا في حقن دماء
المسلمين ، وبقاء كل واحد في وطنه ، فاني علمت من كلامه
أني اذا لم أجبه يحصل فساد عظيم ، وعلى كل فهو قادر علينا
ولا معالة ، وعلمت أن العسكر كلهم مختلفون ، وليس فيهم
آحد مع أحد ، وما أظن إلا أن الله تعالى أراد زوال ملك آل
جركس من هذه الديار ، فما رأيك أنت ؟

قال :رأيي أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وأرزاقينا ،
أو نقتل عن آخرنا .

قال : ولكم صبر على القتال ؟

قال : هذا أسهل ما يكون ، فاني قاتلتهم في مرج
دابق ، وعرفت حالهم ، فانه ليس عندهم معرفة بالفروسية

(★) السكة ضرب النقود ، والمقصود بالخطبة الدعاء باسمه في خطبة الجمعة .

ولا ركوب الخيل ، وإنما غاية ما عندهم الرماة بالبنادق والمشاة ، فتحن إذا صادمتهم ندكس عليهم دكسة واحدة ، ندعهم تحت أرجل الخيل ، ولعل الله تعالى يمكننا منهم ومن سلطانهم ، فنأخذه أسيرا ، ونجعله مثلا ليوم القيمة .

فلما رأى طومانبى عزم الأمير علان على العرب وانتشر الأمر ، فمنهم من أجاب إلى ذلك ، واختار العرب والطعن والضرب ، ومنهم من اختار الصلح .

فقام عليهم الأمير علان والأمير كرتباى الدالى (٣٧) ، وشنعوا عليهم بالكلام ، وذموهم ، مما ساعهم إلا أنهم اتفقوا على الحرب والدفع عن العريمين والأولاد .

وأما السلطان سليم فلما رجع له الخبر بأن أولاقيته قتلوا بمصر أرسل خاير بك .

فلما حضر أمره بالجلوس ، فجلس ، وكان السلطان يحب خاير بك لأنه لا يأتيه إلا على مراده ، فان السلطان سليما كانت همته عالية ويحب أن يكون رأس الملوك ، وهو من كان خادما للحرمين الشريفين .

فقال السلطان سليم لخاير بك : ما الرأى عندك ؟

قال : نركب إلى مصر ، نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جملة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بعون الله تعالى .

فالتفت السلطان إلى يونس باشا ، وقال له : ما تقول ؟

(٣٧) الدالى هو الجندي المترقب - الذى يحارب بالأجر لمن يدفع .

فقال : أقول ان السلطان يأخذ من غزة الى الشام (٣٨) ، ويترك لهم مصر ، فاتنا ان مثينا عليهم وتجونا في ارضهم وببلادهم ما نأمن على أنفسنا ان حصل لنا كسرة ، لا سيما وعندهم من العربان ما لا يحصى عددا والعرب تركن اليهم أكثر منا ، لأنهم متادون عليهم ، ومنهم من هو مصاهرهم ، ونتندم حيث لا ينفعنا التدم .

فتالم السلطان لهذا الكلام من يونس باشا ، وحقره في قلبه ، ولكنه أسرها له في نفسه حتى قتله .

وسيأتي ذكر ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى .

ذكر

خروج السلطان سليم الى مصر

قال : ثم ان السلطان سليم أمر بالرحيل بعد ثلاثة أيام الى أرض مصر .

وأما طومانباي فإنه لما رأى الأمراء من الجراكسة معولين على العرب جمعهم ، وضرب المشورة على من يكون باشا على العسكر ، فاتفق رأيهم على أن يكون قنبردى الغزالى ، وكان ذلك أول عكسهم ، لكونه ملاحيا عليهم في الباطن .

وكان جملة العسكر الذين خرجوا معه في هذه التجريدة عشرة آلاف عسكري ، وعشرة متقدمين من

-الألف (٣٩) ، وثلاثة من الأمراء والأربعينات ، وثلاثة من الأمراء العشرات (★) .

ومن الأمراء المتقدمين من الألوف العشرة المذكورين قنبردى الغزالى نائب اسكندرية ، وقانصوه أبو سنة ، وقانصوه كرت ، وتقطبى نائب القلعة .

ومن الأمراء الأربعينات بربى الشهبي ، وقرقماس ، والأمير مسد ، وجانبردى ، والأمير قايتباى نائب الكرك .

ومن العشراتالأمير خوش كلدى وقانصوه استدار صحبه ، والأمير جامن دوادار ، وسيدى محمد بن الغورى ، وأخوه جان بك ، وقرقاس الشريفى .

ولم يسافر فى هذه السنة الحج ، لأن السلطان كان مشغولا بالحرب .

ثم خرج العسكر فى أول شوال سنة اثنين وعشرين (وتسعمائة) (★☆) فلما وصلوا خان يونس (★★★)

(٣٩) الصياغة الصحيحة : من مقدمى الألوف (وهى رتبة عسكرية) .
 (★) كان عدة الأمراء مقدمى الألوف أربعة وعشرين أميرا ، يقوم بخدمة كل واحد حذفة مملوك وارباب وظائف ، وهو مقدم على الألف جندى فلاجل ذلك يسمى أمير هادة حقدمها على الألف ، ومن مظاهر حياته أن تدق على بابه ثمانية أحمال طبلخاناه وطبلان رصل وزمردان وأربعة انقرة هرتين ، وفي الأمراء مقدمى الألوف من هو صاحب وظيفة ومن ليس له وظيفة . وأما أمراء الأربعينات فقد كانوا أربعين أميرا ، كل واحد منهم يقوم بخدمته أربعون مملوكا وتدق على بابه ثلاثة أحمال طبلخاناه ونغيران . وأما أمراء العشرينات فكانوا عدتهم عشرين أميرا . يقوم بخدمة كل واحد منهم عشرون مملوكا . وأمراء العشرونات كانوا خمسين أميرا يقوم بخدمة كل واحد منهم عشرة معايله ..

(★☆) أول شوال سنة ٩٢٢ / ٢٨ اكتوبر ١٥١٦ وفى هذا اليوم استولى الأسبانيون على جميع بلاد أسبانيا .

(★★★) خان يونس ، بلد بفلسطين ، كان أول محطة لنزول الواحدين على مصر من طريق الشام ، وبالقرب منه قبر الشيخ زوين ، وكان من أعراب البوادى الصالحين ، ولأهل خان يونس فيه اعتقاد عظيم .

وإذا بعسکر السلطان سليم قد آشرف ، فوقف كل من العسكريين ، وأرسل كل منهما فارسا يكشف الخبر .

فلما اجتمع الفارسان سأله بعضهما بعضا .

فكل منهما أجاب عن قومه .

ثم افترقا ورجعا ، وأخبروا بالأمر .

فلما تحقق كل من الفريقيين الخبر تهيأوا للقتال وترتبوا ترتيب الحرب ، ودكست الجراکسة بالغيل العربية دکسة تهد الجبال ، فلاقتهم اليكنجريه برش بندق ، خلت (٤٠) الراقد أكثر من الواقف . فدکس الغزالى ، وجاءته العميمه ، وأفحش فى القتل ، فتكاثروا عليه وجذبوه بالكلاليب (٤١) وأخذوه أسيرا .

فتعصب له الزعر (★) من الفلمان ، وخلصوه من قلب العدو بعد أن قتلوا من اليكنجربة مقتلة عظيمة ، وخلصوه .

وكان الكسرة على الجراکسة .

= وكلمة « خان » لقب متعدد المعانى اختصار « قاغان » أو « خاقان » ، وقد استعملت مرادفة لكلمة ملك أو شاه ، كما تضاف إلى أسماء بعض الأماكن مثل خان الخليلي في القاهرة ، وفي هذه الحال الأخيرة يكون معناها مكانا أو موضعأ أو سوقا ، وغالبا ما تطلق عند اضافتها لمكان على الوکالات والفنادق المعدة لاستقبال التجار ودوابهم ... الخ وقد تعنى أماكن العبث والله .

(٤٠) أى جعلت .

(٤١) المشابك .

(★) الزعر ، أو الزعارة وهم الرعاع والمقصود العامة وسود الناس . وهي قريبة المعنى من الحرافيش ، ولا تبعد كثيرا عن الشلاق أو الشلق .

وأما جند العسكر الروم فإنه كان فرهاد باشا تقدم على عسكر السلطان بقدر بريد (★)، وكان المساعد له شيخ العرب المسمى بباب البريق على الجراكسة ، ولا ضرهم الا البندق . فإنه يأخذ الرجل على حين غفلة ، لا يعرف من آين جاءه ، فقاتل الله أول من صنعوا ، وقاتل من يرمي بها على من يشهد الله بالوحدانية ، ولرسوله ﷺ بالرسالة .

ونرجع الى سياقة الحديث .

فاما السلطان سليم فلازال سائرا على الراحة حتى دخل قطليا (★★) ، فلم يجد بها أحدا من العسكر مطلقا ، فأقام بها ثلاثة أيام .

فرد عليه أحمد بن بقر (٤٢) شيخ بنى وائل ، وممه أولاده ، عبد الدائم ، وبيرس ، والجذامي ، وخاطر .

وكان خاطر أصغرهم .

فغلغله عليه وعلى أولاد السلطان سليم خلعا .

وكان أحمد بن بقر (بقار) صاحب طبل خانة (★★★)
في مصر ، وأقره على ما هو عليه من بلاده وأرزاقه ، وكذلك
مشايخ العربان .

(★) البريد مسافة تقدر بائتني عشر ميلا .

(★★) قطليا أو قطية مدينة كانت في شبه جزيرة سيناء تتخذها الجيوش نقطة ارتكان وتموين .

(٤٢) بقار (يتضديد مع فتح القاف) .

(★★★) طبل خانة ، وكتاب متصلة طبلخانة هي دار بها من الكوستات التي تدق على باب السلطان اربعون حملة ، وأربع طبل كبيرة ، وأربع زمور ، وعشرون نغيرا ، ولها رئيس وبها عدة خدام . والمقصود أنه كان ذا شأن .

ثم ان السلطان سليمما أمر باحضار خاير بك ووزرائه ،
وقال : ما تقولون في حيلة يكون بها تفريق شمل الجراكسه ؟

قالوا : وما هي ؟

قال : ائتونى بفلان الكاتب

وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة أقلام ، ويحاكي جميع
الخطوط . فحضر .

فقال له السلطان : أريد منك أن تكتب كتاباً تعاكى
فيها خطوطاً مختلفة على لسان النساء مصر ، وابن الغوري ،
بانهم معى في الباطن ، ويعرضونى على المجيء إلى مصر ،
ويكونون معى ، ويساعدونى على طومانبى ، وعلان ،
وكرتباى الوالى .

فكتب الكاتب على لسان النساء المذكورين ، وربط
الكتب المذكورة ، وأوصلها لرجل من جماعة خاير بك ،
وأمره بالذهاب إلى أوطاق طومانبى ، وأن يرميها بالقرب
من مجلس السلطان ، ويقف لينظر ما يقع بينهم من
الخلف(٤٣) ، ثم يرجع ليخبر السلطان سليمما . ففعل ذلك .

فرأى المكاتب بعض مماليك طومانبى فأخذها ،
وأوصلها إلى أستاذه .

فأخذها ، وقرأها .

وجمع النساء ، وأخبرهم بذلك .

(٤٣) بضم الخاء وتسكين اللام . أى الاختلاف .

فأنكروا كلهم ذلك ، وحلفو الأيمان المعظمة أن هذا
لم يصدر منهم . فتحير طومانبای فى أمره .

وافتتن العسكر ، وكادوا آن يقتل بعضهم بعضا .

فقال لهم طومانبای : ربما تكون هذه مكيدة من
الأعدى ، كادونا بها ليفتتنا ، ولكن الله تعالى يقابل كلامنا
بما يستحق ، ولكن كانوا على أهبتكم للقاء عدوكم .

فلما كان يوم الثلاثاء آخر شهر ذى الحجة العرام جاءت
الأخبار بأن السلطان سليم دخل الخانقاه (★) .

ونادى السلطان طومانبای فى عسكره : كل من جاء
برأس رومى له ما يريد من كل شيء .

فصارت فرسان العراكسه تشن الغارة على عسكر
السلطان سليم ، وكل من استطروا (٤٤) به أخذوا رأسه ،
وجاءوا بها الى طومانبای ، فصار يجزل عطاياهم .

فساء ذلك قنبردى الغزالى .

فلما دخل الليل دخل خيمته ، وكتب كتابا ، وختمه ،
وذكر فيه جميع ما فعله طومانبای ، وأنه أخرج المدافع
الكبار التى أودعوها فى الجبل هناك ، وجعل آلات العرب

(★) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وأول خانقاه بمصر أنشئت فى زمن
صلاح الدين يوسف بن ابيوف سنة تسع وخمسين وستمائة برسم الفقراء الصوفية الواردین
من البلاد الشاسعة ، وقد وقفت عليها عدة أملاك يصرف عليها من ريعها .. ثم ضفت
حال الخانقاه واستبدل بها التكايا مجال اقامة الدراويش . وقد كانوا كلهم من الاعاجم .
(٤٤) استطروا به اى وجدهو متطرفا اى يعيدها عن مجموعته او كتيبته .

في الريدانية ، وقد أشرت عليهم بدهنها في الرمل ، لئلا ينظروا أحد من الجواسيس فيتغيركم بذلك

فقبلوا مني ذلك بعد جهد عظيم مني ، خشيت على عسكر السلطان من هذا البلاء العظيم ، والصواب أن السلطان يدور ويأتي من جانب الجبل فيصيرون اذا رموا لا يفيد رميهم شيئاً

وأرسل الكتاب إلى خاير بك

فأوصله إلى السلطان سليم

فسر بذلك ، وأجزل عطاء القاصد به

ورد الجواب

ورجع في جوف الليل إلى سيده الغزالى ، ولكل شيء آفة
من جنسه

ففي صبيحة ذلك اليوم ، أمر السلطان سليم بالرحيل
إلى ملاقاة طومانبای

وأما السلطان طومانبای فأنه اتفق مع الأمير علان
والامير كرتباى الوالى ، أن يتفرق بعضهم عن بعض ، ويحمى
بعضهم بعضاً ، وقد علموا أن الغزالى ملاهى عليهم ،
وتحققا ذلك ، وقصدوا قتلها ولكنهم خشوا ان قتلوه أن
يفتنن العسكر ، ولكن توكلوا على الله ، وأخلصوا نياتهم

واتفق أنهم يقصدون سنجق السلطان سليم فلا يرجعون
إلا أن يقتلوه أو يقتلوا

فلما أصبح الصباح ما طلعت الشمس الا وعسكر
السلطان سليم منسكب ناحية العجل كالجراد المنتشر من
وراء ظهر عسكر طومانبای .

فارتجوا لما رأوا ذلك ، وأيقن طومانبای بأن عسكته
ملاح عليه ، وأن اشارتهم عليه بدن المدافع مكيدة منهم له ،
ولم ير له حيلة يحتال بها .

فلم يسعه الا التسليم لله تعالى فيما حل به ، لم يرم شيئاً
من تلك المدافع مطلقاً ، الا أن رجلاً واحداً ، وكان آخر من
رمى مدفعاً ، يسمى مجنونه ، رماه ، وهرب .

فتح في عسكر السلطان سليم زقاقاً .

فارتج العسکر الرومی ، وظنوا أن خاير بك والغزالى
مكرروا بهم .

فأرسل السلطان سليم خلف خاير بك ، وكان قريباً
 منه ، فقال :

— ما هذا الذى ذكرته في ردم مدافعهم بالرمل . فما
هذا الحال ؟

ورأى منه الفضي .

فقال خاير بك : مهلا على .

وأرسل جاسوساً ، يكشف الأمر .

ففاب ، ورجع مسرعاً .

وقال :رأيت المدافع كلها مردمه بالرمل ، وانما هذا
رجل آخر لم يردم مدفنه بالرمل ، وأبقاء مكتوفا ،
وقال ، انه ضامن لذلك ، فرمى به ، وهرب .

فاطمان السلطان سليم .

وأما السلطان طومانباي ، فلم ينظر إلى شيء ، وانما
قصد سنجق السلطان سليم هو والأمير علاء وكرتباي الوالي .

فما زالوا في مشوارهم وهم يطعنون بالقناطيريات حتى
غاصوا في جميع عسكر الروم بحملتها ، فلله درهم من
فرسان ، لكونهم لقوا هذا الجيش الظيم بنفسهم !

وليس الخبر كالعيان .

فما زالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا سنجق
السلطان .

فظن السلطان طومانباي أن الذي تحت السنجق
السلطان سليم .

فقال له يا سليم : أنت غير صالح .

وجذبه من على سرجه بيده اليسرى ، ورفعه بأعلى
رأسه ، وخطبه على الأرض ، فطبق أضلاعه بين جنبيه .

وضربه الأمير علان من على يساره فأزال رأسه .

وكان معه محمود بن رمضان صاحب أضنة (٥٤) .

(٤٥) وتكتب أيضاً أطنه (بالطاء) وادنه Adana وتقع جنوب الاناضول شمال
غرب خليج اسكندرونة - محمد فريد ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٨٢ . تعلق احسان
عباس .

و كذلك فعل الأمير كرتباى الوالى بالأمير على بن شهوار .

فلما فعلوا ذلك قوى قلبهم ، و اشتفي غليلهم ، وبقيت الروم باهته باعینهم کانهم قطیع غنم بلا راع . فاعقب الفرحة ترحة ، و ظهر آن الذى قتلہ طومانبای انما هو الوزیر الذى يسمى سنان باشا .

وبسبب ذلك آن السلطان سليمان وخاير بك وفرهاد باشا ويونس باشا التفوا من طرف العسكر ومر عليهم طومانبای عند رجوعه وصحبته علان وكرتبای وهم ينظرون اليهم ، فلم يقدر واحد منهم أن يتعرض له ، ولا يقربه ، مع أنهم لو علموا أنهم هم ما برحوا حتى أخذوهم ، ولكن الحى ما له قاتل .

فرجع طومانبای من حملته تلك فلم ير أحدا من عسكره ، فإذا به منكسر والعدو في اثره ، فكشف عنه هو والأميران المذكوران ، وردوا الروم عنهم .

واذا ببنديقية جاءت للأمير علان في قصبة رجله ، فكسرتها ودخلت في جنب الحصان ، فقتلته لوقته ، فوقع من ساعته ، الا آن الأمير علان حمل نفسه ، وهم عن الفرس قبل أن تصل الأرض ، وجاءوا له بجنبي (★) فركبه ، وقد أيس من الحياة .

فرد السلطان طومانبای ، ولوى عنان فرسه الى قناطر بنى وائل .

(★) الجنبي هو الفرس الذى يسير دون راكب الى جنب فرس آخر مركوب -
فإذا نشر المركوب تحول الراكب الى الجنوب .

فلمًا عاين طومانبای ذلك آيس من العرب ، ولم يبق
معه أحد إلا كرتبای الوالى فقصد نحو القلعة وطلعوا من
خلفها . فما زالوا حتى نزلوا ببركة الجيش ، وتمادوا إلى
طرا (★) .

وأما الأمير علان فإنه ما زال سائرا حتى وصل
المنيل (★) وعدى لبر المنوفية ، وذهب إلى فلاحة ابن
يغداد الأمير حسام الدين ، فلاقاه أحسن ملتقي ، ورحب به ،
وأرسل فجاء له بالمجبر ، وبقى عنده نحو اليومين ، فرأى
من عيته الغدر ، وأنه يريد أن يقبض عليه ، ويرسله إلى
عندوه *

فلمَا تحقق ذلك تأسف على نفسه ، وأمر بأن يشهد له
العasan لأجل أن يشم الهواء ..

فظنوا أنه لم يفطن بهم ، فركبوه *

فلمًا ركب جواده طلب سيفه وترسه وقطاريته *

فلم يقدر أحد أن يتعرض له ولا يقربه ، مع أنه لو علم
أنهم كذا ما كان يقرب إليهم *

ولما ركب على حصانه التفت إلى الأمير حسام الدين
وقال له : ستنتظرون أرواحكم بعدنا يا خونة ، الله يخون
الخائن . ولوى عنان جواده ، فلم يتبعه أحد ، وكلما لاقت
سرية عرب يقول لهم : أنا علان *

(★) طرا هي بلدة طرة الواقعة على خط سكة حديد حلوان جنوبى القاهرة . وقد
أصبح لها الآن شأن عظيم حيث يوجد بها مصنع لاستخراج الأسمدة من محاجر جبل المقطم
الذى يشرف عليها من الشرق *

(★★) المنيل ، ويعنى به الجزء المعروف الآن بالمنيل والجزء المعروف بالروضة *

فلم يقدر أحد أن يقربه .

فمازال حتى عدى بر الجizza ، وقصد نحو الصعيد ،
فمازال حتى دخل بلدا في إقليم البهنسا (★) يقال لها
نويرة .

فنزل عن فرسه ، واستقبل القبلة ، فمات ، رحمة الله
عليه .

فصل عليه أهل البلد ودفنه في زاوية هناك .

وأما السلطان طومانباي ، فإنه لما رجع من العرب لم
يجد أحدا من عسكره إلا وقد ول متهزما من كثرة البندق
والضرب بالزانات ، فلم يستطع أحد أن يقف أمام ذلك .

فطلع من وراء القلعة ، وقصد ناحية طرا والعدوية ،
وتبعه بعض العسكر يقفون أثره ، سرية بعد سرية إلى أن
سار معه سبعة آلاف فارس ، الأعيان منهم ، الأمير قانصوه
كرت ، وقانصوه رجله ، وقانصوه الفاجر ، وأنس باي
صاحب العجاب ، وبخشبائى أمير مجلس ، وشار بك الأغور ،
والأمير قانصوه العادلى كاشف المنوفية ، وأذبك المكحل ،
وثانى بك النجمى ، والباقي مماليكهم وأتباعهم .

وأما الأمير جان بلاط فإنه قد تجون(٤٦) في قلب العدو ،
وما بقى يقدر على الهرب ، فلما آيسن من نفسه صار يقاتل

(★) البهنسا ، بلد عن أعمال مركز مقاومة بمحافظة المنيا على الشاطئ الغربي
من بحر يوسف ، وهي من البلاد القديمة ذات الشيرة العظيمة في تاريخ الفتوح الإسلامية .
وكانت قاعدة إقليم ، لها أربعة أبواب إلى الجهات الأربع .

(٤٦) آى توغل .

الى وراء ! فمازال كذلك حتى وصل الى قبة الهواء ، فبطل جواده ، فنزل عنه ، وصار يقاتل راجلا – يعنى ماشيا .

فلما رأته الروم ترجل طمعوا فيه ، وقالوا : هذا رجل ونحن رجال .

فانطبقوا عليه كالجراد ، فصادقته ضربة زان فوق الى الأرض ، ووقعوا عليه بالسيوف حتى صار لا يعلم له رأس من رجل ، وكذلك الأمير قانصوه رجله في الرملية . وما بقى من عسكر الجراكسة ، منهم من قتل بالبندق ، ومنهم من هرب ، ومنهم من تبع السلطان طومانباي ، وباتت مصر ليس فيها جركسى الا ان كان مخفيا .

فبعد ذلك دخل خاير بك على السلطان سليم ، وأخبره بما وقع ، وأنه أمر بارسال صوباشي (★) ، فملك القلعة وليس فيها أحد غيره ، والرأى لما يراه مولانا السلطان .

فشكراه السلطان على ما فعله من تمليكه ملك مصر الذي ماتت بعسرته الملوك .

فقال السلطان : صفت لي مصر كأنى أنظر اليها .

فوصفها له من أولها الى آخرها .

فاختار النزول على شاطئ النيل في الجزيرة الوسطانية .

(★) صوباشي ، وظيفة عسكرية في الجيش التركي ، وكان راتب النفر منها ثلاثة دينارا شهريا بينما راتب الانتشارية خمسة عشر دينارا ، والمكولية عشرة .

وأنما طلع الى القلعة ساعة ، وجلس على المصطبة التي تجاه الديوان ، ثم نزل على الفور خيفة على نفسه من الفدر من أحد من الأغادى ، وبات في الجزيرة .

ثم انه شرع في ارسال العسكر الى طومانبای ، فلم يجدوا بمصر جركسيا ، وباتت مصر ليس فيها منهم أحد .

وأما طومانبای فانه سار بيماليكه الى طرا والمدودية ، وتبعته العسكر الجراكسة حتى بقى معه سبعة آلاف خيال ، فاقتضى رأيهم بالرجوع الى مصر ، وأن يحاربوا عدوهم حتى يفروا عن آخرهم .

فرجع طومانبای ونزل في الشيخونية (★) ، وتفرقوا العسكر في العارات ، فقتلوا من الروم نحو العشرة آلاف أو أكثر في ليلة واحدة ثم أصبعوا ، فجاءتهم عساكر الروم من جهة الكبش ، ومن جهة حدرة الحنة (★★) ، فاقتتلوا مرات عديدة ، وظهرت الجراكسة على الأرواح ، وقتلوا منهم نحو خمسة عشر ألفا في ثلاثة أيام ، وفي كل مرة يرجع الروم منهزمين .

(★) الشيخونية تطلق على المنطقة الموجودة بشارع الصليبية حول مسجد شيخون إلى ما تحت القلعة ، وكانت هذه الجهة من جملة قطائع ابن طولون وكانت مسaken فاشتراها شيخون سيف الدين الناصري رأس نوبة الأمراء في سنة ست وخمسين وسبعين ، وقد ذكر ابن أبياسفل في حادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة أن السلطان طومانبای كان ينزل في الجامع شيخون أيام محاربته للسلطان سليم ، فلما علم بذلك أرسل عساكره فانتشرت في الصليبية وأحرقت الجامع فاحتراق سقف الأيوان الكبير والقبة التي كانت به ، وأحضروا خطيب الجامع الشرقي يعني بن العذاس بين يدي السلطان فهم بضرر عنقه ، ثم تشفع فيه ، وخلص من القتل .

(★★) حدرة الحنة ، كما في الأصل . وقد جاء ذكره في خطط المقريزى حدرة الحناء ، وهو شارع ينتدىء من آخر شارع الصليبية إلى مسجد الجاوى بأول شارع مارسينا بقسم السيدة زينب حاليا . وهو يوصل شارع قلعة الكبش .

فبعد ذلك اقتضى رأى السلطان سليم أن يركب هو نفسه ويأتي من جانب القرافة (★) ، ويلقى طومانباي في الرملية ، فاما له واما عليه ، ونوى ان وقعت الكسرة عليه يرجع سائرا إلى بلاد الروم .

فلما فعل ذلك وجاء إلى الرملية أطبق الجو من ضرب البندق والضرب بالزانات .

فلما سمع الجراكسة ذلك بعدوا ، بعد أن كانوا غالبين مستبشرين بالنصر ، وهرب غالب عسكرهم ، وقالوا : من يقابل هذه النار المهلكة .

وأما طومانباي فإنه لم يهرب ، وحطم عليهم حطمة (٤٧) الأسد الغضبان ، وقتل فيهم قتلا حتى كل ساعده ، ولكن ماذا يفعل الواحد في مائتي ألف وأكثر .

ثم رجع ، فلم ير خلفه أحدا من عسكره ، فمازال طالبا نحو الشيخونية ، فلم ير أحدا .

وكان قد تواعد مع عسكره أنهم ان حصل لهم هزيمة يكون موعدهم الجيزة .

فتوجه إليها هو وبقية مماليكه وبعض العسكر حتى صاروا نحو الألفين .

وأما السلطان سليم فإنه رجع منصورا إلى الجزيرة الوسطانية وأرسل إلى خاير بك ، فقال له :

ـ ما الرأى عندك ؟

(★) القرافة : المقابر الموجودة حول مسجد الإمام الشافعى بالقاهرة .

(٤٧) المقصود حط عليهم حطة .

قال له : ما بقى لهم بعد هذه الصدمة رأس تقام أبداً ،
قد هرب غالب العسكر ولم يتبعوا طومانبای ، فالرأى عندك
تنادى لهم بالأمان ، وبعد ثلاثة أيام كل من وجد عنده
جركسي مخبئ شنق على باب داره ، وكل من كان عنده واحد
منهم ، وأخبر السلطان به وبقى عليه فعلية الأمان هو
ومن يلوذ به .

فبقيت أولاد مصر كل من كان عنده جركسي يأتي الى
خاير بك ويخبره بما عنده فيرسل له جماعة يقبضون عليه ،
ويأتي به الى أوطاق السلطان سليم ، فيضربون عنقه
ويرموه في البحر .

فمن جملة من كان مختبئاً الأمير كرتباي الوالي ، فانه
جاءته بندقية في فخذه فأضرته ، فما ساعه الا وهرب فاختفى
عند رجل من أصحابه من المباشرين يسمى ، يعيى بن بكر ،
فلما سمع بالنداء قال في نفسه ، أحسن ما يكون وأفعل أن
أذهب الى أوطاق السلطان سليم ، وأخبره بأن كرتباي الوالي
مخبي عنده ، وأن يرسل له منديل الأمان وقابلة به .
وأكتفى شره ، وتصير لي يد عند السلطان .

فجاء الى أوطاق السلطان سليم واجتمع به مع خاير بك ،
ففرح السلطان بذلك ، وأوعده بأن يعطى له آى منصب
شاء ، وأرسل معه منديل الأمان والمصحف وكتب له كتاباً ،
ان جاءه وقابلة لا يفعل فيه شيئاً وعليه الأمان ، ولا يرى
منه الا ما يسره .

ذرج ابن بكر الى كرتباي الوالي وبشره بالفرج ، وانه
اجتمع مع السلطان سليم وأعطيه منديل الأمان ، وها هو ،

وحسن له عبارة في المقابلة ، وأنه يصير آمنا على نفسه
وماله وعياله .

فدخلت رأسه الجراب(٤٨) وأجاب إلى المقابلة ، وقام
من ساعته وزكب معه إلى أوطاق السلطان سليم .

فلما رأه خاير بك فرح به فرحاً يورث ترحاً وقال له :

— يا أمير كرتباي ، أين عقلك ، تتبع هذا الجنون
المخاطر بنفسه ؟ يشير إلى طومانباي — فسوف ترى كيف
ناتى به ذليلًا حقيرًا ، ولكن حيث جئت طائعاً مختاراً فما بقى
عليك خوف بعد اليوم .

ثم دخل خاير بك على السلطان ، وأخبره بمجيء كرتباي
الوالى .

فخرج السلطان إلى ظاهر الخيمة ، وجلس على كرسى
نصب له ، ونظر إلى كرتباي الوالى ، وقال له :

— أنت كرتباي ؟

قال : نعم .

قال : أين فروسيتك ؟ وأين شجاعتك ؟

قال : باقية على حالها .

قال : أتذكر ما فعلته مع عسكري .

قال : أعرفه ولا نسيت منه شيئاً .

قال : ما فعلت بعلى بن شهوار ؟

(٤٨) تعبير يقابل العبارة العامية (وقع في الخيبة) ، أي انطلت عليه الحيلة .

قال : « قتلتـه مع جملة من قتلـتهم من عـسـكـرـك » بعدـ أنـ عـرـفـ منـ عـيـنـ السـلـطـانـ الفـدـرـ وـأـنـهـ يـقـتـلـهـ ،ـ وـلاـ يـقـىـ لـهـ مـنـهـ خـلـاـصـ ،ـ فـتـرـكـ الـأـدـبـ وـتـكـلـمـ كـلـامـ مـنـ أـيـسـ مـنـ الـحـيـاةـ وـجـعـلـ عـيـنـهـ فـيـ عـيـنـ السـلـطـانـ ،ـ وـرـفـعـ يـدـهـ الـيـمـنـيـ فـيـ وـجـهـ السـلـطـانـ ،ـ وـقـالـ لـهـ :

— اـسـمـعـ كـلـامـيـ ،ـ وـأـصـغـ إـلـيـهـ حـتـىـ تـعـلـمـ أـنـتـ وـغـيرـكـ أـنـ مـنـاـ فـرـسـانـ الـمـنـاـيـاـ وـالـمـوـتـ الـأـحـمـرـ ،ـ وـلـوـ يـلـيـ وـاحـدـ مـنـاـ يـعـسـكـرـ بـنـفـسـهـ وـحـدـهـ ،ـ وـإـذـاـ لـمـ تـصـدـقـ فـجـرـبـ ،ـ فـأـمـرـ عـسـكـرـكـ أـنـ يـتـرـكـواـ ضـرـبـ الـبـنـدـقـ فـقـطـ ،ـ وـهـأـنـتـ مـعـكـ مـائـاـلـفـ مـنـ جـمـيعـ الـأـجـنـاسـ ،ـ وـقـفـ مـكـانـكـ ،ـ وـصـفـ عـسـكـرـكـ ،ـ وـيـخـرـجـ لـكـ مـنـاـ ثـلـاثـةـ أـنـفـارـ ،ـ أـنـاـ عـبـدـ اللـهـ ،ـ وـالـفـارـسـ الـكـرـارـ السـلـطـانـ طـوـمـانـبـايـ ،ـ وـالـأـمـيرـ عـلـانـ ،ـ وـانـظـرـ بـعـيـنـكـ كـيـفـ تـفـعـلـ هـذـهـ الـثـلـاثـةـ ،ـ تـبـقـىـ تـعـرـفـ رـوـحـكـ ،ـ اـنـ كـنـتـ مـلـكـاـ ،ـ اوـ يـصـلـحـ لـكـ أـنـ تـكـونـ مـلـكـاـ ،ـ فـاـنـ الـمـلـكـ لـاـ يـصـلـحـ الـأـمـنـ يـكـوـنـ مـنـ الـأـيـطـالـ الـمـجـنـورـةـ كـمـاـ كـانـ عـلـيـهـ السـلـفـ الـصـالـحـ ،ـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـمـ ،ـ فـاـنـظـرـ فـيـ التـوـارـيـخـ ،ـ مـاـ كـانـ مـنـ الـإـمـامـ عـمـرـ بـنـ الـخطـابـ — رـضـىـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ وـخـذـلـ بـاـغـضـيـهـ — مـنـ الشـجـاعـةـ ،ـ وـكـذـلـكـ الـإـمـامـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ — رـضـىـ اللـهـ عـنـهـ وـكـرـمـ اللـهـ وـجـهـهـ — وـأـمـاـ أـنـتـ فـقـدـ لـفـقـتـ لـكـ عـسـاـكـرـ مـنـ أـطـرـافـ الـدـنـيـاـ مـنـ نـصـارـىـ وـمـنـ أـرـوـامـ ،ـ وـمـنـ غـيرـهـمـ ،ـ وـجـئـتـ بـهـذـهـ الـحـيـلـةـ التـىـ تـحـيـلـتـ بـهـاـ الـأـفـرـنجـ ،ـ لـمـ أـنـ عـجـزـوـاـ عـنـ مـلـاقـةـ الـعـسـاـكـرـ الـاسـلامـيـةـ .ـ

وهـذـهـ هـىـ الـبـنـدـقـ التـىـ لـوـ رـمـتـ بـهـاـ اـمـرـأـةـ لـمـنـعـتـ بـهـاـ كـذـاـ وـكـذـاـ اـنـسـانـاـ ،ـ وـنـحـنـ لـوـ اـخـتـرـنـاـ الرـمـىـ بـهـاـ مـاـ سـبـقـتـنـاـ إـلـيـهـ ،ـ وـلـكـ نـحـنـ قـوـمـ لـاـ نـتـرـكـ سـنـةـ نـبـيـنـاـ مـحـمـدـ ،ـ وـيـاـ وـيـلـكـ كـيـفـ

ترمى بالنار من يشهد الله بالوحدانية ولهمد صلواته بالرسالة .

وقد جاء بهذه البندقية رجل مغربي للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري - رحمة الله تعالى وقتل قاتله - وأخبره أن هذه البندقية ظهرت من بلاد البندق ، وقد استعملها جميع عساكر الروم والعرب ، وهي هذه .

فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه .

ففعل .

وجيء بهم ، فرموا بحضرته ، فسأله ذلك .

وقال للمغربي : نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى ، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » (٤٩) .

فرجع ذلك المغربي وهو يقول : من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية .

وقد كان كذلك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

فقال له السلطان سليم : حيث كانت فيكم الشجاعة والشجعان والفرسان وأنتم على الكتاب والسنة كما زعمت فبأى سبب غلبتكم ، ومن أرضكم أخر جناتكم ، واستعبدنا أولادكم ، وأفينا جموعكم ؟ .. وهانت حضرت أسيرا بين يدينا ؟

(٤٩) لم يستخدم الماليك البندقية لصورية استخدامها من فوق ظهر حسان ، وكانت الفروسية هي محور الممارسة الملعوكية ، فالملاسلة اذن في طبيعة الاجتماع الملعوكى ولا علاقة لها بسنة الرسول صلواته . انظر الدراسة الثانية .

فقال الأمير كرتباى : والله ما أخذتم أرضنا بقوتكم ولا بفروسيتكم ، وانما ذلك أمر قضاه الله تعالى وقدره في الأزل ، وقد جعل الله لكل شيء بداية ، ولكل بداية نهاية ، ولكل دولة مدة معلومة وقسمة مقسومة ، وقد جرت عادة الله سبحانه في خلقه بذلك ، أين الأئمة المجتهدون ، أين الملوك والسلطانين ؟ وانت أيضاً لابد أن تموت ، ويحترم هذا النظام . وما أظنك الا من الدين قال الله تعالى في حقهم : « ... سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملأ لهم ، ان كيدي متين » (٥٠) .

كيف بك اذا وقفت بين يدي الله رب العالمين ؟

فانفتحت منه السلطان ، ولكن أظهر العلم وفؤاده يتقد من شدة الغيظ لما أغلظ عليه كرتباى ، واقام عليه العجب المسكنة التي ليس لها جواب .

ثم قال له : وأما قولك إنك أخذتنى أسيرا فانه كلام باطل ، وانما جاءنى رسولك بكتابك مختوما بختمك ، وهذا هو ، فظننت أنك تقف على قولك ، فما رأيت من ذلك شيئا ، وما ورد من هذا المعنى : « المؤمنون عند أقوالهم وأيضاً المؤمن ان قال صدق ، وان قيل صدق » وقال مولانا عز من قائل : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتם ، ولا تنقضوا الآيمان بعد توكيدها » (٥١) .

فازداد السلطان سليم غيطا ، ولكن أظهر العلم .

(٥٠) سورة القلم ، الآياتان ٤٤ ، ٤٥ .

(٥١) سورة التحل ، الآية ٩١ .

وأما خاير بك فقد طأطأ رأسه ، وصار العرق يقطر
من وجهه .

وبقية الوزراء واقفين حولهم ينظرون ويسمون الكلام
ولا يقدرون على شيء .

ومما ورد في الحديث الشريف أن أربع خصال من
كن فيه فهو منافق : من اذا اؤتمن غدر ، وان عومن نكر ،
واذا خوصم فجر ، اذا قوطع هجر (٥٢) وأنت تزعم أنك
تريد أن تكون خادما للحرمين الشريفين ، وأنك من أهل العدل
والانصاف ، فما رأينا شيئا من ذلك ، واتما رأيناك من أهل
الجور والاعتساف ، يا ويعك ، كيف تنادي للناس بالأمان ،
واذا جاءوك تخوفهم ، ولكن كفاك أن اسمك سليم خان ،
والله قد رأينا في التواريخ ، أن الملوك التي كانت قبلنا من
الأتراء والاكراد - رحمهم الله تعالى - كان النصارى اذا
قالوا لهم قولا وخلفوا لهم عليه ، أو قالوا للنصارى قولًا
وعاهدوهم عليه لا يخلفوهم فيه وهم نصارى ، فكيف بمن
يدعى أنه من الملوك العادلة ، ويريد أن يكون خادما للحرمين
الشريفين ، وهو لا يصدق في قوله ، والكذب شيمة المنافقين ،
فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فلا يغرنك ما أنت
فيه ، وما أصبحت دولتك فيه من الاقبال ، فإنه لا بد لكل
اقبال من ادب ، ولكل جمع من تفريق ، ولكل أجل من
انصرام ، ولكل توفيق من اختلاف ، ولكل فرح من ترح ،
وقد كنا أقوى منكم وأشد بأسا ، وأعظم مراضا .

وانظر كيف فعلت بنا هذه الدنيا الغدارة المكاراة ،
وبعد ما حصل لنا ذلك أنا بينكم واحد بمفردي ، اؤمر

(٥٢) أورد الحديث بالمعنى وليس بنصه .

عسكرك أن يضرروا على يزك (٥٣) ، ويسيروا إلى مائة بمائة ، أو مائتين بمائتين ، أو ألف بalf ، وانظر ما أصنع فيهم .

كل ذلك والسلطان سليم ساكت يسمع قول كرتباى ، وجراءته فى هذا الكلام ، واستحضاره هذه الأوجبة مع أنه متحقق الهلاك ولا معالة .

ثم قال : يا سبب تذمنا فى قولك وتزدرينا وتبينا ، والله لا يهمنا كثرة جموعكم ولا رميكم ببندقكم وأحجاركم ، وانما كان السبب لزوالنا خلف حصل بينا .

فنظر السلطان الى خاير بك ، وأشار اليه بأن يقرب منه حتى يشاوره فى أمر كرتباى الوالى .

فلما وقف قدام الكرسى قال له : ما تقول فى هذا الرجل وجوابه وقوة قلبه ، ان قتل مثل هذا لا يليق ، وأفتخر بمثل هذا فى عسكري ، وأجعله سنجقا (★) .

فاصفر لون خاير بك وقال : يا مولاي ، ان أبقيت عليه وجعلته وزيرا لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ، ويفسد جميع عسكرك .

وما قال ذلك خاير بك الا بفضل فيه وفي آبناء جنسه .

(٥٣) يفتح الزاي هو رئيس العسس ، ولكن المعنى لا يستقيم بذلك .
 ☆) السنجق او السننجق والسننجاق مفرد الصناجق ، كلمة تركية معناها العلم او اللواء ، او تطلق على القسم من الولاية الكبيرة ، ولا يزال مرادها في العربية – وهو اللواء – يطلق على المعنى نفسه في بعض البلاد العربية . والسننجق أيضا هو الحاكم على هذا الجزء من الولاية ، وقد تكون السننجقية مجرد رتبة دون أن يكون حاملها حاكما للسننجقية ، وكان على الصناجق « مال ميرى » يؤدونه للحكومة نظير وظائفهم .

فقال له السلطان : فما الرأى ؟

قال : اضرب عنقه بلا تأخير .

وتأخر خاين بك ، ووقف مكانه ولو نه مصفر متغير .

فعرف الأمير كرتباى أنه حسن له قتله .

فقال الأمير كرتباى للسلطان : إن هذا قائدك إلى جهنم
اصنع ما شئت ، من لم يمت بالسيف مات بغيره .

فعنده ذلك نظر السلطان إليه نظرة الغضب ، وقال له :

ـ أنى أردت أن أعتقك وأفرج عنك ، وأجعلك أميراً
من أمرائي ، فرأيتكم قليل الأدب ، جرىء اللسان ، والذى
يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة .

فقال له كرتباى الوالى : معاذ الله أن أكون من أمرائك
ومن أتباعك ، وأنت بهذه الصفة .

فناهى السلطان بأعلى صوته وقد احمر وجهه من شدة
الفيظ ، وقال : أين الجلاد ؟

فتقدم نحوه مائة وخمسون جلاداً .

قال : اضربوا عنق هذا الملعون الجركسى .

فقال كرتباى : قطع رأسى وحدى لا يفيدك منه شيء ،
فإن ورائي أبطالاً وشجعان ، وكفى بالسلطان طومانباى
ـ نصره الله .

فلما سمع السلطان بذلك أمر بالسياف أن يضرب

عنقه .

فقال له والسياف فوق رأسه : اذا قطعت رأسى خذها
وهي بدمها بيديك واجعلها فى ... امراتك (★) يا خائن ،
يخونك الله .

فضر به السياف ، فطير رأسه قدامه ، وذهب الى حاله .

وأما السلطان طومانبای ، فإنه لما وقعت الكسرة على
الجراكسة كان وعدهم قبل ذلك وقالوا : إن جاءت الكسرة
عليينا يكون ميعادنا بر الجبيزة . فلما كان كذلك عدى إلى بر
الجبيزة وتبعه بعض الجراكسة حتى صار معه ألفاً خيال ،
فيهم كل فارس يقوم بآلف فارس ، إلا أن الكثرة غلت
الشجاعة ، والنار لا يقابلها أحد ، ولو لا النار التي مع
السلطان سليم ما غلبهم في الحرب ولا مرة ، ولكن إذا أراد
الله بأمر يبلغه ، والله في هذه ارادة .

فذهب السلطان طومانبای الى نحو الصعيد ، وقصد
هوارة (٥٤) ، وطلب منهم النصرة ، وأن يرفع عنهم الخراج
ثلاث سنوات . فأبوا .

وقالوا : قد بلغنا أن الروم تقاتل بالنار ، ومن يطيق
النار ؟

(★) مكانة في الأصل اللقب العالمي لعضو التناول عند المرأة ، والحديث بهذا العضو ،
وغير ذلك من الأعضاء من أهم خصائص الاجتماع الملوكي - طبيعة الحديث في مجتمع
الغزاب العبيد .

فانشنتى راجعاً وتبעה من العريان نحو سبعة آلاف فارس
محبة فيه ، فإنه كان ، رحمة الله عليه ، محبوب الصورة لكل
أحد ، ولكن إذا تم الأمر ترقب زواله إذا قيل تم .

فلم ينزل قادماً حتى وصل إلى قرب أطفیح (★) فرأى
قلوعاً بكثرة وهي مقلعة .

فلما عاينها وقف ، وقال : ما أظن إلا أن السلطان
سليم جاءنا أو أرسل لنا جيشاً .

قال : فلما عاينوا بعضهم بعضاً دخلت المراكب البر ،
وطلع منهم من الرماة نحو خمسة آلاف رام بالبندق
والضربات ، ومن المدافع خمسون .

وكان القيم على ذلك رجلاً يسمى جانم السيفي كاشف
الفيوم ، فإنه جاء مع السلطان طومانباي بعد كسرة
الريدانية ، واجتمعوا عند طرا والعدوية ، واتفق رأيهما
بأن يكبسو على السلطان سليم بالجزيرة الوسطانية التي بين
بولاق وقصر ابن العيني .

فلما علم ذلك جانم قال في نفسه : أحق أن أفعل ، أن
أذهب إلى السلطان سليم خان وأخبره بذلك ، وأخذ لي منه
الأمان ، وأكون من حزبه فإن دولتنا قد ولت .

فخرج ليلاً من عسكر السلطان طومانباي هو وأمير آخر
يسمى أبو حمزة ، ومعهم مماليكهم نحو المائتين .

(★) أطفیح بلد من أعمال مركز الصنف محافظة الجيزة ، وكانت من البلاد المهمة ذات التاريخ .

فلمما أصبحوا علموا أن جانما السيفي قد خرج ليلا .
فاستقصوا خبره .

فقال بعض الأجناد للسلطان طومانبای : قد سمعناه
وهو يقول ، إن الذى ي يريد السلام لنفسه يتبع السلطان
سليم ، فان اسمه سليم ، ومن تبعه سلم ، ومن عصاه ندم .

فتقدر السلطان طومانبای ، وقال : سينندم حيث
لا ينفعه الندم ، وهل يرجى من العدو خير ؟ ولكن لا دافع
له فيما قضى . فلما اجتمع جانم السيفي والسلطان سليم
وأخبره أنه جاء راغبا في طاعته وأن طومانبای قد عول على
كبسه في الليلة القابلة أخذوا أهبتهم ، واستيقظوا لأنفسهم .

فجاءت الأخبار لطومانبای بأن جانما السيفي دخل في
طاعة السلطان سليم ، وأخبره أنك ت يريد أن تكبس عليه ،
فأخذوا أهبتهم ، وعبوا النار من كل جهة ، فان فعلت شيئا
من ذلك أهلكت نفسك وأهلكت من معك .

فأعرض عن ذلك ، واقتضي رأيه أن ينزل في الشیخونیة ،
ويحار بهم ، كما تقدم .

ثم انكسر وذهب إلى الجزيرة .

فلما علم السلطان طومانبای أن هذه المراكب ما جاء بها
الا جانم السيفي (غضب) .

فانه لما اجتمع بالسلطان سليم وعرف صدقه وأمانته
كان السلطان كلما يجلس في ديوانه يرسل خلف خاير بك

وجامن هذا ، ويأمرهم بالجلوس بحضرته ، ويستشيرهم بما فيه الصواب ، ويظهر لهم أنه ان تمكّن على ملك مصر يعطي خاير بك باشويته ، الى أن يموت ، اقطاعا ، ويعطى لجامن الفيوم اقطاعا .

ثم قال لهم : قصدى أرسل طومانبای جيشا لعل أن
أظفر به .

فقالوا له : حبا وكرامة ، قل ما شئت فانا لأمرك
طائعون ، ولرأيك سامعون .

فقال : من يكون باشا على العسكر ؟

فقال جامن السيفي : أنا أكفيك ذلك ان شاء الله ،
وأرجوا ألا أرجع برأس طومانبای ، أو أقبض عليه قبضا
باليد ، وآتى لكم به أسيرا .
فشكّره السلطان على ذلك .

فأرسل معه خمسة عشر ألف راكب ، وخمسة آلاف
رامي بندق ، وخمسين ضربات ، وخلع عليه خلعة ،
وخرج خرجة أطبقت الجو حين أقلع ، ورمي الرماة طلقا
أظلم الدنيا .

وأيقنت الناس أن طومانبای لا طاقة له بهذا الجيش ،
وخصوصا جامن السيفي مقدم عليهم .

وكان جامن هذا من الأبطال المشهورة والشجعان
المجنورة .

فلما عاين عسکر طومانبای أمر بدخول المراكب الى البر ، وسبوا طلقا تزلزلت الأرض منه ، وأرسل الى طومانبای يقول له : في غد العرب يبيننا ويبينك .

فقال طومانبای : حبا وكرامة .

ذکر

التقاء طومانبای مع جانم السيفی

قال : فلما أصبح النهار تصافوا للعرب .

فاما العرب التي كانت تجتمع مع طومانبای فانهم لما رأوا هذه النيران قال بعضهم لبعض :

— ومن يطيق هذا الأمر المهلك ؟ لا يقاتل هؤلاء الا مجنون او فارغ من الحياة ، ولكن نحن نرتفع عن هؤلاء الى بعد . فكل منرأينا الكسرة عليه نهياناه .

هذا ما كان من أمر العرب .

وأما السلطان طومانبای فانه ثبت للعرب ، ولم يتأخر من مكانه .

فكان أول من خرج في حومة الميدان جانم السيفي ، ونادى بأعلى صوته : لا يبرز لي الا الأمير طومانبای .

ولعب آندابا في الميدان حتى أدهش الناظرين .
وقوى قلب الروم حين رأوا منه ذلك .

وقالوا : ما يقاوم طومانبای فى الفروسيّة الا هذا
البهلوان ، وصاروا يشكرونـه ..

فلما سمع منهم ذلك زاد فى لعب الأنداب حتى تعجب
الحاضرـون من الروم .

ثم بعد ذلك وقف فى حومة الميدان ، وقال للجرائحة :

ـ أين فرسانكم ، أين شجعانكم ؟

فخرج من بينهم فارس كأنـه الباشق(★) اذا انقضى على
الصيد وقال له :

ـ غرتـك نفسك يا جانـم ، وخنتـ أبناء جنسـك ، فسودـ
الله وجهـك يا خائنـ .

فقال له : بطلـ الكلام ، وابـرـز للضرب بالحسـام .

فقال : اصـبر حتى أـرىـك لـعبـ الأـنـدـابـ .

وكان ذلك الفارس هو الأمير دولـتـبـايـ كـاـشـفـ الـعـيـزةـ .

فلـعبـ فـيـ المـيدـانـ أـنـدـابـاـ فـاقـ عـلـيـهـ .

فتـعـجـبـ الرـوـمـ .

ثم التـحـمـ الـاثـنـانـ فـوـقـ بـيـنـهـماـ مـاـ حـيـرـ النـظـارـ
مـنـ أـوـلـ النـهـارـ إـلـىـ الـفـلـهـرـ .

(★) الباشق : هو المصقر .

فلما أيس جانم من خصمه رمى الرمح وسحب السيف ،
وضرب دولتبای على خوذته (★) فقطعها ، وجرحه جرحا
غير بالغ . فلما ساح دمه عيطة الروم باجمعها ، آفرم ،
آفرم .

فقوى قلب جانم ، وضرب خصمه ضربة أزالـت رمحـه .

قبقى الرمح فى يد دولتبای من غير حربة .

فالقت الركـيز (★★) وحـدـفـه على جـانـمـ فـدـخـلـ الرـكـيزـ
فى جنبـهـ شـبـكـ بـيـنـ أـضـلاـعـهـ ، فـوـقـعـ عنـ جـوـادـهـ ، فـنـزـلـ دولـتبـايـ
ليـقـطـعـ رـأـسـهـ ، فـانـدـنـعـتـ عـلـيـهـ الرـوـمـ بـجـمـلـهـاـ ، فـلـمـ يـتـمـكـنـ منـ
عـدـوـهـ ، فـمـاـ سـاعـهـ إـلـىـ أـنـ تـرـكـهـ ، وـاـنـشـىـ عـلـىـ جـوـادـهـ .

والتطـمـ العـبـشـانـ ، فـلـلـهـ درـ أـلـفـينـ تـقـاتـلـ فـىـ عـشـرـينـ
أـلـفـاـ ، وـتـكـسـرـهـ حـتـىـ أـوـقـفـوـهـمـ فـىـ مـرـاكـبـهـ ! .

وـكـانـ النـهـارـ قـدـ ولـىـ ، فـنـزـلـ عـسـكـرـ الرـوـمـ إـلـىـ المـراكـبـ ،
وـعـدـواـ إـلـىـ ذـلـكـ الـبـرـ الغـرـبـىـ .

وـأـمـاـ السـلـطـانـ طـوـمـانـبـایـ فـانـهـ بـاتـ فـىـ الـبـرـ الغـرـبـىـ .

فلـمـ جـنـقـ اللـلـيـلـ جـلـسـ طـوـمـانـبـایـ ، وـدـعـاـ الـأـمـيرـ شـارـ بـكـ
الـأـعـورـ وـبـقـيـةـ الـأـمـرـاءـ ، وـضـرـبـواـ الـمـشـورـةـ ، فـاقـتـضـىـ الرـأـيـ
أـنـ يـقـتـسـمـواـ إـلـىـ فـرـقـتـيـنـ ، فـرـقـةـ مـعـ الـأـمـيرـ شـارـ بـكـ ، وـفـرـقـةـ مـعـ

(★) الخوذة : غطاء معدني للراس ويلبس في القتال .

(★★) الركـيزـ : الجزء الأـسـفـلـ منـ السـيـفـ .

السلطان طومانبای ، وأن يذهب الأمير شار يك الى بعد ،
ويقف السلطان طومانبای في موضع المعركة ، فان عدى
الأروام وجاءوا لنا أخذناهم مواسطة .

فاتفقوا على ذلك .

وأما العسكر الرومی ، لما أصبحوا قالوا لجاتم :

ـ ما الرأى عندك ؟

قال : تذهب للعرب ، اما بنا واما بهم ، ولا نرجع
عنهم ، ولعلنا نظرر بهم .

فلما رأوا جاتما مصمما على العرب قالوا له :

ـ أنت مجروح ، وليس لك قدرة على العرب .

فقال لهم : أنا واحد وأنتم ألف لا تحتاجون الى
واحد .

وكان المخاطب له أغاة اليكنجريه .

فلما سمعوا منه ذلك قالوا : صدق في قوله .

فعدوا الى البر الغربي وطلعوا الى موضع المعركة .

فرآهم العراكسة ، فبادروهم بالقتال وال الحرب ،
والتعلموا معهم .

فبيتما هم في قوة العرب ، اذا هم بالأمير شار بك الأعور قد دهمهم من خلفهم بعد أن أخذ المراكب التي على الساحل بجملتها ، فما انفلت منه غير مركبين .

وأرسل الجميع مع عشرين جنديا إلى أبوطاق السلطان طومانبای ، وانتطبقت على الروم الفرقتان من الجراكسة ، وهم كل فرقه منهم نحو الثمانية آلاف والروم نحو العشرين ألفا غير العربان ، فما مضى غير ساعة حتى انكسرت الروم وقصدت المراكب ، فلم تجدها ، فانقطعت قلوبهم ، وتبعتهم الجراكسة ، فأفتوهم ، وما نجا منهم سوى جانم وأبي حمنة وأغاة اليكنجرية المسماى بـ اياس أغا ، فانهم لما انهزموا قصدوا المراكب فلم يجدوها فأطلقو عنان خيلهم على شاطئ النيل ، فتبعهم قانصوه ، لكن كان بينه وبينهم مسافة رأى العين ، فلم يدركهم ، فنجوا بأنفسهم فقط ، وجميع ما كان معهم من الضربانات والبنديقيات وألات الحرب وغيرها كله بجملته غنمته الجراكسة .

وأما جانم ورفقته ، فانهم ما زالوا رامحين على شاطئ النيل حتى لحقوا بالمركبين اللذين انفلتا من الأمير شار بك ، فما صدقوا أن ينزلوا فيهما ، وارتخوا في التيار .

فلما رأهم قانصوه العادل قد حلعوا في المركبين آيس منهم ، ورجع متأسفا لكونه لم يبلغهم .

وكان السلطان طومانبای افتقد من قتل من عسكره فوجدهم ألفين وثلاثمائة غير العربان ، وكلهم من البندق .

فلما رجع جانم وأبو حمنة والأغا منهزمين وقتل غالبه عسكره ، وعلم السلطان سليم بذلك كاد أن ينفلق قلبه

من شدة ما حصل له من القهر والغم ، وأرسل خلف خاير بك ،
وقال له :

— قد غررت بنا وأدخلتنا فى بلاد هؤلاء ، ولا أحد
يسهل عليه ترك بلاده ، ولو أن طومانبای أعطانى الخطبة
والسکة باسمى لرجعت منهم الى الشام ، وما كنت دست هذه
الأرض برجلي ، ولا كنت مائلا على دماء رقابهم ولا على
مالهم وأولادهم ، من حين دخلنا أنا كنت أحسب أنهم زمرة
قليلة ، وشرذمة ذليلة ، وانه جمع على رأسه جماعة من يقية
سيوفنا وحصل منه ضرر على عساكرنا ، نحن من الدوحة
المباركة العثمانية ، لا نرحم كبيرا لكبره ، ولا صغيرا لصغره ،
سيوفنا لامعة على رعوس أعدائنا ، فمن طلب حرثنا ندم ،
ومن قصد أماننا سلم ، وأنا الذى هدمت الدولتين فى ركبتين ،
والسلطانين تفتخر بعيوبيتنا ، والرمال تعد ولا تعد كثرة
عساكرنا ، من تقرب اليها شبرا تقربنا اليه ذراعا ، ومن
تقرب اليها ذراعا تقربنا اليه باعا ، وان العرب دأبنا ،
والجهاد صنعتنا ، نحن من الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت
وفرعها فى السماء ، ويوم العرب تمطر من سماء غضينا
حجارة ورصاصا من السماء على أعدائنا ، والذين هم
كأشحاح الفيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فيصبح كل مدفع
من مدافعنا صيحة الرعد وفيه البرق والسحب الثقيل ، وان
هذا المتقلب الجاهل وفرعون الباطل ما هو أكبر من سلطان
الجم ولا من الغوري ، فانهم لم يقدروا أن يقفوا أمامى
يومين كاملين ، فكيف يلم العرب والجراركسه ويعارك مع
عسكري ، ويعمل عليهم حيل اليهود ، وعندي عسكر لا يقف
عليه سلاطين العالم ، اذا عاز لي مثله الى عسكر يفره حكمى
يجيبونه عسكر من دار سلطنتى أولهم يكون فى مصر وآخرهم

يكون في القسطنطينية ، وما مراد هذا الكافر الفاجر هو
وغيره ، والغوري ، وقايتبای كانوا مماليك لنا ، أى شيء
كان لهم نسبة بالسلطنة ، لا تليق السلطنة إلا لنا ، لأن
أجدادنا سلطان ابن سلطان ابن سلطان الى سيدنا نوح عليه
السلام ، وشغلنا الع jihad والقتال للكفار والروافض (٥٥)
وأهل الطغيان والعدوان .

فقال له خاير بك : يا مولانا ، السلطان طومانبای
رجل عاقل ، وأنا أعرف أنه ليس له رغبة أن يكون ملكا
ولا له على السلطنة استحقاق ، وإنما عبدكم الغوري أو صى
جميع أمرائه أنه إذا أصابه شيء لا يسلطون عليهم إلا
طومانبای لما يعلم من عقله ودينه وفروسيته وشجاعته ،
فإنه فريد عصره وبعده شار بك الأعون ، والأمير علان الذي
قد مات ، وجاءني خبره ، أنه جاءته ضربزانة في فخذه
كسرته ، وكرتباي الوالي الذي قطعت رأسه .

فقال له السلطان سليم : أنت أغورتنى وطمكتنى في
أخذ هذا الأقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك ، كيف
تعرف ، والا فهيا برأسك .

واغتاظ السلطان سليم من خاير بك غيظاً عظيماً .

فخرج من عنده ، وهو أعمى أصم ، لا يعلم كيف يصنع .

فلقيه يونس ياشا الوزير الأعظم ، فقال له :

ـ ما خبرك ؟

(٥٥) يشير الى هزيمته لاسعاعيل الصفوی في تشايدیران (جلديران) سنة ١٥١٥ ، والروافض لفظ يطلق على الشيعة .

فأخبره بما قال له السلطان سليم .

فقال الوزير : والله صدق السلطان في قوله ، والله لو سمع قولى لأشعرت عليه بأن ينادى في عسكره بالرحيل ، ونرجع إلى بلادنا وأوطاننا ، وما نعرف كيف صارت أحوال بلادنا من هجوم الكفرة والرفة ، فانك لأجل غرضك وكراهيتك لأبناء جنسك ، جونتنا بين هؤلاء الملاعين ، وأبدتنا عن بلادنا .

فخاف خاير بك على نفسه ، وحسب حساب يونس باشا أن يكرهه ، وربما يتكلم مع السلطان سليم في حق خاير بك ويقتله . فانتهى خاير بك راجعاً إلى خيمة السلطان ، واستأذن فأذن له في الدخول .

فقال له السلطان : ما الذي دبرته من الرأي ؟

قال : فليعلم مولانا السلطان أنني ما جئتكم إلا راغباً في طاعتك ، ومحبة لك ، وأثرتك على جميع أبناء جنسى ، وقد اطلعت على بعض الملاحم فرأيت الرمز تدل على أنك ستملك هذا الأقليم . وتصير سلطان العرمين ، ولكن يا مولانا السلطان ، أريد منك فرد شيء . وهو أنك لا تقبل في حق كلام أحد إلا بما يقتضيه رأيك السديد ، فان اقتضى رأيك أن تقتلنى فافعل ، فقد حللتكم دمى .

فتبعس في وجهه السلطان ، وقال له :

ـ لولا تحققى محبتك ما أطعتك وجئت معك إلى هنا ، ولكن كن بنا في تدبير ما فيه الصلاح .

فقال : والله يا مولانا السلطان لا أبقى ممكنا في
نصرتك ولو بروحى الا فعلته .

فشكراه السلطان على ذلك ، وأمر له بخلعة عظيمة .

فلما رجع من عند السلطان وهو لا يلبس الخلعة وراء
يونس باشا وهو قادم عليه علم أن خاير بك دخل على عقل
السلطان ، ومشى معه على مراده .

فقام له وبجله ظاهرا ، مع الكراهة له باطنا .

فقال له : ما الذي اقتضى رأى الأمير ؟

قال : ما يكون الا خيرا ، وأرجو من الله تعالى أن يمكنا
من طومانبای وناتئ به أسيرا بين يدي السلطان .

فقال له يونس باشا : ان شاء الله تعالى يسعد دولة
سلطاننا .

فلما رجع جانم وأبو حمزة واياس أغاثا الى أوطاق
السلطان سليم تکدر السلطان وندم على ارسال جانم .

ثم انه عمل ديوانا .

فلما حضرته الوزراء والأمراء قال : أين خاير بك ؟

فجاء ووقف بين يدي السلطان ، فقال له :

ـ ما تقول ؟

قال : الأمر أمرك ، ونحن بين يديك مهما أمرتنا به
فعلناه ، ولو كان فيه هلاك أرواحنا .

قال السلطان : إن قلبي حس من الأول أن جانما ليس هو كفوا لطومانبى ، ولكن أنا أريد أن أرسل له كتابا بالأمان مع قاصد عاقل يرد الجواب ، فلعل الله أن يهديه ونبقيه على بلاده ، وأخبره آنى رضيت منه بالاسم فقط ، لأن أصير سلطان البحرين وتصير لي مزية على ملوك الأرض ويجعل الخطبة والسلكة باسمى ، وأعطي له مصر الى أن يموت .

فقال خاير بك : يفعل مولانا السلطان ما يقتضيه رأيه فى ارسال الأولاقى ، ولكن أنا أعرف أنه معاند وجاهل لا يوافق على شيء من ذلك ، وربما يقتل القاصد .

فقال السلطان : اذا لم يوافق والا أنا ألقاه بنفسى والله يؤيد بنصرة من يشاء .

فجند ذلك أرسل قاصدا يسمى مصطفى ، وكان عارفاً عاقلا ، طلق اللسان أدبيا ، وأرسل معه أيضا خمسة نساء ، لأن الطريق كانت مخيفة من العربان .

فلما وصل إلى أبو طاق السلطان طومانبى وكان بالقرب من ناحية منية ابن خصيم (★) ترجل عن فرسه ، ونزل هو وجميع من معه فاستأذن في الاجتماع على السلطان ، فاذن له ، فأوصل المكاتب للسلطان طومانبى فقرأها وأعطها للأمير شار بك .

(★) كذا في الأصل ، والمصواب منية ابن خصيم وهي قرية مشهورة شمال مدينة أسيوط وهي منسوبة إلى الخصيم بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هرون الرشيد . راجع كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك .

فانه قد أرسل لكل أمير كتابا بخصوصه ، يخبرهم بأنه لا حاجة له ببلادهم ، وأنه ما يريد الا الاسم فقط ، وان كل من قابله خلع عليه ، وأعطيه مرسوما بالأمن ، وأنتم على ما أنتم عليه وانتم في آمان الله تعالى . والله يخون الخائن .
وأوثق كلامه بأيمان وأقسام .

فقال السلطان طومانبای : ما تقولون يا أغوات ؟

فقال الأمير شار بك : أما رأيي فقتل هؤلاء الطائفة التي ساقتها الأقدار الالهية علينا ، لنكتفى من شرهم ، وأما أنت ان مالت نفسك الى طاعة عدوك فاعلم أن ما بينك وبين الهاك الا أن تصل اليه ، وتقف بين يديه ، فتصير الأمانة خيانة ، والعزوة اهانة ، وتكون كالذى ألقى بنفسه الى التهلكة وطلب منها السلامة ، ونندم حيث لا تفيد الندامة ، وأما أنا فلا أدخل تحت آمان العدو فى عمرى ولا مرة واحدة :

وذلك لأنى أعرف أن ما آخر كل حياة الا الممات ، وقد جعل الله تعالى لكل شيء ميقاتا ، فان دخلت تحت حلاعته لا يزيد فى عمرى ، لعلمى أنه الموت لا مفر منه ، وأن كل حى لا بد له من الموت .

فاقتضى رأيهم ان يقبضوا على القاصد الذى جامهم ومن معه ، وأن يضرموا رقاب الأولاقية .

فهرب الذين جاءوا معه الى السلطان سليم .

ثم أمر السلطان طومانبای بالمسير الى جهةه ، فلم يزدوا سائرين حتى أشرفوا على يرقة العيش ، فرأوا بها أوطاق

السلطان سليم ، وهم من ذلك البر على بعد ، فوقفوا ينتظرون ويتأملون ويضربون الرأى كيف يصنعون ، وعلموا أن السلطان سليمما إنما خرج إلى بركة الجيش مريدا للحرب ويريد أن يعود إلى بر الجيزة .

في بينما هم واقفون ، إذا بكر دوس من الخيول قادم إليهم ، وإذا به الأمير رزمك الناشف ، فقدم على السلطان طوماني وقبل يديه ، واعتذر له بأنه كان معذوراً بسبب جراحة أصابته يوم الريدانية ، وأخبره قانبردى الغزالى كان رأس الملاحين عليهم حين أخرجوا المدافع ، وأمرهم بزدتهم تحت الرمل ، وكان هذا غاية العاكسنة لهم .

فقال السلطان طوماني ، وابنه أنى عرفت أنه ملاهى علينا من أول مرة لما أرسلته بالجيش ، فقتل أكثره ، وانهزم ، فعلمت أنه بالقصد منه .

وأما السلطان سليم ، فإنه لما جاءه جامن وأبو حمزة منهزمين وأخباره بما جرى لهم ، وأن السلطان طوماني قادم بجامعة التي جمعها فارتاتب السلطان سليم ، فعند ذلك أمر يونس باشا بأن يرسل ويأتى بالأمراء الممسوكون عندهم ، فإنهم كانوا قد نادوا لهم بالأمان .

وكان ذلك مكيدة من خاير بك .

فبقوا كل من يأتיהם بالأمان يحبسونه ويوعدهم خاير بك بأنه اذا تم الأمر للسلطان سليم يطلقهم ويبيقيهم على مراتبهم ومناصبهم التي كانوا عليها ، وباطنه بخلاف ذلك .

فلم جاءت الأخبار للسلطان سليم بأن السلطان طومانبای قتل القاصد الذى أرسله السلطان سليم وجميع من معه اغتاف لذلک غيظاً كبيراً وأرسل أحضر الأمراء المحبوسين بقلعة الجبل من الجراكسة ، وأمر بضرب أعناقهم أجمعين ، وكانوا نحو الستين أميراً ، منهم ما هو أمير مائة مقدم ألف ، ومنهم من هو أميرأربعين ، ومنهم من هو أمير عشرة *

فلم حضروا بين يديه سالم عن صاحبهم ، فأخبروه *

فقال لهم السلطان سليم : لم تركتم ملکكم وجئتم الى عدوكم ؟

قالوا : أثروا خدمتك على طاعته ، واخترنا أن نكون من أجنادك *

فقال : لو كان فيكم خير كان لطومانبای *

فعند ذلك أمر بضرب أعناقهم بين يديه ، وهو ينظر اليهم *

فأول من ضرب عنقه تقطبى نائب القلعة ، ثم أنس باى حاجب الحجاب ثم تنمر الزردكاش ، ثم أركناس أمير سلاح ، ثم الأمير أزبك المكحل صاحب البيت الذى كان فيه المرحوم الأمير عثمان قائم مقام ، ثم الأمير قانصوه الفاجر ، ثم الأمير مغلبى الزردكاش ، ثم الأمير قاينك رأس نوبة ، ثم الأمير ماماى المحتبس وهو صاحب بيت قاضى العسكر ، ثم الأمير يشبك ملوخية ، ثم جانبلاط الأبيج ، وكان قد عمله السلطان طومانبای نائب القلعة ، ثم الأمير خاير بك

الخازن دار ، ثم خاير بك المعمار ، ثم بقيت الأمراء الذين كانوا جاءوا له بالأمان حتى صار الموضع كالمحزرة .

ثم أمر السلطان سليم بالتعديه الى البر الغربي .
فكانت كل تعديه يكون فيها نحو الألفين أو أكثر من الروم .

وأما السلطان طومانباي ، فإنه كان واقفا يترقب نحو ربعة عالية ، وأقام واحدا ينظر له الخبر .

فلما أخبره بأن الروم وصلت الى البر قال في نفسه ،
أحسن ما يكون أن أقطعهم أولا بأول .

فعمد ذلك رمح عليهم رمحه واحدة ، فما شعروا إلا وهو كابس عليهم وأوقع القتل فيهم ، مما وصلت التعديه الثانية إلا وقد أفنى غالب الأولى .

فارتج عسكر السلطان سليم وتشتت أمرهم ، فماتهم من قتل ومنهم من انقلب بهم المراكب بما فيها ، فحصل للسلطان كرب عظيم ، وندم على فعله ذلك ، وقال :

ـ لو أشار على أحد بذلك لقتلته أشد قتلة ، ولكن يهون الله تعالى .

فعمد ذلك أمر لا يعدى أحد ، وأن يضعوا ضرب زانات على شاطئ النيل ويرموا بها على الذى في ذلك البر من الجراكسة .

فرموا عليهم طلقا أودت به الدنيا .

فبينما هم في تلك الحالة وإذا هم بغار قد طار من خلف أظهرهم ، وصيحات وعيطات وخيل قد ملأت الوادي فوقوا ينتظرون ما هذا الأمر .

قلما قربوا منهم وإذا بهم عرب غزاله (٥٦) ، يتقدمهم حماد بن خبير وأخوه سلام ، وكان سلام هذا بطلا لا يطاق ، فبادروا السلطان طومانبای بالسب والشتم والكفر عن محاربة السلطان سليم ، وقالوا له ، إن لم ترجع عن محاربة السلطان سليم والا كنا كلنا عليك ، ونأخذك مواسطة ، ولكن ارجع الى حيث شئت ، واخرج من أرض مصر ، فانكم قد قتلتمنا خلقا كثيرا في أيام ولايتك ، وما مننا من أحد الا وله أحد قد قتلتموه ، اما أخوه ، واما أبوه ، واما قريبه . وقد آزال الله تعالى دولتكم وجاء بهذا الملك العادل .

فقال لهم طومانبای : ستنتظرون أرواحكم بعدنا .
وكف السلطان طومانبای ، وانشى راجعا بعد أن
خادعهم بالكلام .

فلم يقبلوا منه قوله واحدا .

فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، اعلموا يا أغوات أن دولتنا قد زالت ، وآجالنا قد مالت ، وما بقى لنا في هذه الديار نصيب ، ولكن لنا أسوة بمن كان قبلنا ، وانتظروا إلى هذه الحالة ، وما النصر الا من عند الله ، وقرأ قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » (٥٧) فما الرأى عندكم ؟

(٥٦) في حاشية سابقة ان بعض المراجع تشير اليهم بعرب عزاله بالعين غير المعجمة .

(٥٧) آل عمران ، آية ١٦٠ .

قالوا له : الرأى ما تراه ، وها نحن بين يديك ، كل
ما تفعله نحن موافقون لك عليه .

فقال لهم : سيروا بنا الى جهة الهرم .
فساروا .

فيينما هم سايرون واذا بكردوس (٥٨) من الخيل قدموا
عليه ، فأرسل ينظر من هؤلاء ، واذا به الأمير قيت رحبي
الذى كان محبوسا بالاسكندرية وقد كان حبسه السلطان
الغورى ، وكتب على قيده : «مخلد» ، فلما تسلط طومانبای
وحصل له ما حصل تذكر قيت رحبي ، وكان من الفرسان
المجنورة .

فقال : أحق ما يكون أن أرسل فأطلق قيت رحبي ،
وأخلع عليه ليكون لنا عونا على هؤلاء الأعداء .

نكان مجئه في ذلك الوقت .

فقبل يد السلطان طومانبای وتلقته الأمراء ولبسوا
خلعة السلطان ، وسار معهم الى جهة أهرام الجيزة ، وبكوا
بكاء كثيرا ، وحكوا له ما وقع للغورى ، وما جرى لهم من
أوله الى آخره .

فقال لهم : بالله المستعان ، وعليه التكلان ولا حول ولا
قوة الا بالله العلي العظيم ، ولا تستعينوا الا بالله ، وكان من
أهل الرأى والدين ، وكان قارئا كاتبا عارفا بآنداب العرب ،
ولهذا حبسه السلطان الغورى خوفا من أن يدب عليه أمراء .

(٥٨) الكردوس أو الكردوسة ، وجمعها كراديس ، هي الفرقة الحربية الراكبة ،
عاشر ، مرجع سابق ، من ٤٤٢ .

ثم قال الأمير قيت رجبى : يا مولانا السلطان ، اخترت
عندى أن نجعل هذه الواقعة نظما ، ونكتبها على هذا الهرم
ليكون لنا بها الذكر على ممر الدهور والأيام ، وكان بازاء
الأهرام .

فقام السلطان والأمراء الى الهرم الفربين ، فوقفوا عند

قال الناقل : فأخذ وشرع السلطان طومانبای ينشد
والأمير قيت رحبي يسمع ، والأمير شار بك يكتب على الهرم
هذه الأبيات التي جاءت من أحسن المعلقات ، تتضمن جميع
ما جرى لهم من أول العرب إلى آخره نظما حسنا .

وهي هذه الأبيات:

وقبلى ذاب من كثر احتراق
ولا دمعى يفيف من اختناق
وهم فوق هم واشتياق
بمصر ، والعلا والعز راق
ويدر الضد فى درج المذاق
أقاتا الروم من جهة العراق (٦٠)
عظيم الملتقى من المذاق
 مليكا شبه بحر فى اندفاق
 وكان المرج وعدا للقاء
 تولى جيشنا وال الحرب باق
 طريحا والدماء فى الانهار
 وخاير بك المبوطن فى النفاق

^{٥٩}) الماقى هى مجارى الدفع - المعجم الوجيز .

(٦٠) ان صحت نسبة القصيدة لطومانياي ، فهذه العبارة تفيد ان السلطان سليمان كان بالفعل في طريقه الى قارس لحرب الشاه اسماعيل الصفوی ، وما توجه للشام الا نتيجة تصرفات الفورى غير المحسوبة .

الى حلب كخيل في سباق
وزاد الكرب مع ضيق الخناق
رجع لعدونا ييفي شناق
وابرك عاقه كل العرواق
لغزة ثم مصر في لحناق
نسلطن أيكم لعدو واق
براي الفيل علان المواق
عشرة الآلاف فرسان استيق
ولم يعلم بسوء الاختلاق
سلاح الحرب خوفا من دهاق
وقد حازوا البلاد مع الافق
وكان الشر يوم الحرب راق
وزادوا في الخصم وفي الخناق
بحسر مالح في الاندفاق
حسبت الوعد محلول الطلاق
وأشعل بالمشقة والدقاق
 علينا كالسحاب على الشراق
فليس لنا من الأحباب يواق
تموت النساء والقتدار باق
كأسد لا تخاف ولا توافي
 واستقيناهام كأس الرهاق
اتونا كالجبار على انبساط
فخرروا للثرى مذ كنت ساق
بطعن في الصدور وفي الأمامي
اتوا بالصديد من قلب الوطاق
واختار الهزيمة بالتف hac
وكان به المية والفرار
وودعني وداع الانفراق
بدمع لا يمل كما السواعي
وصار الفخذ منه كالنطاق
أبو يس في الشجاع راقى

هما اصل الهزيمة عن حقيق
وسار الجيش من حلب لمصر
وعند حماة خاير بك المخامر
وفي الشام الغزالى كاد كيدا
وساروا بعدها سيرا حيثا
ولما استجمعوا في مصر قالوا
ولو أينما اهل لهذا
وسيرنا الشريعة عظام جيش
وقدمنا على الكل الغزالى
فاختار الهزيمة وهو سال
وجاءتنا رجال الروم مصر
خرجنا بالجموع للتقيهم
وفي خط المدافع قام قومى
وقد جاءت علينا الروم زحفا
وزاد الرمي بالبارود حتى
واطبق كل ناحية وفتح
وقلت لكرتى سای ترى الأعدى
وقلت إلى الفتى علان خفتا
فقسال اليوم تصليها بطنع
وقدمنا بعد ذلك قد حملنا
قتلنا من ملوكهم ثلاثة
ولما قد رأوا ذا الفعل منا
فاستقيناهام كأس المنايا
وبددت القوارس في مجالي
 وعدنا عودة للأسد لما
وقد صبنا الغزالى قد تولى
وفي علان جاءت ضرب زان
فوا أسفنا عليه وقد تولى
تظل العين ياكية عليه
وجاء بركتيه كمثل هذا
كذلك جانبلات غدا طريحا

فلم يوقه بیسوم الحرب واق
فلم یبارزنى وحرر الحرب باقى
بسیقی لورقی سبعا طباق
على وقد نای متى رفاقتی
وحسیت الفتنَا والله باقى
وسرتنا الشرق ، يا یابش الشراق
کبستنا الروم والدیچور باق
بضریات المهددة الرقاد
وفیشَا والعساکر فی محاق
ویرموتوی آسیرا فی وثاق
وكان بنفسه لی خیر واق
وكان له رحیق المسک ساق
وصرت أجد من عظم اشتیاقی
و فوق الألوف معه فی رهاق
واحدز من طبیعت الحماق
كمتل البھر زاید فی تراق
كمتل السُّم لا ینفعه راق
ونحن على المضرة والعناق
عداد الرمل جمعا فی النطاق
حسبت الحشر قام مع التلاقی
وولیتنا جمیعا باتفاق
جمیوع من نسافا فی زعاق
وجاعتنی خوند (٦٢) بثوب طاق
ولیس لنا ثرى فی الحى واق
طویل الناب والمخالب ياق
وفيک اللاحقات مع البواقی
فانا فی مضيق وانفاق

وماما قانصوه امیر قطبا (٦١)
وكم قد رمت قتل سلیمان شاه
واقسم لو أراه غدا قتیلا
ولما ان رأیت الحرب دارت
فولیت الجھود لنجھو مصر
وعند طرا اتانا الجيش جمعا
وعدینا مصر لأجل حرب
قتلنا متمهم جمعا غزيرا
ثلاثین بان القتل قیهم
وقومی قد ارادوا یقدرونی
وشاریک احتمنی عنی بسیف
جزاء الله عنی کل خیر
ورحنا فاقشته (٦٢) ثم عدنا
وجدنا جانما امسی قتیلا
فقتلت لشار بک اذهب سلیمان
فإن اعداعنا جمیع عظیم
فقال اليوم نصلی لیها بطعن
وقاتلنا الجمیوع وقاتلنا
وبعد الظهور جاءتنا جدوش
وزلزلت البیلاد بهم الى أن
فقلت لرفقتي خلوا وقلوا
دخلت البيت تحميہ لقانا
وقاموا فی ضجیع مع نحیب
قالت لی تخلفنا على من
وتھریب من ذئاب وافت لیث
وفيک السابقات لكل خیر
فخلصنا من الأورام یاذا

(٦١) فی سیناء .

(٦٢) مركز طوخ - محافظة القليوبية الان .

(٦٣) لقب یقید الاحترام للنساء والرجال على سواء : لكن السياق هنا یقید أنه یخاطب امراة .

صبوح الخرب باليبيض الرقاق
 على كاس وابريق وساق
 مدامى واصطباحى واعتباقى
 لقد قلت جموعى مع رفاقى
 يقيد الاسر فى ارض العراق
 وبعد سنتين جالما يلاقى
 ويرقى الزوج من بعد انمحاق
 ويرجع رجعة كالسهم فاق
 كرجعة عنتر يوم السباق
 تضج الفرج من الم الفراق
 فراقك عنـنا من المذاق
 ودعتك للذى رفع الطلاق
 كـليل سال من بحر الامانى
 كما قالوا راقا فوق راق
 فولى هاربا دون الزقاق
 تقاد مع الحمولة والنـلاق
 فيـالله ماجد طلق اـنطلاق
 على الجود المضمرة العناق
 واـشكـلـ نـيلـ مصرـ بـانـهـراقـ
 غـزالـهـ قدـ اـتـونـاـ فيـ اـسـتـيقـاقـ
 وـانـ البـغـىـ اـشـامـ الاـخـلـاقـ
 لـقـيـنـاـ قـيـتـ سـيدـ منـ يـلاقـىـ
 كـنـظـمـ الدـرـ فيـ حـسـنـ النـسـاقـ

فقـلتـ لهمـ وـربـ الـبيـتـ اـنـىـ
 اـحـبـ الىـ منـ شـربـ المـلاـهىـ
 وـشـربـ دـمـاـ الفـوارـسـ كـلـ يـوـمـ
 وـاـنـىـ انـ ذـهـبـتـ الىـ اـعـتـذـارـ
 وـعـنـتـ غـابـ عـنـ عـبـلـةـ سـنـيـنـاـ
 وـنـامـ الـزـيـرـ دـهـراـ عـنـ كـلـيـبـ
 وـانـ التـيـلـ يـعـلـوـ بـعـدـ نـقـصـ
 وـانـ الـلـيـثـ يـهـرـبـ مـنـ لـهـبـ
 وـاـنـىـ بـعـرـفـ أـمـضـىـ ثـمـ اـنـىـ
 فـعـادـتـ وـهـىـ نـادـبـةـ يـقـهرـ
 وـقـالـتـ يـاطـوـمـاتـبـاـيـ الـمـفـدىـ
 فـسـافـرـ فـىـ اـمـانـ اللهـ اـنـىـ
 فـرـجـعـتـ الـجـوـادـ وـدـمـعـ عـيـنـىـ
 وـسـافـرـتـ الصـعـيدـ فـحـزـتـ جـيشـاـ
 وـجـانـمـ قـدـ اـنـىـ وـيـداـ بـحـربـ
 وـسـرـتـ لـنـحـوـ مـصـرـ فـىـ جـيـوشـ
 وـرـزـمـكـ قـدـ لـقـانـىـ فـىـ طـرـيقـ
 وـصـبـحـتـ جـيـوشـ الـرـومـ صـبـحاـ
 وـزـدـنـاـ القـتـلـ حـتـىـ كـلـ سـيـيفـيـ
 وـقـدـ رـمـتـ نـعـدـيـ الـبـحـرـ لـكـنـ
 وـرـأـمـواـ حـرـيقـاـ وـيـقـواـ عـلـيـنـاـ
 فـعـدـنـاـ عـنـ قـتـالـ الـرـومـ قـهـراـ
 وـعـلـقـاـ عـلـىـ الـأـهـرـامـ شـعـراـ

قال الراوى :

فاقتضى رأى السلطان طومانبای ومن معه من الامراء
 أن يدخلوا إلى دهشور (★) وينادى في البلاد ، أن
 الخراج (★★) بطال ثلاثة سنتين ، وأنه من أراد القتال

(★) دهشور قرية قديمة من أعمال مركز الجيزة .

(★★) الخراج ضريبة الأطيان والمعنى أنهم معفون من الضرائب مدة ثلاثة سنوات .

ونصرة السلطان طومانبای فليسرع اليها ، وله ما لنا وعليه
ما علينا .

فلما كان كذلك اجتمع لهم عالم عظيم من عرب وفلاحين
وغيرهم .

ثم اقتضى رأيهم أن الأمير شار بك يكون باشا على
عشرة آلاف فارس ، راكب وماش ، الى قتال السلطان سليم
في أي محل صادفه فيه ، وان السلطان طومانبای يستمر في
دهشور حتى يأتيه الخبر من شار بك .

هذا ما كان من أمر هؤلاء .

واما ما كان من أمر السلطان سليم فانه ضاق صدره
وندم على دخوله مصر ، وخشي أن يطغى عليه المطال ،
ويدخل عليه الشتاء ، وينقطع عنه خير بلاده ، وخشي من أمر
النصارى أن يدبوا أمرا في غيبته على أخذ الممالك
الإسلامية ، فاشتغل فكره ، ودخل عليه الوسواس ، فنوى أن
يبطش بغاير بك ، فانه هو الذي حسن اليه التوجه في أخذ
مصر ، وخصوصا وعده السلطان أن يجعله باشا على مصر
إلى أن يموت .

فيبيتمنا هو في هذا التفكير وقد دخل عليه الوزراء
وأخبروه أن بلاد الأطفيء خرجت عن طاعة السلطان
سليم ، وقامت العريان كلها على ساق لنصرة السلطان
طومانبای ، فازداد غما على غمه .

فاقتضى الرأى أن يرسلوا تجريدة تمهد العربان
وتأمرهم بطاعة السلطان سليم ، وأنه ما قصده الا عماره

البلاد ، وأنه لا يحصل منه أذية لأحد من العرب ولا من الفلاحين ، وإن كل من عاند أو خالف ليس له جواب إلا السيف .

فقال السلطان : من يكون سردارا (٦٤) على التجريدة ؟

فقال : كل من اختاره السلطان .

فقال : يكون قانبوري الغزالى ، فإنه يعرف بأمر هذه البلاد وبقتال العربان .

فلما حضر أمره السلطان بذلك .

فأجاب بالسمع والطاعة ، وقال ، أمر العربان هذا أسهل ما يكون ولا يهم مولانا السلطان بشيء من ذلك أبدا .

قال الشيخ أحمد بن زنبل الرمال : إن السبب فى وصول الغزالى إلى طاعة السلطان سليم هو أنه لما عاكس السلطان طومانبای فى أمر الدفاع ، وغطواها بالرماد عناداً وتكبراً منه ومن بعض الأمراء ، فلما حصل ما حصل من الهزيمة فى وقعة الريدانية وانهزم من جملة من انهزم وحسداً منه للسلطان طومانبای ، وكان قصده أن يتسلط .

فلما اقتضى رأى الأمير علان والأمير شار بك الأعور والأمير كرتباى الوالى والأمير قانصوه العادلى والأمير أبرك

(٦٤) السردار أي القائد ، من الفارسية : سر يمعن الرئيس ودار يمعن صاحب .

محمد السعيد سليمان ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

رأس الجلبان وبقية الأمراء والأعيان آن يسلطنا طومانبای
لما يعلمون من فروسيته وشجاعته وديانته وانسانيته
وتواضعه وزهده في الدنيا وعدم الكبر والتجبر ، وليس
يستحق السلطنة الا هو .

فلمَا كَانَ كَذَلِكَ غَلْبَ الْحَسْدِ قَلْبَ قَانْبُرْدِيِ الْغَزَالِيِ
وَالْبَغْضِ لِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ حِيثُ أَنَّهُمْ لَمْ يَؤْهِلُوهُ لِلْسُّلْطَنَةِ وَقَدْمُوا
عَلَيْهِ طُومَانَبَىٰ ، وَكَانَ أَحْقَ بِهَا وَأَهْلَهَا نِسْبَةً إِلَى غَيْرِهِ .

وَالْغَزَالِيُّ أَخْذَ يَعَاكِسَهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ دِبْرُهُ وَيَخْطُطُ عَ
رَأِيهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ . (٢) بَلْ يَنْهَا عَلَيْهِمْ مَا
يَرَوْنَهُ وَيَنْهَا عَلَيْهِمْ مَا يَرَوْنَهُ وَيَنْهَا عَلَيْهِمْ مَا
يَرَوْنَهُ .

فَعْلَمَ السُّلْطَانُ طُومَانَبَىٰ وَالْأَمْيَرُ عَلَانُ أَنَّهُ مَلاَحٌ عَلَيْهِمَا ،
فَأَرَادَ الْأَمْيَرُ عَلَانُ أَنْ يَبْطَشَ بِقَانْبُرْدِيِ الْغَزَالِيِ .

فَقَالَ لِهِ السُّلْطَانُ طُومَانَبَىٰ : لَا تَفْعُلْ .

فَقَالَ لِهِ : أَمَا تَنْظِرُ إِلَى مَعَاكِسَتِهِ لَنَا وَعَنَادِهِ .

قَالَ : أَخْشَى أَنْكَ أَنْ قُتْلَتِهِ رَبِّيَا تَقْعِيْفَ الْفَتْنَةِ فِي عَسْكَرِنَا
وَيَنْخِرِمُ نَظَامُنَا ، وَلَكِنَّ أَصْبَرَ إِلَى ثَانِيَّةِ مَرَّةٍ ، وَمَا يَكُونُ
إِلَّا مَا يَرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ
وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّنَا لَيْسَ لَنَا رَغْبَةٌ فِي قَتْلِ أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا هُؤُلَاءِ
الْقَوْمَ بَغْوَاهُ عَلَيْنَا وَيَرِيدُونَ أَنْ يَأْخُذُوْا بِلَادَنَا وَأَمْوَالَنَا
وَأَوْلَادَنَا ، وَيَهْتَكُوا حَرِيمَنَا ، فَوْجَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَدْفَعَ عَنْ
أَنْفُسِنَا وَعَنْ أَمْوَالِنَا وَأَهْلَنَا وَأَوْلَادِنَا ، دَعْ كُلِّ مَنْ قَدِرَ عَلَى
شَيْءٍ أَنْ يَفْعُلَهُ ، وَاللَّهُ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ .

فقال الأمير علان والأمير شار بك : والله مدام هذه
الخبيث الولد الزنا (٦٥) بيمنا لا يقام لنا نظام أبدا ، ومدام
خاير بك مع عدونا لا يرد الخصم عنا أبدا .

فقال السلطان طومانبای : والله ثم والله ، ليس لي
رغبة في سلطنتي وإنما أنا واحد منكم ، ولو لا أنكم
اخترتموني وألزتموني بذلك ما طاوعتكم في شيء من
ذلك ، ولكن الله التدبير .

فلما انهزم قانبردى الغزالى تبعه اثنا عشر أميرا ،
فصادف منهم الأمير سودون الدوادارى ضرب زان ، أخذ
فخذه فسار معهم إلى قليوب (★) ، وهو بلا فخذ ، فتصفى
دمه ، فمات هناك ودفن بها ، فجاء بعد ذلك على باى وأخرجه
من قبره وحمله إلى مصر ، ودفنه في تربته . وسار الأمير
قانبردى الغزالى ومعه أحد عشر أميرا ، وكان من جملتهم
رزمك الناشف إلى أن وصلوا إلى الأمير أحمد بن بقر (٦٦)،
فخرج إلى لقائهم ورحب بهم ، وآقام بخدمتهم .

وما زالوا عنده والأخبار ترد عليهم .

وشاع ذكر طومانبای وما ظهر منه من الفروسيّة وما
فعله في عسكر السلطان سليم ، ومن قتل منهم ، وكذلك

(٦٥) طبيعة الاجتماع المملوكي (العبيد البيض) يتسم باستخدام الفاظ تشير دائمًا
إلى الأم وتنهمها ربما بما ليس فيها .

(٦٦) بقار .

(★) قليوب مدينة بمحافظة القليوبية شمال القاهرة . وكانت قليوب على الشاطئ
الشرقي للبحر السرديني ، وقد ذكر ابن ابيات أن قليوب كانت ممراً للقاء من يأتي من
القسطنطينية من طرف الملك ، وتعد له فيها المدات الحافظة .

الأمير شار يك الأعور ، والأمير قانصوه العادل وغيرهما من الأعيان الذين تبعوا السلطان طومانبای . فحصل عندهم الفيرة من ذلك .

فإن الجراكسة كانوا قوماً نفوسهم شامخة ، وأعطاهن الله الشجاعة والفروسية ، وكانت هي فخرتهم ، فكان كل منهم تحدثه نفسه إنما يكون السلطان إلا هو ، فلهذا أخذوا عن دايرهم ، فإن أخذ الملك ليس كان عندهم إلا بالشجاعة ، والملك ليس بقوة ، وإنما هو أمر الهي يعطيه الله من يشاء الله من عباده .

ولما ترددت الأخبار بما فعله طومانبای ، صاروا يتعجبون من ذلك ، فإن طومانبای ما كان مشهوراً عندهم إلا بالدين والصلاح ، وكان الذي ينظره بهذه السكينة والوقار لا يشك في صلاحه ، وكان محبوب الصورة عند كل أحد .

فلما صارت منه هذه الشجاعة والفرروسية صاروا يتعجبون ، فقال لهم الأمير رزمك الناشف :

— أنا سمعت قول القائل : الشجاعة صبر ساعة .

فقالوا له : صدقت يا أمير ، لكن من يصبر على ملاقة هذه النيران وضرب الزانات والبنديقات ؟ ولو كانوا مثلنا يقاتلون على ظهور الخيل كان الواحد منا يقاتل منهم مائة ومائتين ، لأنهم ليس عندهم معرفة في ركوب الخيل ، ولا الجولان في الميدان .

فقال الأمير رزمك : الحى ما له قاتل .

وقال في نفسه : ما ثمرة بقائنا في هذا الم Hull وسلطاناً ننا
يقاتل بنفسه والله ليس هذا من المروءة .

ونوى على الذهاب إلى السلطان طومانباي .

وبات ، ما أصبح .

ففتش عليه الفزالي ، فلم يجده ، فعلم أنه سار إلى
السلطان طومانباي ، فخشى أنه إن قام يوما آخر رجعت
بقية الأمراء إلى طومانباي ، وتخبره بمحل الفزالي الذي
هو فيه .

فقال في نفسه ، وتكلم مع الأمراء الذين معه ، وقال
لهم :

— يا أغوات ، اعلموا أن دولتنا قد ولت ، وما بقيت
هذه البلاد إلا لهذا الملك ، والأولى والأحسن أن نذهب إليه
ونأخذ له أمانا ، فإذا صرنا في أمانه أمنا على أنفسنا
وأموالنا وحريمنا ، وأيضا ليس هو مقينا في هذا الأقليل ،
فإنه حيث تمكن من البلاد يأخذها وقتل طومانباي ، وأقام
خاير بك نائبا عنه ، ذهب إلى بلاده ، فإذا ذهب عنا بقيت
البلاد في أيدينا نتصرف فيها كيف نشاء .

قالوا له : ومن أين لنا أنه يعطيانا الأمان ؟

قال لهم : أنا أضمن لكم ذلك ، فان بيني وبين خاير بك
اتفاقا باطنا لا يعلم به أحد إلا أنا وهو .

فبعد ذلك أطاعوه وذهبوا معه إلى أن وصلوا إلى كيمان
الريش ، وأرسل أعلم خاير بك بقدمه .

ففرح خاير بك بذلك فرحا شديدا ، وذهب الى حضرة
السلطان سليم وأخبره بذلك .

ففرح السلطان أيضا فرحا عظيما ، وأرسل له خاير بك
والوزراء وأعيان دولته، فتلقوه ، ودخل من باب القنطرة (★)
في موكب عظيم ، وخلع عليه خلعة عظيمة من أعظم خلع
الملوك ، وقابل السلطان سليم ، ورحب به وأمنه ، وأمن
جميع الأمراء الذين كانوا معه ، وصار معززا مكرما عند
السلطان سليم وعنده عسكره .

ونرجع الى سياق الحديث :

قال : فلما أخبروا السلطان سليم أن العربان قامت
على ساق ، وعصوا وخرجوا عن طاعة السلطان ، اقتضى
رأى السلطان في ارسال تجريدة ، فأرسل الغزالى باشا على
العسكر ، وكان معه خمسمائة فارس من الجراكسة ،
وخمسمائة رامى بندق من اليكنجيرية الى بر الاطفيحية .

فلما وصل الى اطفيح ورأى البلاد كلها قائمة على
ساق ، والعربان مجمعة ، ورأوه ، قصدوه وبادروه بالسب
والشتم ، ثم وقع بينهم الحرب فكانت الكسرة على العرب ^{*}

فانه بادر برمي البندق ، فلم يثبتوا لذلك .

فولوا هاربين ، فتقفارهم ومزقهم كل ممزق وشتتهم ،
وأمر بنهب نجوعهم وحرفهم وأولادهم ، وأرسل جميع ذلك
إلى السلطان سليم ، فأمر ببيعهم في الرميلة .

(★) هو باب الشعرية .

فبيعت النساء والأولاد الأحرار كما يباع الرقيق ،
ولكن بأبخس قيمة ، فصارت الناس كل من كان في قلبه
رحمة يشتري منهم الذي يشتريه ويعتقونهم في الوقت .

ووقع على الفزالي من دعاء العامة ما لا يعصى عددا حتى
دعت عليه اليهود والنصارى .

ولما سمعت العربان بذلك عصت جميرا ، وكذلك
العسير والعوف .

وكان سيدى يحيى ابن الأمير آزبك صاحب بركة
الأزبكية لما كانت وقعة الريدانية ، وانهزمت الجراكسة فر
على ظهر فرسه إلى بلاد بني حرام ، وكان بينه وبينهم
مصادرة ، وتم مقیما عندهم والأخبار تنتقل إليه وتترد عليه
وقلبه مع طومانباى ولكن لا وصول له إليه .

فلما كان كذلك وعصت جميع العربان والبلاد رأى له
طريقا إلى الخروج فصار هو وبنو حرام يخرجون ويدورون
في البلاد والطرق حتى وصلوا إلى باب النصر (★) وباب
الشعرية (★★) ، وكل من وجدوه روميا قتلوه .

فقتل من الأروام خلقا كثيرا خصوصا من الأروام الذين
يسمون عجم أو علان ، فانهم كانوا يدورون ينهبون كل

(★) باب النصر أحد أبواب القاهرة الخمسة : باب النصر ، باب الفتوح ، باب القنطرة (باب الشعرية) ، باب زويلة ، باب الخليج ، ومع هذا قلم تكون القاهرة محاطة بسور حسين ، ولكن المنازل شاهقة . وكل منها أشبه بقلعة .

(★★) باب الشعرية اسم ميدان معروف بالقاهرة ، وكان اسمه قديما باب القنطرة .

ما يجدونه من مأكلي أو غيره ، فكانت التزعر والفلاوية (★) ،
وحسن القتل في ذلك الزمن .

وكان سيدى يحيى ابن الأمير أزبك شجاعاً عظيماً ،
وكان من الفرسان المخبورة حتى أجمعوا الناس على أنه
كان فريد عصره ووحيد دهره في كل فن من فنون العرب ،
وكان فيه محاسن تفوق عن الوصف .

فلما سمع بأن السلطان طومانبای يقاتل السلطان
سلیماً عند المناواة (★☆) ، ورحل عنها إلى دهشور ، وأنه
جعل الأمير شار بك الدودار الكبير مقام نفسه في جميع
أموره ، واشترط على نفسه أن آيده الله تعالى بنصره جعله
ولي السلطنة من بعده لأجل ما نظر من شجاعته وقوته في
العرب .

فبعد ذلك قام سيدى يحيى ابن الأمير أزبك وعزم على
التوجه إلى السلطان طومانبای وعدى من بر الشرق إلى بر
الغرب وتم سائراً وكل من تلقاءه من العربان يتربص به ويفرح
به ، ويلتم اليه (٦٧) ، فإنه كان مشهوراً ومخبورة عندهم
بالفرروسية ، فلا زال سائراً حتى وصل إلى دهشور ، واجتمع
ب السلطان طومانبای ، ففرح به السلطان وسأله عن حاله ،
فأخبره بما فعله هو وبنو حرام من قتل الأروام ، فشكراً
السلطان على ذلك وأمره أن يكون مع الأمير شار بك من
 أصحاب المراتب .

(★) الفلاوية . ويطلق عليهم بعض المؤرخين الفلانية ، وهو أوياش الناس .

(★☆) المناوات . قرية من قرى محافظة الجيزة .

(٦٧) لعلها (ياش يديه) .

قال الرواى : هذا ما كان من أمر هؤلاء ، وأما ما كان من أمر السلطان سليم فإنه لما نظر إلى هذه الأمور المفزعية والأحوال المضطربة خاف على نفسه وضاق صدره من أجل ذلك وتحير في أمره ، فقال لأرباب دولته :

ـ ماذا تقولون في هذه الطائفة القليلة ؟ كلما أقول إن أمورهم هانت فما أراها إلا تزيد في كل يوم ، وقد حصل لنا منهم غاية الضرر .

فقال يونس باشا : والله كان رجوعنا من الشام هو الصواب ، إلا أن خاير بك لما أتاه وعدته بأن يكون ملك مصر مادام حيا صار يدبر في تحصيل مراده ، ولا قدرة له على ذلك ، فهو يحسن لمولانا السلطان العبار ، ويسهل لك الأمور ، ويظهر لك أن ما قصدك إلا أن تكون البلاد ببلادك ، والحال أنه في باطن الأمر إنما يستعين بك على بلوغ مراده ، وهو هناك أبناء جنسه ، واستقلاله هو بالبلاد والملك ، وترجع آنت ومن معك ان سلمنا ، ويستقل هو بالبلاد لنفسه ، وقد طمعت آماله بأنك لا تأخذ منه مالاً أبداً ، فهو مجتهد في ذلك غاية الاجتهاد .

فحصل عند السلطان سليم تغير عظيم على خاير بك حتى أيقنوا أجمعين بأنه لا يبقى عليه أبداً .

وكان يونس باشا الذي هو الوزير الأعظم يكره خاير بك في الباطن لما رأى منه من قلة الخير في حق أبناء جنسه ، وكان ليونس باشا من الأخلاق الحميدة والأوصاف الجميلة ما يفوق الوصف ، وكان يعرف أن خاير بك ما قصده إلا بلوغ مراده ، ولكنه دخل في عقل السلطان سليم وصار يصفى لقوله *

وصار السلطان مستحيراً ان هو قتل خاير بك وهو متوجون في مصر قامت عليه جميع البلاد من الشرق والغرب.

فقال السلطان سليم لأرباب دولته : أنا نحن قد أخذنا أرض هؤلاء القوم ، وسبينا حريمهم وقتلنا أكابرهم ، فماذا نريد بعد هذا ؟ وكفى ما جرى ، وصار الأحسن فيما أرى أن يجعل بيننا وبينهم صلحًا وترك لهم بلادهم .

فأشروا عليه بارسال خوشقدم .

فقال لهم : حبا وكرامة ، ولكن اذا لم يوافقوا على ذلك ، والا كنت أنا أول من يقاتلهم .

ثم خرج من عند السلطان سليم .

فطلبه يونس باشا ، ووصاه بالألا يغلف عليهم في الكلام ، فان الكلام اللين تقبله النفوس .

فلما وصل خوشقدم الى دهشور رأى جيشاً عظيماً وخيلاً كثيرة .

فلما وصل اليه فإذا به بالأمير شار بك ومعه هذه العساكر ، وهو قاصد قتال السلطان سليم .

فلما اجتمع به ووقيت العين في العين قال خوشقدم :

ـ يا معاشر الأمراء والسدات ، انى أريد الأمير شار بك وأتكلم معه أنا وهو فيما يكون فيه الصلاح لنا ولكم .

فتقدم الأمير شار بك وعن يمينه الأمير آبرك رأس الجلبان ، وعن يساره قانصوه العادلى والأمير قلچ ، وحركوا

خيولهم ، وقد خرجن عن قومهم حتى التقوا بالأمير خوشقدم ، وصار بينهم قدر رمرين .

فكان البادى بالسلام الأمير شار بك .

فرد عليه خوشقدم السلام .

فقال الأمير شار بك : ما معك آيها الأمير ؟ وفي أى شئ جئت ؟

قال : جئت فى الصلح بينكم وبين هذا الملك الذى هو سليم شاه الذى هو أعظم ملوك الأرض ، ولست أرى لكم أن تعادوه ، والرأى عندى أن تدخلوا تحت طاعته أحسن من أن تصيروا فى قبضته وتذوقوا بين يديه العذاب ، ويقطع منكم الرقاب ، لأنه أرحم عليكم وأنتم أرحم على أرواحكم وأرقابكم وأولادكم ونسائكم وعيالكم ، فكفوا شره عنكم .

فقال الأمير شار بك : أما أنت فأمرك أمر عجيب .

فقال : لماذا ؟

قال : لأنك كنت تقول قبل هذا الملك ، الذى يقول انه أعظم ملوك الأرض ، ان جاء من الروم الى أرضنا أول من يقاتلها أنا ، وأكون فداء لأبناء جنسى جميرا ، فلما ذهبنا الى شرق أطفیح ، ورجعنا الى حرب عدونا وضررتنا الرأى أن نكبس عليهم ليلا فهربت أنت منا ورجعت الى عدونا الذى كنت تقول انه أول من يقاتلها ، وأخبرته بما دبرنا ، وأطلعته على ما أضمنناه ، فلا أدرى أفعلت ذلك من جبن فى قلبك أو خلل فى عقلك ، وأعجب من هذا أنه جئت اليوم تزعم أنه تريد الصلح فلا تدرى أخصم أنت أم حكم ؟

فقال له خوشقدم : صحيح أنى فعلت ذلك ، وما فعلته (ليس) جبنا من الحرب ولا خوفا من الطعن والضرب ، وإنما فعلت ذلك لما انى رأيتك صرت دوادارا كبيرا ، وتعالىت علينا هذا الملو الزائد كرهنا أن تكون تحت أمرك ، وأن ننقاد لقولك وفعلك .

فقال له الأمير شار بك — من حسن عقله وحلاؤه لسانه وطول روحه وأدبه في جوابه :

— والله يا أمير خوشقدم لو أخذت أنت هذه الوظيفة التي حسدتنى عليها لكنت أول من يخدمك فيها ، ويقوم بعوانجك .

فقال له خوشقدم بعد أن خجل منه واستعيا (٦٨) :

— والله اتنا كنا حسدناك عليها ، ولكن لما سمعنا عنك ما لم نصدقه من الشجاعة والفروسيّة ، ورأينا ذلك عيانا قلنا والله انه أحق بها وأهلها ، ولو لا أن السلطان طومانبى يعلم منه أنه يستحق ذلك ما أعطاوه له ، ولكن هذا قلچ ، من آين حتى يكون في مرتبة كرتباى الوالى .

فلما سمع الأمير قلچ منه هذا الكلام ما ساعده عقله أن يسكت عن الجواب .

فقال له : والله لو علم الله فيك خيرا أعطاك أعلى مما ولكن الله تعالى علم أنك رجل خائن خارج عن حدك مارق عن أبناء جنسك .

فَلَمَّا سَمِعْ خُوشَقْدَمْ ذَلِكَ الْكَلَامَ انْعَرَفَ مِنْازِجَهُ ، وَكَانَ عِنْدَهُ طِيشَانَ عَقْلَ ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ الْحَدَّةُ ، فَتَلَثَ قَنْطَارِيَّتِهِ وَطَعَنَ الْأَمِيرَ قَلْعَ طَعْنَةً بِقُوَّةِ عَزْمِهِ يَرِيدُ بِهَا هَلاَكَهُ ، فَأَخْلَى عَنْهَا بِمَعْرِفَتِهِ ، فَرَاحَتْ فِي الْبَطَالِ ، وَمِنْ شَدَّةِ الطَّعْنَةِ كَادَ أَنْ يَسْقُطَ خُوشَقْدَمْ عَنْ جَوَادِهِ .

فَلَمَّا عَاهَنَ ذَلِكَ الْأَمِيرَ شَارِبَكَ خَرَجَ مِنْهُ الْحَدَّةُ ، وَكَانَ فِي يَدِهِ طَبَرَ جَنَاحَ (★) ، مَكْتُوبٌ عَلَى ظَهُورِهِ بِالذَّهَبِ ، هَذَا دَلِيلُ لِنَهَبِ الْأَرْوَاحِ ، فَضَرَبَ بِهِ خُوشَقْدَمْ عَلَى قَنْطَارِيَّتِهِ ، فَأَبْرَاهَا كَمَا تَبَرَى الْقَلْمَ .

فَلَمَّا سَقَطَتْ قَنْطَارِيَّتِهِ مِنْ يَدِهِ جَذَبَ سِيفَهُ وَقَصَدَ الْأَمِيرَ شَارِبَكَ ، فَضَرَبَهُ ضَرَبةً ثَانِيَّةً بِالْطَّبَرِ عَلَى خُوذَتِهِ فَقَطَعْهَا وَجَرَحَ رَأْسَهُ جَرْحًا عَظِيمًا .

فَلَمَّا رَأَى الدَّمَ عَلَى وَجْهِهِ وَلِي هَارِبًا .
فَلَمَّا رَأَوْهُ أَتَبَاعِهِ (٦٩) وَلِي هَارِبًا وَالدَّمَ يَقْطَرُ مِنْ لَحِيَتِهِ وَلَوْا وَتَبَعَوْهُ مِنْهُمْ مِنْ .

فَتَبَعَهُمْ شَارِبَكَ قَدْرَ مِيلٍ ، وَرَجَعَ عَنْهُمْ ، فَمَا سَلَمَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ .

فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى أَوْطَاقِ السُّلْطَانِ سَلِيمَ وَشَاعَ الْغَبْرُ بِأَنَّ خُوشَقْدَمْ مَنْهُزٌ ، وَلِي مَجْرُوحًا ، وَوَصَلَ الْغَبْرُ إِلَى السُّلْطَانِ سَلِيمَ اغْتَاظَ غَيْظًا عَظِيمًا .

(★) طَبَرَ جَنَاحَ اللَّهِ مِنَ الْأَلَّاتِ الْحَرْبِ .

(٦٩) الْمَقْصُودُ فَلَمَّا رَأَهُ أَتَبَاعِهِ . لَكِنَّ اسْتِخْدَامَ الْفَعْلِ فِي صِيَغَةِ الْجَمْعِ مُتَبَعٌ بِفَاعْلِ جَمْعٍ ، صِيَغَةٌ صَحِيقَةٌ لِغَوْيَا رَغْمَ نَذْرِتِهَا .

فأمر باحضار خاير بك ، فقال له : انى أريد الرجوع
إلى دار سلطنتى ، لأن الأعادى فى حوالى مملكتى ، وقد قرب
الشتاء واشتد الغلاء ، وأترك هذا الغراب لأهله .

فلما سمع خاير بك ذلك عسر عليه هذا الأمر وقال :

— يا مولانا السلطان ، ان فعلت هذا سقطت من آعين
الملوك ، ويقولون هرب من العراكس ، ولكن الصبر عاقبته
الفرج ، ومن تأنى نال ما تمنى .

فعنده ذلك أمر باحضار من كان مع خوشقدم من
الأروام وقال :

— لا تأتوني بجركى آبدا ، ولا تروني أحدا منهم ،
وكل من يجيب أسارى يجيئهم قدام الخيمة ويقوم
المشاعلية(★) يقطعون رؤوسهم ، وكل من يجيب رأسا يؤديه
إلى الوزير الأعظم .

فلما وقف كبارهم بين يدى السلطان قال له :

— ما اجتمعتم ببطومانبای ؟

قال : لا والله ما اجتمعنا به ، وانما وجدنا شار بك
وهو سائر إلى جهتنا وقادتنا .

قال السلطان : فيكم فارس يكون ؟

(★) المشاعلية هم المخلفون بتنفيذ أحكام الوالي . وكان عملهم في الأصل السير
أمام الوالي بالمشاعل .

قال : معه القا ، فارس من مدرع ولا يلبس وفي الحديد
غاطس ، وهو أملأهم يقول في نفسه ، انه يقدر أن يفتح
بهم الأرض شرقاً وغرباً .

فقال له السلطان : أنت نظرت شار بك الأعور .

قال : نعم وقربت منه حتى نظرت في وجهه .

فقال له السلطان : صفت في صفتة ، فانهم وصفوه
عندى مراراً كثيرة .

قال : ليس هو طويلاً ولا قصيراً ، وانما هو شرطة
الناس ، وليس هو سميناً ولا رقيقاً الا أن قوائمه كقوائم
البعير ، أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعاه ، حنطي
اللون ، عربي الوجه ، وليس هو أعور كما يقولون وكما
يسمونه بالأعور ، ولا به حول ، وانما اذا مال بعينه الى
حاجب يكون أحد بياضها أزيد من سوادها .

فلما سمع منه السلطان هذا الكلام قال له : صدقت .

ثم قال له : وهل طال الكلام بينكمما حتى تمكنت أنت
من النظر اليه ؟

قال : نعم ، حتى انى سالت من جماعة خوشقدم عنه ،
فقالوا اننا رأيناها بأعيننا وهو يمسك الفحل الجاموس من
قرنه ويجدبه فيقلعه من مكانه ، ويلسوى قرونها بيديه ،
فيقلبه على جنبه ، والناس ينظرون اليه .

قال له : صدقت ، انى سمعت عنه ذلك ، ولكن اذا نزل
القضاء عمى البصر ، فلا تفيد الشجاعة ، فسوف ترى انى

ساقبض عليه ، وأقطع رأسه وانت تنظر اليه ، فان دولتهم قد انعكس طالعها .

ثم ان السلطان ألقى كليته الى العرب وأمر أن تمسك جميع المراكب ، ويجعلوها صفا واحدا من بن مصر (٧٠) الى بن الجيزة وأن تربط في بعضها باحكام واتقان .

وأمر أن تعدد العساكر على المراكب .

ففعلوا كما أمر .

وأخذ معه نحو أربعين ألف خيال ومثلهم مشاة غير أتباعهم ، ولكنهم نقاوة النقاوة من شجعان عسكره ، وطلب قتال الأمير طومانبای .

وترك في مصر الوزير يونس باشا وبقية العساكر وأوصاهم بحفظ البلد ، وأخذ معه خاير بك نائب حلب ، وأوصى الوزير الذي هو يونس باشا أنه اذا جاءه الغزالى يرسله اليه .

فأمر الوزير من وقته و ساعته بكتابة مرسوم الى قانبردى الغزالى يأمره بأن يعود من الشرق الى بن الصعيد ، وان السلطان سليمما ي يريد قتال السلطان طومانبای ، وهو مجد له في الطلب ، وأنت اذا وصلت اليك تلك المكاتبة تكون على آهبة حتى تجتمع بالسلطان سليم وتكون أنت وهو على طومانبای حينما يكون وحيث ذهب .

ذكـر

تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة

قال : فلما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة ومعه
سيدي محمد ابن المرحوم السلطان الغوري ، وكان سيدي
محمد قد قابل السلطان سليما في أول دخوله مصر على يد
أخى جلبى وقاضى العسكر محمد أفندي بحکم وعهد كتبه
له السلطان سليم ، وحلف له أيضا أنه لا يضره بوجه من
الوجوه أبدا .

ولما قابله كرمه السلطان غاية الاكرام ، وخلع عليه
خلمة تليق بالملوك وزاد فى اكرامه حتى اطمأن اليه ، وصار
يأخذه معه في كل بلد ومحل يذهب اليه .

ولما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة كما تقدم ، صار
يسير بهم على الراحة لأجل ما معهم ، من المدافع والقربيات
والاحجار والأثقال .

قال الرواى : هذا ما كان من أمر السلطان سليم وسيره
بالعساكر .

وأما ما كان من أمر شار بك ، فإنه سار بمن معه حتى
وصل الى بر الجيزة وعن يمينه الأمير قانصوه العادلى وسيدي
يعينى ابن الأمير أزبك والأمير دولتباى كاشف الجيزة والأمير
بارديك ، وعن يساره الأمير أبرك رأس الجبلان والأمير تنمر
الزردكاش نائب الاسكندرية والأمير دولتباى الكبير كاشف
الصعيد ، والأمير قلچ صديق الأمير شار بك ، وهم سائرون .

فقال الأمير شار بك : والله يا اخوانى أغلن ، والله أعلم أن فى هذا اليوم تقع لنا مضائقه من قبل عدونا ، فان قلبي قد جربته ما حدثنى بشئ إلا وقد صادف الصحة ، ولكن قال العارفون ، من ثبت ثبت ، والشجاعة صبر ساعة .

في بينما هم فى هذا الكلام إلا وقد ظهر على بعد جيش عظيم والسنافق والأعلام .

فقال لهم الأمير شار بك :رأيتم ما قلت لكم ؟ ولكن تأهبوا وقفوا مكانكم .
وأما السلطان سليم فإنه لما عاينهم عرفهم ، فإنه قد جاء له بدوى من عرب الفيوم ، وأخبره بأن شار بك الأعور قادم عليك ومعه ألفان من خيار عسکر طومانبای ، كل واحد في نفسه يقول ، انه يلقات بمفرده .

فبعد ذلك أمر السلطان سليم الرماة أن يبدعوا بالرمى .

ولما تقارب الجمعان ، حمل الأمير شار بك عليهم حملة واحدة ، وركس عليهم .

فلما عاينوا ذلك رموا عليهم طلقا من البندق والمدافع والملكيات والسبقيات (★) حتى أودت الدنيا وتزلزلت تلك الصحراء ، ولا بقى أحد ينظر أحدا ، فهلك من هلك ، وهرب من هرب ، وثبت من ثبته الله ، ولكن الأمراء الذين تقدم ذكرهم لم يهلك منهم أحد ، ولم يهرب منهم أحد ، بل توكلوا

(★) المكفيات والسبقيات ، آلات من آلات الحرب وقد استعملها الروم في حروبهم مع المعاليك ، وما كان للمعاليك عهد بهما من قبل .

على مولاهم وأسلموا أمرهم اليه ، وحطروا أيديهم في الروم ، وقاتلوا قتال من يأس (٧١) من الحياة .

وقاتل الأمير شار بك قتال الجبارية ، فما مضى من
النهار قدر نصفه الا وقد تقهقرت الروم الى ورائهم ،
ورأوا من الأمير شار بك ما لا يروننه من أحد غربه .

فبعد ذلك أمر السلطان سليم عسكره أن يتفرقوا (٢٢) عليه من كل جانب فصار كل من قرب منه هلك لوقته ، فلم يقدر واحد منهم أن يضر به ضربة لا بسيط ولا يعود ، وصار يصرخ فيهم ، ويقول : خلوا عن الحرب يا علوج (٧٣) الروم وارجعوا الى شوربتكم وبوطلتكم . ثم كلهم بكلام فاحش ، ذكره العاج فارس ، وهو غلامه الذى كان من وراء ظهره بالجنوب (٧٤) .

قال : وقد استقل الروم حتى عجزوا عنه بجملتهم وأيسروا منه ولم يبق أحد منهم يقربه ، فانه كل من قاربه

• (٧٨) المصحح : ينس .

^{٧٢} المقصود : يتحلقوا .

(٧٣) العلوج ، والمفرد علچ ، كلمة تطلق على من تحول للإسلام ولم يحسن اسلامه . وقد كثرت طائفة العلوج هذه في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكان غالب العلوج من السواحل الأوروبية للبحر المتوسط ، والتحقوا بالجدرية الفثمانية طلباً للربح وطمعاً في الغنائم خاصة النساء حركة الجهاد البحري التي شاركت فيها الدولة العثمانية المسلمين المطرودين من الأنجلترا ، وبيرير الشمال الأفريقي ، وقد ابتدأ العلوج بساله - في بعض الأحيان - في هذه الحروب ، ولما كانت الدولة العثمانية دولة حربية في الأساس ، فقد وصل فيها العلوج لمناصب مهمة خاصة في مصر ، ومما يذكر أن دولة العمالق (السلطنة) كانت أيضاً تستخدم العلوج خاصة في حكم بعض المناطق الساحلية ، بل لقد احتفظ بعض العلوج Ilijis بدينهم ولم يدخلوا في الإسلام إلا في وقت لاحق ، والمعنى المقصود في اعبارة أن الروم (العثمانيين) لم يحسن اسلامهم . عن العلوج مجتمعهم راجع أيضاً مقدمة ترجمة كتاب ميكيل وتنر: المجتمع المصري تحت حكم العثمانيين (المطبعة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الآلف كتاب) .

٧٤) الحسان الاحتياطي .

هلك ، وهو ينادى ويقول : أين أنتم يا سليم ؟ يا من ي يريد
أن يكون سيد الملوك والسلطانين ، ابوز الى الميدان ان كنت
سلطان ، آه يا جبان يا ابن العجان ، يا من يقاتل المسلمين
بالنيران .

ثم التفت عن يساره فوجد كرداوسا من الروم نحو
اللآلئ وأكثر قد أحاطوا بالأمير دولتبای کاشف الجیزة ،
فمال عليهم ميلة منكرة ، فما شعر الروم الا وهو حاطم عليهم
حطمة الأسد الفضیان .

فانه لما راح السلطان الغورى بهؤلاء الأمراء والعساكر
إلى مرج دابق كانت عسكرة من جلجلية إلى لولجن ، ولم
يكن أحد يقول ان هذا العسكر ينكسر أبدا ولو اجتمع عليه
أهل الدنيا ، فإنه كان كل واحد من هؤلاء الأمراء يقول في
نفسه ، انه مقوم بجيشه وحده ، ولكن لما اختلفت كلمتهم
و قامت النفوس بعضها من بعض ، ولا حوا على بعضهم ،
كسرموا بعضهم جبرا ، وكسرموا ملوكهم قهرا .

فلما التحم العرب مع السلطان سليم لم يصبروا غير
ساعة وهي من طلوع الشمس إلى وقت الفدأة ، وكانت
الكسرة عليهم .

قال الراوى : وما زال الأمير شار بك كلما سمع
الجاويشية يصيحون على الطوائف ويعرضونهم على العرب
فيعيدونها ، فيحمل بنفسه عليهم حتى ، ويقول ان هؤلاء
أحق بالقتل من غيرهم ، فإنهم يأمرتون الناس بقتل بعضهم
ويعرضونهم على ذلك ، وهم لا يقاتلون شيئا ، بل يكرون
العائمه ، ويجهرون بالأصوات .

ثم عمد الى ناحية من الجاوشية وقاتل قتالا لا يدخل
تحت الحصر حتى صارت الرجال مطروحة راقا فوق راق .

وأما باقى الامراء من الملاكسة ، فان كل أمير منهم كسر
من بين يديه من العساكر ، ولكن ما ولت الروم كل الهرب ،
وانما تقهقرت مواكبهم وتتحت كتابتهم وعجزوا العجز
العظيم ، وذاقوا البلاء العميم لأنهم فى طول عمرهم ما قاسوا
قتالا مثل هذا اليوم .

وكان السلطان سليم يتاؤه ويتحسر ويترقب ويتضجر
ويقول : ما كنت أظن أن أقاسي من أحد مثل ما قاسيت فى
يومى هذا ، ولا كنت أقول انى بهذه العشرة آلاف فارس
وراجل التى هى خيار قومى ، ويتبعها أكثر من عشرين ألفا
القى فى هذا الأعور الذى هو فى أقل من خمسمائة فارس
ما لقيت منه ، ويفنى أكثر عسكري .

فقال له خاير بك : والله يا مولانا السلطان كذلك أنا
أقول ، ما كنت أظن أن شار بك بهذه الصفة ، ولا كنا نعتبره
أين الفرسان ، ولكن ابرز أنت بنفسك الى العسكر ،
وازجرهم وأمرهم بالحملة ، لعل النصر يكون لك .

فعنده ذلك خرج السلطان سليم على عساكره وصاح فى
وجوه أكابرهم : العرب .. العرب .. ما هذه الفترات ؟
أين تذهبون ؟ وإلى أى أرض تهربون ؟

ثم انه صار يوعدهم بالترقى والعطاء الجزيل ، ويقول
لهم : انظروا لهم ، فإنه ما بقى منهم الا الخمسمائة فارس ،
انزلوا عليهم بجمعكم ، وابطشوا عليهم بقوتكم ولا تبقوا

مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ ، وَاقْطَعُوهُمْ إِلَى أَبْدِ الْأَبْدِ وَأَسْرَعُوهُمْ فِي
الْعَرْكَاتِ .

فَلَمَّا تَكَلَّمَ السُّلْطَانُ سَلِيمُ بِهَذِهِ الْكَلْمَاتِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ
أَكَابِرِ دُولَتِهِ ، خَرَجُوا مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ
وَصَاحُوا عَلَى الطَّوَافَاتِ الْمُجَتَمِعَةِ وَحَمَلُ كُلَّ صَفٍّ مِنْ نَاحِيَةِ ،
وَكَانَتِ الْجَرَاكَسَةُ قَدْ أَيْقَنُوا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، وَمَا دَرُوا أَنْ
فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ وَالْبَلَاءُ الْمُنْتَظَرُ ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ
الْقَضَاءُ عَمِيَ الْبَصَرُ .

وَمَا بَقَى مَعَ الْأَمِيرِ شَارِبَكَ إِلَّا نَحْوُ خَمْسِيَّةِ فَارِسٍ مِنَ
الْأَلْفِينِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ ، وَأَمَّا الْبَقِيَّةِ فَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَمِنْهُمْ
مَنْ هَرَبَ ، وَلَكِنْ لَمْ يَهْرُبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ مِنْ ضُرُبِ سَيْفٍ وَلَا عُودٍ ،
وَلَكِنْ انْتَهَا هَرَبُوا مِنَ النَّارِ وَمِنَ الْبَنْدَقِ وَالضَّرَابِزَانَاتِ ،
وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قُتِلُوا ، لَمْ يَقْتَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالسَّيْفِ إِلَّا الْقَلِيلُ
جَدًا ، وَانْتَهَا قُتِلُوا بِالْبَنْدَقِ وَالنَّارِ .

وَلَمَّا كَانُوا هَزَمُوا الرُّومَ وَوَقَفُوا حَوْلَ الْأَمِيرِ شَارِبَكَ وَهُوَ
بَيْنَهُمْ كَالْأَسْدِ ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يَدْعُونَ لَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْبَلُ يَدِيهِ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْبَلُ رِجْلِيهِ لَمَّا رَأُوا مِنْهُ مِنَ الشَّجَاعَةِ التَّيْ لَا تَسْمَعُ
إِلَّا عَنْ عَنْتَرَةِ بْنِ شَدَادٍ ، فَصَارَ يَسْأَلُ عَنِ الْأَمْرَاءِ وَيَتَفَقَّدُهُمْ
وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، فَمَا وَجَدَ وَاحِدًا مِنْهُمْ قُتُلَ وَلَا جَرَحَ ،
فَفَرَحَ بِذَلِكَ .

وَانْتَهَا الَّذِينَ قُتِلُوا وَالَّذِينَ هَرَبُوا كُلَّهُمْ مَمَالِيكٍ وَأَتَبَاعَ ،
وَأَمَّا الرُّؤُوسُ الْأَعْيَانُ مِثْلُ الْأَمِيرِ قَانْصُوهُ الْعَادِلِيِّ وَالْأَمِيرِ
يَحْيَى بْنِ أَزِبَكَ وَالْأَمِيرِ قَانْصُوهُ كَرْتَ وَالْأَمِيرِ أَبِرَكَ رَأْسِ
الْجَلْبَانِ وَالْأَمِيرِ دُولَتَبَايِ كَاشْفُ الْجِيزَةِ وَالْأَمِيرِ دُولَتَبَايِ

كاشفه مingleton ، وكان صديقه قلچ عن يساره ويتحدث معه حتى مر على الأمراء المذكورين جميعا ، وهو يتقددهم هل جرح منهم أحد ، فوجدهم كلهم طيبين .

فقال لهم : الشجاعة صبر ساعة ، انتظروا لما صبرتم كيف ظفرتم ، وأيدكم ربكم ، فثبتوا نفوسكم حتى يتم الأمر لكم ، ومن تعب منكم يقف في مكانه ولا يولي دبره فيكسر قلب أصحابه ، ويطمع الأعداء فينا ، وكلما كنتم حزمة واحدة كنتم أنتم الغالبين .

فقالوا : والله يا أمير ، ليس منا أحد يهرب لا من طعن ولا من ضرب ، فإن هؤلاء القوم قد عرفناهم ، ليسوا بأفرس منا ولا أشجع منا حتى نهايهم ، وإنما ضرورتنا (٧٥) من هذه النار ، وهذا البندق والرصاص ، ومن هذه الضراحات التي لو رموها على الجبال لازالتها .

قال لهم : لا اعتبار بشيء من هذا مطلقا ، والحي ما له قاتل ، والانسان اذا فرغ أجله مات وهو على فراشه ، وقد قال مولانا سبعانه تعالى : « لكل أجل كتاب » فلا يزيد العمر بالهرب ، ولا بالثبات ينقص عمر ، يومك يومك ، طيبوا نفوسكم ولا تجبنوا فإن الله تعالى يكره العجبان ، واعلموا انكم ما تقاتلون الا عن حريمكم وأولادكم وأموالكم وببلادكم ، فمن قتل منكم مات شهيدا ، ومن عاش منكم عاش سعيدا ، وأما هؤلاء فانهم ياغون عليكم ، والباغي له مصرع .

وبينما هم في هذا الكلام وظنوا أن الروم قد بطلت همتهم عن الحرب فإذا بهم قد أقبلوا عليهم زحفا مثل قطع الفمام ، فصاح عليهم الأمير شار بك : العملة ، أسرعوا يا كرام غير لثام .

فكان هو أول من حمل بعد ما فرغ من الكلام ، ونطع الجيش بصدره كأنه الليث الضراغم ، فرمي عسکر الروم أول طلق والثانى والثالث بالبندق والضرازيات حتى صارت البندق والأحجار نازلة كالطار المدرار ، والجراكسة قد التحموا في الروم حتى صار بينهم حملات ومحاربات ومصادمات ومهاجمات ومضائقات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وصار لهم وقع بالسيف والدبابيس على الأبدان كوقع مطارق العداد على السندان ، أو كوقع حوافر الخيل على العجر الصوان . وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعة الأذهان ، وكان لهم يوم مشهود لم ير مثله في قديم الزمان .

وكان الأمير شار بك قتاله في هذا اليوم قتال من استقتل ، كالليث الفضنفر ان مال على جماعة طحنها أو على طائفة مزقها ، وفي يده سيف يقطع به الأعمار قطعا ، ويصدع الأكباد صدعا ، فلم يكن الا شيء قليل حتى انطفت جمرة الروم وخمدت وكلت حرकاتهم وجمدت ، ورد جموعهم الأمير شار بك قهرا وزجرا بحد سيفه .

فتراجعت مواكب الروم بين يديه الى الهروب ، وقالوا : ان هذا البطل ما له من البشر مطيق ولا يليق لأحد أن يقاتل هذا السبع الغضنفر . فلله دره من بطل الأبطال وهازم الأقىال ، حتى صار بعض أكابر الروم يدعون له كما

يدعون لأنفسهم مما رأوا من شجاعته وفروسيته ، وعلموا أنهم لا يقاومونه لا في ركوب الخيل ولا في ضرب السيف ولا في رمي السهام ، وإنما عمدتهم على رمي البندق والضرايزيات وألات النار .

قال أكابرهم ، بعضهم نبعض ، إن القتال مع هؤلاء الأبطال في الفارغ البطال ، فتقهقرت الروم إلى ورائهم ، فلا زالوا حتى وصلوا إلى النيل السعيد ، وقصدوا انقضاض العرب .

فهم في هذه الحالة وإذا بغيار قد ثار حتى سد الأقطار ، فوقفت الروم تنظر الغبر ، ووقف الأمير شاربك أيضا ، هو ومن معه من الجراكسة ينظرون وقد بقوا فئة قليلة ، ولكن كل واحد منهم مقوم باللوف ، ولو لا النار التي مع الروم لكانوا أفنواهم عن آخرهم .

فلما قرب الغبار ظهر من تحته خيل تركض الأرض ركضا فقال لهم الأمير شاربك : لا يخلو هذا الجيش القادم من أن يكون السلطان طومانبای ، والا فهم عرب غزالة قد جاءوا لنا لنصرة عدونا .

قال : بما تم الأمير شاربك كلامه حتى قربت الخيول إليهم وتحققوا لهم وإذا هم عرب غزالة يقدمهم سلام بن خبير وأخوه حماد ، وهم قاصدون إلى العسكر الجراكسة ، فلما نظروا إلى الأمير شاربك بادروه بالسب والشتم .

فلما عاين ذلك منهم عرف أن الأمر صعب ، فاقتضى رأيه أن يظهر لهم الهزيمة حتى يتبعوه ، فإذا تبعوه وبعدوا عن

الروم يرد عليهم ، وربما أن الروم يرمون عليهم طلقاً
فيكون فيه هلاكهم . وكان الأمر كذلك فانه لما أظهر لهم
الأمير شاربك الهزيمة طمعوا فيه وتبعوه ، فلما بعدوا عن
الروم رجع عليهم الأمير شاربك رجمة الأسد وقاتلهم قتال
من يئس من الحياة ، فما ثبتوا بين يديه ولا درجة واحدة
وقد ولوا منها مهزمين ، فانه ما بقى يقربه أحد الا قتله ، فما
 ساعهم (٧٦) الا الهروب .

وأما السلطان سليم فانه لما رأى العرب انهزمت على
الفور أمر الرماة أن ترمي ، فقالت له الأعيان كيف ترمي
على العرب وقد جاءوا لنصرتنا .

قال : ارموا ودعوا كل من فرغ عمره يموت .

فرموا عليهم طلقاً ، فأصاب غالبيهم .

فلما رأت العرب ما حل بهم من الروم اغتاظت قلوبهم ،
وقال بعضهم لبعض ، انظروا الى هؤلاء العلوج ، نحن نقاتل
عنهم وهم يرمون علينا بالنار ولا يرحموننا ، ونادوا لبعضهم ،
من يرد السلامة يتبع الأمير سلاماً وأخاه حماداً .

فخرج سلام وتبعه العربان ، وما سلم منهم الا طويل
العمر .

فما مضى غير ساعة حتى انزلت عرب غزالة الى بعد
ميل ووقفوا ينظرون ، ماذا يكون الأمر بين الفريقيين .

فلما عاين الأمير شاربك ذلك حسب الحساب ، انه متى
رجع الى قتال الروم تتقفاه العرب وتضايقه وتعوقه عن
مراده ، فأمر الأمير قانصوه كرت أن يكون في مائة فارس
تحت السنبق بمن معه ، فأينما وجد العرب حملوا يلقاهم
بالمائة فارس ، والعرب ألوف ، وقد قتل منهم نحو ألف
او أكثر .

ثم حمل الأمير شاربك والي جانبه قانصوه العادلي
والامير أبرك والأمير قلج والأمير تنمر والأمير بردبك
والامير آبو يزيد والأمير دولتبای کاشف الجیزة ، والأمير
دولتبای کاشف الصعید وسيدی یعیی ابن الامیر أزیک صاحب
برکة الأزبکیة ، فهم صف واحد ، كل واحد مقوم نفسه
بجیش وحده ، فلله درهم من فرسان أفراد ، وأتباعهم نحو
الثلاثمائة ، تحطم على ألوف مؤلفة ورماة بالبندق وبالنار
على سائر آلات العرب .

فلما رأت الروم الأمير شاربك قد رجع عليهم يريد
العرب صاروا يتعجبون منه غایة العجب ، وقالوا : لا شك
أن هذا الرجل مجنون أو معه أحد من الجن يساعدته ، وإنما
العقل لا يلقى نفسه في هذا الهلاك .

فأمرهم السلطان سليم بالرمي عليهم ، فرموا طلقا حتى
صار البندق عليه كالطار ، فلم يرجع عنهم ، وصار في
حملته حتى حطم عليهم وحط يده فيهم ، مما صرت تنظر
الا رؤوسا طائرة وفرسانا تتتساقط وعملوا في بعضهم كما
تعمل النار في الحطب .

وكان النهار قد ولی ، وغريت الشمس ، وألح لحا عظيمها
السلطان سليم في الحرب ، وأمر أجناده أن يضايقوهم ،

وكان يرجو أخذهم في ذلك الوقت لأن غالب عسكر الأمير شاربك ، منهم من قتل ومنهم من هرب ، وما بقي معه إلا الأمراء الرؤوس القرانصية وبعض مماليكه .

فطمعت فيهم الروم غاية الطمع وبدلوا جهدهم في الحرب ، فلله در هؤلاء الفرسان القلائل ، كيف اصطلوا هذه الحرب بأنفسهم ، فلما عاين السلطان سليم الأمر بخلاف ما أمره ودخل الليل أيس من أخذهم ونادى في عسكره بالانفصال .

فما كانت غير ساعة حتى رجع عسكر الروم تحت سنجرتهم .

وصار الأمير شاربك يشتمهم ويقول لهم بلسان تركى : اذهبوا الى سور بتكم يا علوج الروم ، يا كفرة ، يا فجرة (٧٧) .

وعسكر الروم تشتمه وتقول له : ان شاء الله تعالى ، يا معرض نقطع رأس طومانبای ورأسك ، ونغلبهم تحت أرجلنا مثل رأس الكلب و ... امرأتك وامرأة غيرك ، يا نصرانى يا ابن النصرانى ، يا كبشة حرامية .. يا عرصات ، يا ملاعين ، يا خنازير ، أى شيء لكم نسبة بالسلطنة أو الامارة يا كفرة ، يا مماليك ، لو كان على رأسكم دولة كنتم تعملون سياسا عند سلطانا لأن سلطانا خير المسلمين وسلطان المخلوقين (٧٨) ، ونحن غزاة الاسلام ،

(٧٧) الأصل في العلج ما ذكرناه في حاشية سابقة ، لكن المعنى انصرف في العامية المصرية إلى ما يعلمه القارئ .

(٧٨) جمع خاقان أي الملك .

وَعَزَّزْنَا اللَّهُ عَلَى الْأَعْرَابِ وَالْأَعْجَامِ ، كُلُّنَا مُجَاهِدُونَ مَعَ الْكُفَّارِ وَالْفُجَارِ ، وَمَا تَحْنُ مُشَكِّمُ أَشْرَارِ أُولَادِ كُفَّارٍ ، لِعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ اتَّبَعْتُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فَرَجَعَ الْأَمِيرُ شَارِبَكَ لِيَنْظُرَ مَحْلًا يَنْزَلُ فِيهِ هُوَ وَجَمَاعَتُهُ .

فَقَالَ لِهِ الْأَمِيرُ يَحْيَى بْنُ الْأَمِيرِ آزِبَكَ صَاحِبَ بَرَكَةِ الْأَذْبَكِيَّةِ : انْزَلُوهُمْ عَلَى شَاطِئِ النَّيلِ تَجَاهَ عَدُوِّنَا .

فَقَالَ الْأَمِيرُ شَارِبَكَ : هُوَ رَأَى صَوَابَ ، غَيْرُ أَنْ عَنْدِي رَأَى أَصْوَبَ مِنْهُ ، وَهُوَ أَنْ بِالْقَرْبِ مَنَا بَرَكَةً مَاءً عَلَى الطَّرِيقِ ، فَرِبِّيَا أَنَّ السُّلْطَانَ طُومَانِبَى يَرْسِلُ لَنَا أَحَدًا أَوْ يَأْتِي هُوَ بِنَفْسِهِ فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْنَا ، وَلَا يَعْرِفُ فِي أَىْ جَهَةِ نَزَلَنَا .

فَاسْتَصْوِبُوا رَأْيَهُ ، فَمَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ إِلَّا وَقَدْ أَقْبَلُ عَلَيْهِمْ خَمْسُ قُوَّارُسٍ مِنْ عَنْدِ السُّلْطَانِ طُومَانِبَى ، فَاجْتَمَعُوا بِالْأَمِيرِ شَارِبَكَ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ السُّلْطَانَ نَازَلَ عَلَى دَهْشُورَ ، وَهُوَ مُشْغُولُ الْفَكْرَةِ عَلَيْكُمْ ، وَمَا جَاءَهُ عَنْكُمْ خَبْرٌ إِلَّا عَنْدَ الْغَرْوبِ ، فَهُمْ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْكُمْ ، فَرَأَى النَّهَارَ قَدْ وَلَى ، وَبَلَغَهُ أَيْضًا أَنَّ عَرَبَ غَزَّالَةَ قَدْ حَارَبُوكُمْ مَسَاعِدَةً لِعَدُوِّكُمْ ، فَسَاءَهُ ذَلِكُ وَانْقَبَضَ خَاطِرُهُ ، وَبَقَى مُتَحِيرًا فِي نَفْسِهِ .

فَقَالَ الْأَمِيرُ شَارِبَكَ : لَيْتَهُ قَدْ جَاءَنَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَاللَّهُ لَوْ جَاءَنَا وَقْتُ الْحَرْبِ ، وَأَسْعَفَنَا بِالْطَّعْنِ لَهُمْ وَالضَّرْبِ لِأَخْذِنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ فَإِنَّ الرُّومَ لَيْسُ لَهُمْ عَزْمٌ وَلَا قُوَّةٌ إِلَّا رَمَيُ النَّارَ ، وَلَا بَطْلٌ رَمِيَ النَّارَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا السَّيْفُ وَالْعَوْدُ مَا عَادَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ أَنَّ السُّلْطَانَ طُومَانِبَى صَحَّ

عنه الرأى كان جاءنا على الفور ، ولكن الله أعلم أن دولتنا قد ولت وانقضت ، فاتى أنظر أن الرأى والصواب نتساء ولا نعرفه حتى يفوت وقته وأوانه ، والرأى الخطأ تتبعه ، فهذا دليل على الزوال ولا شك ، لكن لا دافع لله فيما قضى ، والله تعالى يعلم أننا لم نقاتل في حظ أنفسنا وإنما قاتلنا عن أنفسنا وحررمنا ، وعن ديارنا وأموالنا وأولادنا ، فإنه قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » والله تعالى يعلم أنهم ياغون علينا ، وقد قال الله تعالى : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بعى عليه ، لينصرنه الله » وقد أسلمنا أمرنا إليه تعالى ، وهو يفعل في ملكه ما يريد ، ويحكم في خلقه ما يشاء .

ثم قال له القاصد : إن السلطان أمرني أن ساعة وصولي إليك لا تتأخر ساعة واحدة ، وتحصله على ضيعة وردان ، فإنه ينتظركم هناك . فعند ذلك أمر الأمير شار بك بالرحيل ليلا ، وترك العرب واختار الهروب وقال :

ـ من كان منا يتبعنا .

وقام من ساعته ، وأمر بالرحيل خوفا من سطوة سيف السلطان سليم .

فلما بلغ مناه وخجل عن دعواه قال له بعض الأمراء :

ـ فان تبعنا العدو في هذا الليل كيف نصنع ؟

فقال لهم : وهل سمعتم أن الروم تقاتل ليلا أبدا ، وما رأيتم لما أن دخل الليل كيف بيتوا ، آين عقلكم ؟

فَلَمَا سَارُوا وَمَرُوا عَلَى الرُّومِ مِنْ بَعْدِ لَمْ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ
أَحَدٌ

وَقَالَ السُّلْطَانُ سَلِيمٌ ، لَا أَحَدٌ يَتَبَعَّهُمْ مِنَا ، فَإِنَّهُمْ رِبَّا
فَعَلُوا ذَلِكَ مَكِيدَةً لَكُمْ وَحِيلَةً عَلَيْكُمْ •

وَفَرَحَ السُّلْطَانُ سَلِيمٌ بِمَرْورِهِمْ لِجَهَةِ الْبَحْرِ الْمَالِحِ •

فَلَا زَالَ الْأَمِيرُ شَارِبُكَ سَائِرًا طَوْلَ اللَّيْلِ إِلَى أَنْ طَلَعَ
النَّهَارُ وَهُمْ فِي الْوَرَاقِ (★) •

وَإِذَا بِالسُّلْطَانِ طُومَانِبَى نَازِلَ هَنَاكَ •

فَلَمَا رَأَوْهُ عَلَى بَعْدِ ، أَمَرَ السُّلْطَانَ جَمِيعَ مَنْ مَعَهُ مِنْ
الْعُسْكُرِ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى مَلَاقَةِ الْأَمِيرِ شَارِبُكَ فَارِسَ الزَّمَانِ •

فَلَاقَتِهِ الْعُسْكُرُ أَحْسَنَ مُلْتَقِى ، وَدَعَوْا لَهُ ، وَفَرَحُوا
بِسَلَامَتِهِ •

فَلَمَّا قَرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ فَرْسِهِ ، فَأَقْسَمَ
عَلَيْهِ السُّلْطَانِ طُومَانِبَى أَلَا يَتَرَجَّلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ مَرْكُوبِهِ •

فَامْتَثَلُوا قَوْلَهُ ، وَسَلَمُوا عَلَيْهِ وَهُمْ عَلَى ظَهُورِ الْخَيْلِ •

وَسَارَ السُّلْطَانُ طُومَانِبَى وَالْأَمِيرُ شَارِبُكَ عَنْ يَمِينِهِ
وَالْأَمِيرُ قَيْتُ الرَّحْبَى عَنْ يَسِيرِهِ ، وَمِنْ وَرَائِهِ الْأَمِيرُ أَبْرَكُ
رَأْسُ الْجَلْبَانِ ، وَالْأَمِيرُ قَانْصُوهُ كَرْتُ •

(★) الْوَرَاقُ قَرْيَةٌ مِنْ قَرَى مُحَافَظَةِ الْجِيَزَةِ قَسْمٌ اِمْبَابِيَّةٌ ، وَالْمَرَادُ مِنْهَا وَرَاقُ الْحَضْرِ
الْمُقَابِلَةِ لِشَبِرَا الْخَيْمَةِ ، وَبِجَوَارِهَا قَرْيَةٌ أُخْرَى تُسَمَّى وَرَاقُ الْعَرَبِ غَربِيُّ وَرَاقُ الْحَضْرِ
وَاحْدَثُ مِنْهَا •

فلما وصل السلطان الى اوطاقه ترجل عن جواده ، وترجل الامير شاربك وبقية الامراء والاجناد ، وجلس السلطان على الارض من غير كرسى ، وكذلك الامير شاربك ، وبقية الامراء على قدر مراتبهم .

فقال السلطان للأمير شاربك : أخبرنا يا أمير بما وقع لك من الروم وبما فعلت في معاربهم .

فقال الامير شاربك :

والله يا مولانا السلطان وقع لنا معهم حرب يشيب الأطفال في المهد ويلين لعظمته العجر الجلמוד ، وكنا نحن الطافرين عليهم والغالبين لهم ، وقد كسرناهم حتى رميناهم البحر ، ولكن ما سلمنا من عرب غزالة ، فانهم هم الذين عاقونا عن مطلبنا وصدونا عن مقصدنا ، وصدونا عن غرضنا ، وانى والله العظيم رب زمم والخطيم لو ثبت معي الآلavan اللذان خرجت بهم من عندك ما كنت رجعت عنهم وكانت قسمتهم قسمين : قسم يقاتل الروم ، وقسم يقاتل غزالة . وما كنا بتنا الا في مصرنا ، ولكن ما شتمهم الا هذه النار . التي يرمون بها فما يشعر الانسان الا وهو مضروب بها وما يعرف من اي جانب جاءته ، فان غالب عسكرنا لم يقتل منهم أحد بالسيف الا القليل ، ولكن هذا ما جرت به المقادير من رب القدير ، ونسأله اللطف والتدبر من له الحكم واليه المصير .

ثم قال الامير شاربك :

— والله يا مولانا السلطان ، لو حزمت أمرك وضبطت رأيك لكنت لما سرت أنا والآلف فارس وقاتلت العدو ،

وصبرت أنت ، وسرت وجئت بشيء يسير من خلفي ،
وقطعت على العدو من ورائهم لكننا أخذناهم بواسطة من قبل
أن تأتיהם بقية العساكر وعربان غزالة ، وما كنا بتنا إلا في
مصرنا ، وكان انفصل الأمر بيننا وبينهم ، وارتاحت
قلوبنا من هذا العناء ، فان السلطان سليمان كان معه نحو
عشرة آلاف ، وكانت نقاوة عسكره ، وأتباعهم نحو العشرين
الف ، ولكن ما كنت أنظرهم في الميدان إلا كالبهائم ليس
فيهم من يسوق حصاته في حومة الميدان إلا أن يكون جركسيا
منا من الذين خانوا أبناء جنسهم ، وذهبوا اليه ، فالله يخون
الخائن .

والله أعلم أن دولتنا دعائمه مد مالت وأيامها قد زالت ،
وانى أرى أن الرأى الصواب ننساه ولا نذكره حتى يفوت
ويمضي حكمه ، وان الرأى غير الصواب نتبعه ولو تعلق
بالسحب ، وهذا مما يدل على الاضطراب والانقلاب ،
فنعود بالله من العكس في الأسباب التي توجب إلى الذهاب من
غير اىاب ، ومن عظم مصيبة تتعير فيها عقول ذوى الألباب .

فقال له السلطان طومانبى : دع عنك الأفكار والغم
بما فات ، واعمل الرأى فيما هو آت .

فقال الأمير قيت الرحبي : صدق السلطان فيما قال ،
اضربوا لكم رأيا فيما تفعلون ، فان العربان صارت كلها
أعداء لنا ، وعونا لعدونا ، وليس فيهم من يقاتل معنا ،
ويكافح عنا ، لأنه ما منهم أحد ، الا من قتلنا اما آباء ، واما
أخاه ، واما ابنه ، واما ابن عمه ، واما واحدا من أقاربه ،
وذلك لما كانوا يعصون علينا ، فهم الآن كل واحد منهم

يطالبنا بثأره القديم ، وأما عدونا فإنه قد جاءهم جديداً
وليس بينه وبينهم شيء من العداوة ، ولا نالهم منه إلا الخير ،
فإنه تذهب إليه أكبابهم فيعطيهم ويرضيهم ويعلق آمالهم
بجزيل المطامع ، ويحلق لهم أته لا يؤذيه ولا يقتل منهم
أحداً ، ولا يأخذ منهم خراجاً ، وإنما يأخذ منهم العشر ،
ويحكم بينهم بالعدل ، ولا سيما معه هذان الشيطانان الخبيثان
خاين بك والغزالى ، وهما يراسلان شيوخ العربان ، ويقولان
لهم ، هذا ملك عادل ، مسلم ابن مسلم ، وسلطان ابن
سلطان ، إلى سابع جد ، ويحب الخير والإنصاف ويكره
الظلم والسراف ، ويميلان قلوب الناس إليه ، ويعطفونهم
عليه ، ويسميانه بالملك العادل ويشكرانه لكل أحد عاقل
وجاهل .

وبعد هذا فما بقى لكم من الرأى إلا أن ترسلوا قاصداً
لقبيلة غزالة التي هي أشد القبائل علينا ، وتوعدوهم بكل
خير ، فلعل أن يميلوا علينا ويطيعونا ، فإن حصل ذلك كان
خيراً ، وإن أدوا فالاستعانتة بالله خير لنا من كل أحد ، وغاية
الأمر الموت ، فإنه أمر لابد منه .

وعند ذلك أمر السلطان طومانباي بكتابه إلى عرب
غزالة ، فأول ما بدأ فيه بشيخهم حماد بن خبير ، ويخوفهم
من الله تعالى وعاقبة المكر والبغى ، وحلف لهم أن أطاعوه
ودخلوا في طاعته ليقابلنهم بأحسن مقابلة ، وإن لم يقبلوا
ذلك يكفوا عن قتالنا ولا يعارضونا في قتال عدونا فإنهم
كانوا يجتمعون على بعد من العرب ويرسلون من ينظر لهم
الخبر ، فلما تقع الكسرة على الروم يرمحون رمحـة واحدة

على الجراكسه من خلف ظهرهم ، فيضيقون علينا من شدة هزيمة عدونا .

فلما ترى الجراكسه الأمر قد جاءهم من خلفهم يرجعون عليهم ، ليكتفوا عن أنفسهم ، ويردون عليهم ، فتصير الجراكسه في الوسط ، فيهذه الوسيلة تقلب الجراكسه غاية الغلبة .

فلما وصل كتاب السلطان طومانبای الى حماد بن خير وعرف مضمونه وأعطاه لأخيه سلام ، فقرأه الآخر وعرف مضمونه قال سلام لمحمدشيخ البكارية (★) :

— أنت يا محمد ما تعرف ما جرى بيننا وبين الجراكسه وما قتلوا منا وكم يعطوننا الأمان ، ثم يغدرونا .

قال له محمد : إنما كان يفعل ذلك السلطان الغوري ، وأما هذا الرجل طومانبای فإنه رجل صالح وفارس فالح ، وما سمعنا عنه لأحد سوءاً أبداً ، وأنا ضامن لك عهده ، فإنه رجل صادق في قوله ، وليس هو كالغوري .

قال له سلام وأخوه : حتى ننظر ، إن كانت العرب تطيعنا أو لا . ثم نادي في جميع عرب غزالة أن يجتمع الأعيان منهم .

(★) البكارية ، طريقة صوفية ، تنسب إلى الشيخ أسد الابو بكرى ، وقد ذكره السخاوي في كتابه تحفة الأحباب ، وقبره في زاوية المضمر يمين شارع السيوحية ، وقد قال على مبارك في كتابه الخطط التوفيقية إن الزاوية موجودة وإن لها متبراً وخطبة ومطهرة ومراحيليس وفيها بئر وحولها قبور .

فاجتمعوا كلهم ، فقرأ عليهم كتاب السلطان طومانبای .

فلما سمعوا قاموا كلهم قومة واحدة ، وقالوا : لا سمع
له ولا طاعة ، ولا بيتنا وبينه الا السيف .

فقال محمد شيخ البكارية : يا وجوه العرب ، أما ما
قلتم عن السلطان الفورى فإنه كله صحيح ، وقد نظرت
كيف أخذه الله تعالى ، وأما هذا الرجل طومانبای فهل سمعتم
عنه شيئاً من الظلم والبغى قد يداها أو حديثاً ؟

قالوا : لا ، ما سمعنا عنه سوعاً أبداً ، لا في زمه
الفورى ، ولا في هذا الآن ، وإنما هذه الطائفة دولتهم قد
زالت وولت ، وأوقاتهم مالت وأيامها ولت ، وأعزاؤها
ذلت ، لو قمنا معه ونصرناه لا يفيده ذلك بعد أن ولت
دولته ، وإن تركنا نصرة السلطان سليم واعتزلنا لا نسلم
من عتبه علينا فيما بعد ذلك ولا نأمن على أنفسنا منه ،
فإنما صاحب البأس الشديد ، والأولى أن يجعل لنا عنده يداً
نأمن بها على أنفسنا فيما بعد ، وبعد ذلك لا تطل في الكلام ،
واقتصر في الجواب ، مما بقي لك معنا كلام ، والسلام .

فلما أيس منهم اثنى راجعا إلى السلطان طومانبای ،
وأخبره ، بذلك .

فقال لهم الأمير شاربik : الآن قد بان لكم صحة قولى .

فقالت جميع الأمراء ، والله ان رأيك في جميع الأمور
هو الصواب من يوم الريدانية ، وأنك تتقول لا تدفنوا
المدافع في الرمل ، وقانبردى الغزالى يقول ، الصواب دفتها

حتى لا ينظرها أحد ، وإنما كان ذلك منه مكرًا وعندًا ،
فلا لقاء لله خيرا .

فأمنت جميع الأمراء على دعائهما عليه ، وكان كذلك ، فلم
يلق نصرا إلى أن قتل أسوأ القتلات .

وسيأتي خبر قتله فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فقال لهم السلطان طومانباي : يا أمراء ، يا أغوات ،
الرأي عندي أن تتوكل على الله ربنا ، سبحانه وتعالى ، فأن
الأمر بيده ، وما يضرنا إذا متنا شهداء ، فإن الله تعالى يعلم
أنهم قد بغو علينا ، وقد قال تبارك وتعالى : « فمن اعتقد
عليكم فاعتذروا عليه بمثل ما اعتقد عليكم ، واتقوا الله
واعلموا أن الله مع المتقين » . فما بقي لنا إلا التسليم لله في
الأمور كلها ، ونقاتل إلى أن نقتل ، والسلام . وأما حريمنا
ودريتنا فالذى خلقهم هو أرحم بهم منا .

ثم قال : يا قوم ، نحن أقمنا ها هنا يومنا ، وقد ثقل على
أهل هذه القرية من جهة الأكل والعليق ، والرأي أن نرحل
إلى قرية أم دينار (★) .

ثم أمر السلطان بالرحيل ، وقام من وقته وساعته ،
فقمت جميع الأمراء الذين بقوا معه من الأعيان ، وعلى
رأسهم شاربك والأمير قانصوه العادل والأمير قانصوه كرت ،
والأمير تنمر نائب الاسكتدرية ، والأمير دولتباي ، والأمير
أبرك رأس الجلبان ، وباقى الأمراء الذين تقدم ذكرهم .

(★) قرية أم دينار ، قرية قديمة من قرى مركز الجيزة ، يقال إن هاجر أم اسماعيل
عليه السلام من أهل هذه القرية ، وقد ذكر المقريزى أن هذا خلط بين أم دينار وام دينان .

فما كانت غير ساعة حتى وصلوا الى أُم دينار ، وتلقاهم
أهلها أحسن ملتقى ، وباتوا تلك الليلة .

فلما أصبح الصباح ، قدم عليهم خيال من أهل تلك
البلاد وهو يصبح بهم : الخيل قد أخذتكم .

فما استتم كلامه حتى أظلم البر من شدة الغبار وكثرة
الخيل .

فلما لاح لهم ذلك الغبار ركبوا وخرجوا الى العرب
والقتال ، فالتقو من غير ترتيب اليمين والشمال .

والتقى الجمuan ، فوقع بينهم من الحرب ما يعجز عنه
الوصف ، فلله در الأمير شاربik وقاصوه العادل ، وما فعلوا
هذا اليوم مع هذه الجموع ! .

وأما الأمير قيت الرحبي ، فإنه تصادم مع قانبردي الغزالى
في حومة الميدان ، فاقتتلا قتالاً شديداً حتى تغيرت النظارات
فيما وقع بينهما من الحرب ، ثم تقارب بعضهما من بعض
حتى تقابلوا بالاطراف ، فلم يقدر قانبردي الغزالى أن يتعنت
قيت الرحبي من سرجه مع أنه رجل كبير السن في عشرة
التسعين ، وقد قعد في الجبس محبوساً سنين ، ومع ذلك لم
يتغير له لون .

فعلم الغزالى من نفسه الخسفة ، ودخل عليه الجبن ،
وقال في نفسه ، اذا كان هذا فعل هذا الشيخ الهرم ، فكيف
لو وقعت مع شاربik .

ثم انه شجع نفسه ، وأطلق الأمير قيت الرحبي ، ثم
بعد عنه ، واستعدل عليه يقنتاريته من وراء ظهره ، فقلبه
عن جواده ، وأراد أن ينزل ويقطع رأسه ، وإذا بفارس
صرخ عليه صرخة أفلعته ، وطعنه في خاصرته طعنة قلبته
عن جواده ، وانثنى ذلك الفارس راجعا إلى العرب والقتال ،
فالتهى الغزالى بنفسه عن الأمير قيت الرحبي .

فبادر الأمير قيت الرحبي إلى حصانه فركبه ، ودكس
خلف ذلك الفارس الذى كشف عنه فإذا به الأمير شار يك ،
قدعا له من صميم قلبه ، وأراد أن يكون معه فى القالب ،
ومازال يشق الصفوف ويفرق الآلوف حتى عجز وكل وبطل
جواده ، وكلت سواعده .

فلما علم من جواده العجز التفت وانثنى راجعا حتى
خرج من المعركة ، فوجد خيلا أقبلت من كبد البر ، لا يحيط
بها العصر ، وإذا بهم عرب غزالة .

كان رسم لهم السلطان سليم أنهم يجتمعون مع العسكر
هناك ، ويقاتلون الجراكسة ، فصادفوه على هذه الصفة ،
وقد بطل حصانه ، فرشقوه بالحراب ، فمنع عنه اللبس ،
صادفه منهم سهم دخل فى فؤاده ، فوقع على وجه التراب ،
فنزلت عليه النهاية فعروه وأخذوا ما كان عليه ، وقتلوه .

هذا ما كان من أمر الأمير قيت الرحبي .

وأما الغزالى ، فان ممالike سارعوا اليه لما رماه شار يك
وحملوه إلى وراء حتى أدخلوه فى الوطاق ، وأسقوه السكر ،
ووجدوا جرحه سليما .

وأما الأمير شار بك ، فلازال يقاتل قتال الجبايرة والفراعنة حتى كل من تحته العجاد ، وتضاعف عليه الجراكسة وزاد ، وطلعت عليهم العربان التي في تلك البلاد ، وصاحت عليهم المدافع والبنادق وملاط الفواد ، وفي كل رمي كانت تنزلنل تلك البلاد .

حضرت صفوف الروم كالبحر الظاهر ، ويقيت الأحجار والرصاص نازلة كالأمطار ، وصارت المدافع صائحة والحديد مع الأجساد والروعوس طائرة .

قال الراوى : كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع خلي منهم مائتين في الشام ، وجاء معه بمصر ستمائة ، منهم مائة وخمسون مدفعاً كبيراً ، والبقية ضربانات كان طول كل واحدة منها خمسة وعشرين شبراً ، وكان يسحب كل واحد من الصغار أربعة رعوس خيل ، وأما الكبار فكان كل واحد يسحبه ثلاثون أو أربعون من الخيول ، وكان كل واحد منها مكسيباً بجوح أحمر .

ولما دخل مصر كان أول المدفع في الريadianية وأخرهم في العنانقة ، وكان عسكره كالنمل في الوادي ، وكان على يمينه خيالة راكبون ، كل واحد في يده مزراق ، وفيهم بيارق حمر ، نحو عشرين أو خمسة وعشرين ألفاً ، ومثل ذلك على شمالك ، كلهم خيالة بيارق صقر ، وقدامهم من اليكنجرية نحو عشرين صفاً ، كل صف لا يعد ، وقدامه صفوف بالأعلام والطبل خانات الوزراء والباشوات وكل من جايوه من الجراكسة يقطعونه قدامه ، وإن كان رجلاً كبيراً أو أميراً تبعوه مكتوفاً إلى السلطان سليم ، ويقطعون رأسه

قدامه ، وهو واقف فوق الحصان ، وقدامه مكشوف ، والسعادة قدامه بطاسات من ذهب ، نحو أربعينات ، وفرقه في رءوسهم الريش الأبيض مشاة ، وفي أيديهم سهام يسمونها صولاً ، فكلهم كانوا يقفون قدامه مربوطى الأيدي ، وهم يتظرون إلى الأرض بأدب .

وفي رواية سبعة أعلام بأسماء آجداده ، مكتوب عليها أسماؤهم بالذهب ، وأربعة وعشرون علماً باسم السلطان سليم ، وكان مكتوب في بعضها ، أنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، وفي بعضها ، نصر من الله وفتح قريب ، وكان معه علم أبيض أكبر من سائرها ، سالت عنه ، فقالوا ، علم الإسلام .

ونرجع إلى سياق الحديث ، وهم ، أى الجراكسة في ذلك العرب الشديد والقتل المزيد اذا لاح لهم غبار حتى سد الأقطار ، فتنجح كل فريق عن الآخر حتى يروا ما تحت ذلك الغبار ، فما مكثوا غير ساعة حتى وصل أول الخيول وهم يتضاهعون ، نحن فرسان غزالة ، ذوو الكفاء والكفاله ، اليوم ترون يا بني جركس الموت الأحمر ، وتذوقون من سيوفنا الوباب الأكبر ، ويفنى جمulum وتفرغ كثرتكم ويقطع أصلكم وفرعكم .

وكان المتكلم بهذا الكلام أميرهم وكبيرهم سلام بن خبير وأخاه حماداً وهما كبراء القوم .

فقد سلام بن خبير الأمير قاتلواه كرت ، فوقع بينهما انداب من العرب تعيير الناظرين ، وحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وأظهر فنونه وعجائبه .

وحملت فرسان غزالة على الجراكسة حملة واحدة ،
وحملت الروم من الجانب الآخر ، وأخذوهم بواسطه ،
فلا تسأل عما قاسوا من الحرب والطعن والضرب في ذلك
اليوم .

فضايك سلام بن خبير الامير قانصوه كرت حتى رماه
البحر ، وما بقى معه سوى عشرين نفرا من ممالike ، والذين
مع سلام نحو الألف أو أكثر .

ولما وقع الامير قانصوه كرت في البحر ثقل على الفرس
من لبس العديد ، وقد كان الفرس قد كل من الجرى ، فلم
يقدر أن يعدي إلى ذلك البر ، ففرق هو وفرسه غالبا
مماليكه ، وذهب تحت الماء ، وما سلم منهم إلا القليل .

فكان رحمة الله حسن السيرة والأخلاق ، وكان اذا رأه
الانسان يقول تبارك العلائق .

وأما سلام بن خبير ، فإنه رجع على الجراكسة رجعة
منكرة ، وهو ينادي ، بالأخذ الثار .

فوجد شاربك على ما هو عليه من العرب الشديد ، فلله
دره من فارس الأعداء ، فارس في مائتي فارس ، يقاتل
اللوفا ، فوقعت الجراكسة في كفة النقمان .

في بينما هم كذلك وفي هذه الحالة وإذا بعجاج قد ارتفع
الغبار وثار من ناحية أرض وردان (★) ، وهم يصيرون

(★) ضيعة وردان ، وينكرها على مبارك في خططه أنها خربة وردان . وكانت قرية
في حدود الجيزة ، وقد تخرست من زمن الفتح ، ويقال إن محلها هو المحل المعروف
بمحسينات وردان ، وإن بها قبور جماعة من الصحابة .

بالنصرة لآل عثمان : اليوم يابني جركس ، تذيقكم الهوان
ويحل بكم النقصان .

فنتظروا اليهم فإذا هم قانبردى الغزالى ومن معه قد
جاءوهم من جهة أخرى ، فبقيت الجراكسة لا يعرفون من
يقاتلون والى أين يذهبون .

قال صاحب الحديث : إن القوم لما وصلوا ضربوا لهم
ميدانا ، ثم إن الأمير قانبردى الغزالى المارق من أبناء جنسه
يرز إلى حومة الميدان ، ونادى بأعلى صوته ، يا آل جركس ،
نظرتم قوتكم وشوكتكم ، ونظرتم ما تكون ذلة آل عثمان
ودولتكم ، أين شجعانكم ، أين فرسانكم ، أين سلطانكم ؟
عرفتم مقداركم وندايتكم ، وأنا أحد عبيد لحضرتة السلطان
سليم الملك العظيم ، صاحب القوة والجيش الكاسر ، منتشر
العساكر ، قاصر القياصرة ، كاسر الأكاسرة ، قاتل الفراعنة
والجبابرة ، أما معكم أحد من الشجعان ييرز إلى الميدان .

فقال السلطان طومانبای للخاصکى (★) الذى بين يديه :

— ابرز اليه .

فبرز من وقته ، ولما صار في الميدان قال له ذلك الفارس ،
الذى هو قانبردى الغزالى :

— يا خاصکى ، إن روحك ضيقت عليك حتى جئت بها
إلى ال�لاك ، استغنم السلامة ، وارجع إلى أهلك .

(★) الخاصکى واحد من الخاصکية وهو الذين يلازمون السلطان في خلواته . ويسوقون
المحمل الشريف ، ويتعينون بكمال الكفال ، ويجهزون في المهمات الشريفة والتعينات
باليأجرة ، والمتقربون في المملكة ، وقد كان عدد الخاصکية في أيام الملك الناصر محمد بن
قلوون أربعين خاصکيا ، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسباع
ألف خاصکى ، ومنهم من كان صاحب وظيفة ، ومعهم من ليس له وظيفة .

فقال له الخاصى : وانت من اين يا انجس العرب ،
حتى تيهتني بهذا الخطاب .

فإن قانبردى الغزالى لما جاء فى هذه المرة ليس ليس
العرب ، وتكلم بكلامهم ، وتلثم حتى لا يعرف ، فما ظنه
الخاصى الا بدويًا من عرب غزالة .

ثم إن الخاصى قام في سرجه وطعن طعنة بالمزراق
فخرج من يده كالبرق الخاطف ، فلما نظرها قانبردى الغزالى
جاءت قاصدة صدره ، انعرف لها في ظهر الجواد وخطفها
من الهواء ، ثم صاح على الخاصى : خذ حربتك فانك مقتول
بها ، ثم هزها وطعنه بها . فغطس عنها الخاصى ،
فصبر عليه حتى استوى على سرجه واعجله بها قبل أن
يتنظروا ، فوقعت في نحره ، فوقع على الأرض طریحا .

ثم ان قانبردى الغزالى جاء في الميدان وطلب البراز .
كل ذلك ولم يعرفه الجراكسة وما يظنونه الا بدويًا من
الفرسان المعنورة ، فانهم لو عرفوه لرموا بأنفسهم عليه
جميعا ، وقطعوه بسيوفهم ، فإنه أول من خانهم ، وأغلى
عليهم أعدائهم هو وخاير بك ، فإنه لو لا هذان الاثنان ما كان
السلطان سليم يتجلو ويدخل أرض مصر مع أنه كان
لا ينزل عليه بعد أخذه أرض مصر أنه يعمل باشا من
جانبه أحدا من الجراكسة ، ولا يعطي لأحد ذلك من أمراء
الجراكسة لتقديم اطاعته ، فإنه كان له عزم وباس وعظمة
وتكبر وتجبر ، وكان قهارا مفاكا للدماء ، ما كان يرحم في
محل السياسة ، ولا يشفق على كبير ولا على صغير ، وكانت
همته اذا عاش أن يأخذ الربع المiskون من أيدي الملوك
المتنوعة ، ويصير هو سلطانا على جميعهم .

وكان سبب مجيئه الى مصر كثرة العناد كان حصل من الامراء ، وقتل الاولاقيه ، وعدم طاعته على السكة والخطبة باسمه ، وكان معركه خاير بك ، ولكن لكل شيء آفة من جنسه .

فإن تيمورلنك لما خرج على الملك الناصر فرج بن برقوق آخر حلب والشام ، وأطلق فيما النار بعد أن نهب جميع ما فيهما ، ولا قدر أن يتبعول ويدخل مصر . وفي العقيقة ان السلطان سليم زاد على تيمورلنك بهذه المدافع والبنادق والضربيات التي اذا سببوا منها طلقاً تزلزل الدنيا وترعب القلوب ، ولكن اذ أراد الله بأمر هيا أسبابه .

ونرجع الى سياق الحديث ، فلازال قانبردى الفرزالى تبرز اليه الفرسان ، واحداً بعد واحد حتى قتل منهم عشرة ، فهابته الفرسان وقالوا قد تعجبنا من هذا الانسان ، فما عرفنا هل هو من الانس أم من الجن .

فقال لهم قانبردى : يا آل جركس ، أريحوا أنفسكم ، وأبرزوا الى سلطانكم طومانباى ، أما آن يقتلنى واما آن أقتله .

فلما سمع السلطان كلامه تعجب منه ، وقال : ألا تنتظرون الى قوة هذا الفارس واقدامه وشجاعته وكثرة كلامه ، فهل فيكم من أحد يكفينى شره ؟

فقال قلچ : أنا يا مولانا السلطان .

فقال : ابرز اليه ، وخذ حذرك ، فانى أراه سريع الحركات ، ولا يخلو أن يكون بطلاً من الأبطال المجنورة ،

ولولا أن فرسى قد بطل لبرزت اليه ، ولا أظن أن فيكم أحدا يقاس به في فروسيته .

فقال له قلچ : أنا أكفيك شره بعنایه الله تعالى .

ثم برز اليه قلچ ، وكان من الأمراء الأربعينات ، وقد كان تعين له أن يصير أمير مائة مقدم ألف موضع الأمير كرتبای الوالی ، ولو كان الأمير شاربک حاضرا في ذلك الوقت ما تركه يبرز إلى هذا الفارس ، فإنه كان من شدة محبتة له يغدوه بنفسه في كل أمر صعب .

وفي الحقيقة أن الجراكسة لو عرفوا أن هذا الفارس هو قانبردی الفرزالی ، ما برز اليه الا السلطان طومانبای بنفسه أو الأمير شاربک ، فانهما يرجعان عليه في الفروسيه .

ثم نزل اليه الأمير قلچ ، وحمل عليه ، فوقع بينهم من العرب آنداد حتى تعجب الناس من هذين الفارسيين .

ثم ان الأمير قلچ ضرب قانبردی ضربة على رأسه بالسيف قطعت الخوذة ، ونزلت الى الرفادة والساير فجرحته جرحا خفيفا .

فضرب قانبردی الفرزالی ضربة على يمين الأمير قلچ فأبراهما كما تبرى القلم ، فوقيعت الى الأرض هي والسيف .

فانبهرت الأمير قلچ واندهى (٧٩) وتخيل ، فهجم عليه قانبردی وضربه ضربة أطاحت رأسه عن جسده .

فليما عاينت الجراكسه ذلك عسر عليهم قتل الامير قلچ،
وقالوا ما يقايس هذا البطل الا الامير شاربک او السلطان
طومانبای .

ثم ان هذا الفارس جال في هذا الميدان يمينا وشمالا
وصار يعجب بنفسه ويتمايل على ظهر فرسه ، وصار يشتم
الجراكسه بالعربي ، ويقول لهم : يا لئام غير كرام ، من
يقاوم السلطان سليمان ، او يقاوم سلطانه او يثبت بين يديه
يا كفار ، يا فجار . وأفعش في كلامه حتى أفعم قلوبهم ،
وكل ذلك ولم يعرفوا أنه قاتل بدم الغزالى .

وقال لهم : اذا كان سلطانكم يزعم أنه فارس أو يقاوم
الفرسان فليبرز الى حومة الميدان ، وينظر بنفسه ان كان
يرجح أو يقع في كفة الخسران .

فقال له السلطان طومانبای : هانت جئت علينا ، هات
ما عندك من فروسيتك وشجاعتك ، ولا تبق ممكنا ، فان
السلطان طومانبای قد تفرس في القتال وصار القتال
سجيته وصنعته ، فما بقى يتتكلف لشوع .

ثم ان السلطان طومانبای قال له :

ـ انتظري يا آخا العرب ، لا أقاتلك ولا أحاربك حتى
أتكلم معك كلاما ، لعل أن يكون فيه صلاح .

فقال له : قل ما عندك .

فقال له السلطان طومانبای : أريد منك أن تخبرني
من أنت أولا ، وما الذي حملك على قتل فرسانى من غير أذية

سبقت مني اليك ، فاني والله ما ادركت نفسي ولا اعلم اني
بقيت على أحد ولا ظلمت أحدا ، ولا افترىت على أحد ،
وما امر سلطنتى هذه ، والله ثم والله لم يكن فى غرضى
ولا خاطرى ، وانما الامير علان والامير كرتباى الوالى والامير
شاربك أبرموا على وقالوا ، لا نرضى لهذا الأمر الا أنت ،
فعلمت أنه أمر ابتلاني الله به .

واما هذا السلطان سليم الذى تدعى أنه ملك عادل ،
وانه لا يحب الجور ، كيف يجوز له أن يتعدى علينا ، أو يرمى
علينا بالنار والمدافع ، ويقتل رجالنا ويسبي نساءنا
وأولادنا ، ونحن مسلمون مؤمنون موحدون قائمون بحماية
الدين ، فلما أن بقى علينا وتعدى حده وجب علينا أن نقاتل
عن أنفسنا وأولادنا وحريمنا وأموالنا ، وفي ذلك اذن من الله
تعالى ، كما قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ، وهو أصدق
السائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم .. » الآية (٨٠) .

ونحن في الزمن الأول قدرنا عليهم مرارا وعفونا عنهم
وهم الآن قدروا فما عفوا ، وملکوا فما رجعوا ، وفعلوا فيما
ما لم يفعلوه في عبادة الأصنام والصلبان ، وهم جيرانهم
ومحاذون لهم ، وأما نحن فانا مسلمون موحدون . فاني
سألتك بالله تعالى ، وبمحمد رسوله صلى الله عليه وسلم ان
تكون معنا ونكون نحن وأنت اخوانا من الان ، أو تتركنا
لا لنا ولا علينا ، وننحن نستعين بالله عليهم ، وتكتفينا شرك .

وان اخترت العرب والقتال فاني قاتلك الا ان عرفتني
بنفسك ، فانك قد قلت لا تريد الا أنا ، فهانا قد جئتكم

بنفسى ، واكتشف لشامك فانى متغير فيك ، وأشكل على أمرك ، فلا أنت يدوى تعرف ولا جركسى تعرف ، وكلامك لا يشابه كلام الروم ولا كلام العرب ، وانى أقسم عليك بالله الذى خلقنى وخلقك الا ما أخبرتني من أنت .

فكشف له اللثام فإذا هو قاتب ردى الغزالى .

فلما رأه السلطان طومانبای غاب عن صوابه من شدة القهر ، وقال له : « يا ابن ألف قرنان (٨١) ، ونسل أولاد الزنا ، يا خبيث يا ملعون يا ابن الملعون ، يا خائن يا ابن الغائن ، ولهذا تبعث الغوان ، فان الذى ذهبت اليه وصرت من حزبه شهرته الخيانة ، فان اسمه سليم خان ، لا كان .

وأنت أيضا قد عاهدتنا وختتنا وعاكستنا ، وأغريت علينا أعداءنا ، فبإله العجب ، كيف طابت نفسك الخبيثة بذلك ؟ ولكن صدق الله العظيم « الخبيثات للخبيثين » (٨٢) . الآية .

ثم ان السلطان طومانبای حمل عليه حملة منكرة ، فما ثبت بين يديه ، الا وقد طعنه السلطان طومانبای طعنة

(٨١) اي يا قواد او معزز وهي كلمة وردت في النص قبل ذلك ، وفي العالمية المصرية يوصف القواد حتى الان بذى القرنين او أبو قرون او أبو قرنين . . . ومثل هذه الانفاس تكثر كثرة مذهلة في مجتمع المالك (العبيد البيض) ويرجع هذا إلى أن أصولهم لم تكن معروفة لديهم ، ولا لدى الشعب الذى يحكمونه . فهم فى غالبيهم قد جلبوه ضغافا ، وتم تدريتهم ، وتعليمهم ، وتثبيط محل اقامة لهم فى مسکرات . وينطبق هذا أيضا على مجتمع الانكشارية (الينتكرية) ، والاختلاف فقط فى العرق لا فى طبيعة الاجتماع ، فعماليك الدولة المملوكية الأولى فى غالبيهم اترار ، وعماليك الدولة المملوكية الثانية فى غالبيهم جركس ، او شركس ، والانكشارية فى غالبيهم دوششمة وهى ضريبة الدم التى كانت تؤخذ من اطفال البلقان .

بقطاريته قلبته عن ظهر فرسه ، ثم وضع القنطرية على
صدره وأراد أن يقتله بها .

فقال له : انى سألتك بآللله تعالى ، وتوسلت اليك برسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وبسر شيخك سيدي أبي السعود
الجارحى أن يجعلنى عتيقك فى هذا اليوم .

فَلِمَا سَمِعَ السُّلْطَانُ طَوْمَانْبَايِ ذَلِكَ الْقَسْمَ رَقْ قَلْبِهِ لَهُ،
وَذَلِكَ مِنْ كَمَالِ اِيمَانِهِ ٠

فقال له : على شرط أنك تكتفينا شر هذا العدو الذى
جيئ به علينا ، وبشرط أنك لا تسحب فى وجه أحد من آل
جيركس سيفا .

ف Culf لـ الفـ زـ الـ عـ لـ ذـ لـ ، وـ قـ دـ شـ دـ عـ لـ يـ هـ فـ الـ اـ يـ مـ .

فبعد ذلك رفع السلطان القنطرية عن صدره ، وقال له : قم يا خبيث .

فقال الفزالي وهو ينفض التراب عن رأسه ، وجاء الى
رجل السلطان ، وقبلها فى الركاب ، ودعا له ، وهو يكاد
أن يبكي ندما على ما فعل .

وسار الى فرسه وركبها وقال لجماعته : ارجعوا عن القتال ، فقد حلفت له انى لا أقاتله ، وانى واف له بالايمان ، ولكن أخاف اذا رجعت اليه يقتلنى ، وانى راجع من هنا الى محل آخر أقيم الحرب فيه ، وأغير الملبوس الذى رأنى لا بسه .

وأما طومانبى ، فانى لم آر الا أن دولته قد زالت لأنه
لو قتلنى لاكتفى شرى ، ولكنه قدر على وعفا عنى ، الى أن
وصلت السكين الى العظم .

ثم انه قصد نحو سنجق السلطان سليم ، وفي هذه
الساعة وصلت العساكر التى خلاها السلطان سليم مع الوزير
يونس باشا فى مصر لما عدى الى بر الجيزة لقتال الأمير
شاربек وطومانبى .

وكان السبب فى قدومهم ارسال مكاتبته الى يونس باشا
فى الليلة الماضية ، يأمره يعدى الى بر انبابه بجميع من معه
من العساكر .
ولما وصلت هذه العساكر فى تلك الساعة الى السلطان
سليم ، اشتد ظهره وقويت نفسه .

واما السلطان طومانبى ، فانه لما عفا عن الغزالي ورجع
إلى سنجقه ، لم ير تحته الا جماعة قلائل من ممالike ، وبقية
الأمراء تشتتوا فى العرب والطعن والضرب ، ولكن الكثرة
غلبت الشجاعة ، فلله درهم من فئة قليلة تقاتل هذه الجموع
والعساكر التى لم يعلم لها أول من آخر !

فاندهشت عقولهم وتحيروا فى أمرهم .

فقال لهم الأمير شاربек والأمير قانصوه العادى :
— يا آل جركس ، اثبتوا فان القتال ليس بكثرة العدد
والمدد ، وإنما هو بزيادة الصبر والجلد ، واقرءوا قوله
تعالى : «وكم من فئة قليلة غلت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع

الصابرین ٨٣) وهأنا أمامكم وفريد عصره السلطان
طومانبای - نصره الله تعالى - يرد عنكم ، فدونكم والعرب ،
ما دمنا في قيد الحياة ، فلا تخافوا من أحد ، ولا يغرنكم
كثرتهم ، فاني وعزه الله تعالى لو لا هذه النار التي معهم
لقاتلتهم بنفسى ، ولا اكتثرت منهم أبدا ، فاني ما رأيت فيهم
فارساً أعجبنى كره وفره ، ليس لهم بأس الا بهذه المدافع
والبنادقيات ، وذلك لا يفيد منهم شيئا ، لأن كل انسان جعل
الله له عمر لا يزيد بهروبه ولا بثباته ينقض ، وقام
العارفون ، الشجاعة صبر ساعة .

وإذا هم بغيار قد ثار من جهة الميمنة فنظروا اليه ،
وإذا بصياغ آخر وغيار قد ظهر من جهة الميسرة ، ثم بصياغ
وغيار قد ظهر من خلف أظهرهم .

فتغيرت الجراكنة في أنفسهم ، إلى أين يذهبون .

وبسبب ذلك آن قانبردى الغزالى لما رجع منهزمًا من
السلطان طومانباى الى السلطان سليم وأخبره بأنه صدتهم
وقتل منهم عشرة فوارس، ولكن شاربك وطومانباى وقانصوه
الحادى حجبونى عن مرادى ، فاخترت الرجوع اليك بشيء
أزيد أن أفعله ، ففى ساعته نشيل الچراكسه .

فقال له السلطان سليم : وما هو يا أبا منصور ؟

قال : تأmer اياس باشا أغا اليكنجريه يذهب من جهة وأنا أذهب بمن معى من جهة أخرى ، وتأmer يونس باشا أن

يأتى من جهة بمن معه من العساكر ، وأنت بمن معك من
جهة أخرى ، ونطبق عليهم ، فانهم فئـة قليلة ، ما يثبتون
معنا ولا ساعة واحدة .

فقال السلطان سليم : نعم الرأى !

ثم أمر بما أشار به قانبردى الغزالى .

فما مضى غير ساعة حتى تفرقوا كما تقدم ، ثم أحاطوا
بالجراكسة من كل جهة .

وجاءت عرب غزالة من جهة أخرى .

والسلطان طومانبـى ، والأمير شارـيك ، والأمير
قانصـوه ، والأمير يحيـى بن آزـبك ، والأمير آبرـك رأسـ

الجلـبان ، والأمير دولـتبـى ، والأمير رـزمـك النـاـشـف .

انظر ما فعل هؤلاء الفرسان القليلة في هذه الألوف
المؤلفة والجموع التي لا تحصى من الكثرة من كل جنس .

فصارت هذه الأمراء المذكورون متحدين ، الركاب في
الركاب لا يفارق بعضـهم بعضا ، وبقية العساـcker لا يدرـون
أين يذهبـون ، ولا من يقاتـلون . وما قـتل من الجـراـكسـة أحدـ

بالسيـف والـعـود ، وإنـما كان القـتـل فيـهم بالـبـندـق .

وأما الأمراء المذكورـون فـلم يـخرجـ منهم أحدـ .

وفي هذا اليوم قـتل من الجـراـكسـة أكثرـ من كلـ يومـ
بهـذه العمـلة التي عملـها قـانـبرـدىـ الغـزالـى ، وـغالـبـ القـتـلـ

ما كان الا بالبندق والضربيات وآلات النيران على سائر
الصنوف .

وتم النهار ، ونادى منادي الحرب بالانفصال ، وافترقوا
على هذا الحال ، وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ، ورجعوا
وهم لا يعرفون بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول
ذلك اليوم ، وليس الغبر كالعيان .

قال الرواى : ونزل السلطان طومانبای على قرية
وردان (٨٤) ، ونزل السلطان سليم على قرية أسفل منها
على شاطئ النيل السعيد ، بحيث ان كل عسكر منهم ينظر
الآخر رأى العين ، وباتوا تلك الليلة في أسوأ الأحوال من
شدة ما حصل لهم منه القتال .

ثم جلسوا بعد ما أكلوا الطعام جاء لهم من تلك القرية
التي باتوا بها ، وأخذوا في ضرب الرأى .

فقال لهم السلطان طومانبای ، والله يا اخوانى ، ما أطلق
الا أن دولتنا قد زالت ، فاننى أرى أننا كلما فعلنا شيئا
نريد أن تكون فيه المصلحة فما يكون أمرنا فيه الا يضد ما
نريد ، وأرى أن أعداءنا أمرهم يزيد ، فكم قتلنا منهم من
ألف ، ومع ذلك أرى الأمر كلما له يزيد (٨٥) ، وأن الغالب
على ظني زوال ملکنا . وأن الظفر لعدونا ، وانظروا قول
السائل :

ان أقبل السعد قم قائمها واقتبس من الثلوج ان شئت نارا
وان وقد السعد فارقد له فما الدرج في العكس الا خسارا

(٨٤) في محافظة الجيزة الان .

(٨٥) المعنى : كل مادة يزيد .

ثم ان السلطان طومانبای قال لهم :

ـ يا قوم ، ان هذه الواقعة أضرت بنا وهدمت قوتنا يفقد الأمير قانصوه كرت ، فانه كان ركنا ، ولا بقى لنا رأى الا أن نذهب الى حسن بن مرعى وابن عمّه صقر ، شيوخ عرب محارب ، فانى قد وليتهم عليهم ، وأطلقت حسن بن مرعى من العبس بعد أن كان المرحوم السلطان الغورى كتب على قيده «مخلد» ، وقد أطلقته لما أن صار الأمر لى ، وأخذت عليه العهود والمواثيق والأيمان المفلظة أن يكون معى ظاهرا وباطلنا ، ويقوم معى بالقلب والقابل اذا احتاج الأمر لذلك ، وما نرى احسن من سيرنا اليه ونكون نحن وهو على قلب رجل واحد ، ثم بعد ذلك ندبر أمرنا وننظر ما يكون من جانب الله تعالى ، وهو يعلم أنهم باغون علينا .

ـ ثم انه أمر بالرحيل من وقته ، وكان ذلك الوقت نصف الليل .

ـ فقال له بعضهم : فان قام العدو علينا في هذا الليل ، فكيف يكون الأمر ؟

ـ فقال له السلطان : هل رأيت أو سمعت أن الروم تقاتل ليلا ، فهذا الأمر لا يكون ، واتما اعتماد هؤلاء القوم على النار ، والرماة مشاة لا يقدرون على المشى بالليل .
ـ فما كانت الا ساعة حتى ركبوا وساروا من وقتهم وهم مستيقظون لأنفسهم حتى وصلوا الى مدينة سخا (★) .

(★) سخا ، بلد من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وكانت كورة ، وقصبة لكررة الغربية في عهد الدولة الإيوانية وكان بها دار الوالي واليها ينسب الامام الشیخ على السخاوي المقرب النحوى اللغوى - والحافظ الشهير محمد شعمن الدين السخاوي صاحب كتاب النصوة اللامع في أهل القرن التاسع .

وكان حسن مرعى وابن عمه شكر قاطنين بها ، وعربيهم منتشرين بها الى سنور (*) ، فنظروا الى خيل طومانباى وقد أقبلت ، فبادروا الى خيلهم ، فركبت الفرسان وسادات القبيلة ، وركب الامير حسن بن مرعى أمير العرب والحاكم على تلك البلاد حتى قارب عسكر السلطان ، فترجل عن جواده هو وأولاد عمه وعشيرته .

ثم قدم عليه السلطان ، وقدم هو على السلطان ، فقبل يديه وطلب من السلطان أن ينزل الى منزله للضيافة .

فقال له السلطان : ما نحن فاضون للضيافة ولا لغيرها ، والعدو في أثرنا ، وقامت علينا العربان من عرب غزالة ، لا لقاهم الله خيرا ، خصوصا سلام بن خبير ، لا سلمه الله تعالى ، وما جئت لك الا لتنظر لنا محلنا نحتمى فيه ، ثم ندبر أمرنا فيما فيه الصلاح لنا .

فقال له الامير حسن : اذا كان الأمر كذلك ، أنا أعرف لكم محلا ، يقال له الغابة ، وهو واد كبير واسع ، وافر المياه ، اذا تحضن فيه القوم ووقف على ياهه رجل واحد منع من يدخل ولو كانوا ألفا من الناس ، فان هذا الوادي لا يمكن أن يدخله غير فارس ، ولا يمكن أن يدخل منه اثنان متساويان ، لأنه ضيق جدا ، ومن الجانبين أرض ربو سبخة ، كل من زل بقدمه ودار على صاحت به (٨٦) ، وهذا الوادي هو

(*) سنور بلد من محافظة الغربية واقعة في غرب الترعة بالقرب من دسوق ، وقد ذكر ابن اياس أن حسن بن مرعى وابن عمه شكر مشايخ عرب البحيرة ، وأن طومان باى توجه الى ضيعة تسمى تروجة بالغربية فلاقاه حسن بن مرعى ، وهو تنافق ظاهر في روایة واحدة لابن اياس .

(٨٦) المعنى : صاحت به اي غاص بها .

قلعتنا اذا قصدنا أحد من أعدائنا ، وعلمنا انه لا قدرة لنا عليه نذهب الى هذا الوادى فنأمن على أنفسنا منه ، فما لكم أيها السلطان أعدل منه ولا أحسن منه .

فقال له السلطان : اركب وسر بنا على يرفة الله اليه ، لعل الله ان يحفظنا به ، ونتحصن ، وما يكون الا ما يريد الله .

فساروا من وقتهم حتى وصلوا الى فم الوادى الذى يدخل منه اليه .

فلما رأه السلطان وقف وغضس قلبه ، وانقبض خاطره وأحس بقلبه انه لا يحصل له من هذا الوادى خير أبدا ، فعبس فرسه ووقف مكانه ، وتحير في أمره ، والتفت الى أمراء دولته ، وقال لهم :

- انى مخبركم بمنام رأيته من مدة يومين رأيت نفسي انى فى هذا الوادى بعينه ، وآنا على جانب البحير المالح ، وقد قامت فرتينة عظيمة ، وأظلمت الدنيا ولا يقى أحد مع أحد ، واذا بخمسة كلاب سود قد أحاطت بي ، وأرادت أن تفترستني ، فجذبت سيفى وأردت أن أضر بهم به ، واذا به قد طار من يدي ، وسقطت عمامتى ، ودقت الكلاب على وقبضونى ، فصرت بينهم كقطعة لعم ، كل واحد ينتشنى من ناحية فأیست من نفسي ، فانتبهت مرعوبا ، وقد عمنى العرق .

فلما سمع منه الأمراء هذا المنام تشوشت خواطراهم ، وقال بعضهم :

- ان هذه الرؤيا لا تدل على خير ، وأن هذا مما يدل على آن الظرف لعدونا ، والنصرة له علينا ، فان وقوع

العمامة يدل على زوال المنصب ، وأما قيام البحر فانه قيام هذا السلطان علينا ، وأما عدم السيف فانه يدل على عدم القوة ، وأما الكلاب فانهم رعوس الأعداء يقبحون عليك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فان صحت هذه الرواية فقد واهد زالت دولتنا وانقضت مدتنا .

فقال لهم السلطان : ما بقى لنا حيلة نحتال بها ولا منعة نستعين بها ، قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا وتثلمت سيوفنا ، وقد قامت الدنيا كلها علينا ، فما عسى أن نصنع .

واما أنا فقد أردت أن أسلم نفسي ، فان كان قد بقى في عمري بقيمة فانهم يعطونني الأمان ، وان كان قد فرغ فان كنت على فراشي فانتي أموت .

واما أنتم يا أغوات فقد حالتكم (٨٧) ، فليذهب كل واحد منكم في ناحية الى حيث شاء واراد .

فلما طال الوقوف قال الأمير خسن بن مراعي :

— يا مولانا ، انى آخاف عليكم ، ربما ان يكون العدو قريبا منكم ، فيعسر عليكم الدخول من مضيق قم الوادى ، فادخلوا بنا على بركة الله تعالى ، ثم بعد ذلك اجلسوا واستريحوا ودبروا أمركم كيف تختارون .

قال الناقل : فدخل السلطان طومانبای من باب الوادى ، ودخل وراءه الامراء والجناد .

(٨٧) اي الحلتكم من اي ارتياط او عهد . يقال آحله عن وعده اي تنازل له عنه .

فقالت الأمراء ، نحن معك لا نفارقك حتى تذهب
أرواحنا .

فلا زال بهم حسن بن مرعى حتى أوصلهم الى صدر
الوادى .

فضرروا للسلطان خيمة على تل عال على جانب البحر
المالح ، ونزلت بقية الأمراء في خيمتهم ، فما هدأت نفوسهم
حتى جاءوا للسلطان لضرب الرأي (٨٨) .

وأما حسن بن مرعى ، فإنه أخذ أذنا من السلطان ليرجع
إلى بلاده ، ويأخذ لهم الأخبار ، ويرسل لهم يعلمهم بما يقع
بالتفصيل .

فأذن له السلطان في ذلك ، ودعا له .

ثم قال السلطان لأمرائه : هذا الوادي خير لنا من
قلعتنا التي كنا بها ما لم يخنا حسن بن مرعى .

فقالت الأمراء كلهم على لسان واحد : الله يخون الخائن .

ثم رجع حسن ودخل منزله ، فسألته أمه عن السلطان
طومانبای .

فقال لها : قد أدخلته في غابة الوادي ، وهأنا قد
رجعت .

فقالت له أمه : فما تحب أن تصنع ؟ أخبرنى بما في
ضميرك *

فقال لها : إن هؤلاء القوم دولتهم قد ولت ، وأمورهم
قد حالت ، ولا سيما وعدوهم قد ملك البلاد وحكم العباد ،
وولي وعزل من أراد ، وهؤلاء ما عاد لهم من الأمر إلى ظهور
خيالهم ، وقد تعيرت في أمرى ، فان قاتلت عنهم فلا قدرة لي
على ذلك ، وإن قاتلت معهم أوقعت نفسى في المهالك .

فقالت له أمه ، وكانت من الصالحات : يا ولدى ،
الأيمان والعقود التي قد حلفتها أنت وابن عمك له ما تقول
فيها ؟

فقال لها : ولهذا أنا متغير في نفسي ، كيف أصنع .

فهو في هذا الكلام مع والدته وإذا بفرسان القبيلة قد
جاءوا مسرعين ، وقد علت أصواتهم ، وهم ينادون ، اركب
يا أمير حسن ، فانتا نظر عسکرا جرارا وخيلا ملأت
الأقطار .

فركب حسن بن مرعي وسار في أول الغيل حتى اجتمع
بأوائل العسكر القادمين ، وإذا بهم عسكر السلطان سليم ،
قد جاءوا في طلب السلطان طومانباي .

والسبب في ذلك أن السلطان طومانباي لما ركب في
المليل كما تقدم ولم يتبعه أحد ، وطلع النهار ، جلس السلطان
سليم وحوله أكابر دولته ، وجاء الأمير خاير بك ، ولم يأت
الأمير قانبردى الغزالى ، فسأل عنه السلطان سليم ، فقييل

له ، انه ركب نصف الليل و معه خمسة أنفار من مماليكه ،
وتبع السلطان طومانبای ، فهو الى الان لم يأت .

فخاف عليه السلطان سليم ، وقال لخاير بك :

— انظر الى قلة عقل صاحبك ، كيف يخاطر بنفسه ،
فانهم ان فطعوا به لا ينجو منهم آبدا ، وانه ان قتل تعطل
أمرنا .

وخشى السلطان أن يطول عليه الأمر ، وحسب حساب
الآحادي التي حول مملكته .

قال : فما الرأى عندكم ؟

قالوا : الرأى ما يراه الخنكار (٨٩) .
وأطرق رأسه مفكرا فيما يصنع .

وإذا يقابلي الغزال قد أقبل .

فلما حضر بين يدي السلطان سليم قال له :
— آين كنت يا قنبردى ؟

قال : يا مولانا السلطان ، انى لما رحل طومانبای
نصف الليل أحببت أن أنظر الى آين يذهب ، فركبت ، وتبعتهم
على بعد خشية أن يدرروا بي ، فرأيتهم قد سافروا الى ناحية
البحيرة أو الغربية .

فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام قال له : فما الرأى
عندك ؟

(٨٩) آى السعيد الموقق ، او الملك العظيم - محمد السعيد سليمان ، مرجع سبق
ذكره ، ص ٩٠ .

قال : الرأى عندي أن تعطيني ما أريد من العسكر ،
ويكون صعبتى للأمير خاير بك وأرجح نفسك ، فانى أرجو
الآن أرجع الا به أو برأسه .

فقال له السلطان : العسكر بين يديك ، خذ ما شئت
منهم .

فاختار أن يكون اياس آغا أغاه اليكنجريه بأربعة آلاف
معه ، وحاير بث باربعة آلاف خيال .

فأمر السلطان بذلك .

ففى الوقت ببرزت هذه العساكر ، وأمر على العساكر
فرهاد باشا ، يكون سردارا عليهم ، والأمير خاير بك ،
والغزالى يكونان تحت يده ، ويتقيدون برأيه .

فساروا فى آثر السلطان طومانباى ، وهم يسألون من
أهل البلاد ، حتى نزلوا على قبيلة محارب ، وخرج لهم حسن
ابن مرعى كما تقدم . فلما اجتمع بهم قالوا له :

— أنا سائرون فى طلب السلطان طومانباى ، هل سمعت
عنه خبرا ؟ إلى أين يذهب ؟

فقال لهم : الذى يدللكم عليه ويسلمه لكم من غير حرب
ولا قتال ، ماذا يكون له عندكم ؟

فقالوا له : ان أردت شارطنا على مهما تريده ، وان
جعلت الأمان لنا ولسلطانا ولروعتنا فيكون الذى يحصل لك
أكثر مما تؤمل أنت .

فقال لهم : على تسليمه لكم ، وأجعل الأمر بمروعتكم .

فضمن له الوزير فرهاد باشا أن يقدمه عند السلطان على جميع مشايخ العرب ، وأن يقطع أرضه اقطاعاً إلى أن يموت ، لا يؤخذ منه الدرهم الواحد .

ثم ان الوزير فرهاد باشا خلع عليه قفطاناً مذهباً من الخلع السلطانية ، وخلع أيضاً على ابن عمّه شكر ، ووعدهم بكل خير .

ثم خرج حسن بن مرعي - وابن عمّه وهما فرحانان - حتى دخل على والدته .

فقالت له : ما هذه الخلعة ، ومن أين جاءتك ؟

فأخبرها بما وقع له ، وأنه التزم لهم أن يسلمهم السلطان طومانباي .

فقالت له : أنسىتك ما فعله معك السلطان طومانباي ؟ قد أطلقك من العيس ، وأمنك بعد الغوف ، وحلفت له الآيمان بأنك ما تخونه ، فكان جزاًً منك أن تسلمه لعدوه ، وتظن أنك اذا فعلت تلقى خيراً بعده ، والله لئن فعلت ذلك لأغضبن عليك غضبة تكون سبباً لهلاكك .

فقال لها : فما الذي أفعله وقد رهنت لسانى معهم بأنى أسلمه لهم ، وإذا لم أفعل ذلك ما سلمت من شرهم ، وربما يبطلون بي فلا ينفعنى لا أنت ولا هو .

فقالت له : إن اثرى الصواب أن ترسل فارساً للسلطان طومانباي وتخبره بما وقع ، وأنه يكون على أهبة ، إن شاء

حاربهم وان شاء هرب الى جهة أخرى ، وأما أنت فارجع
اليهم فشاغلهم الى أن يطيب الطعام . فيبينما يأكلون يكون
طومانباي قد عدى بلادا بعيدة ، أو يكون قد تهيا للعرب
فتخليص أنت من الجهتين .

فوافقها على ذلك ، وخرج من عندها ، وهو متعدد كيف
يصنع ، ويقول لنفسه ، أين عقلك ؟ تقتدى بكلام النساء
الناقصات العقل والدين ، وتترك ما يحصل لك من السلطان
سليم من العز والجاه والفاخر بين العربان بسبب من غدرت
به الأيام والليالي ، وفاتت دولته ، وانقضت مدتة ، وإذا لم
 أمسكه أنا مسكه غيري وفاز بالفاخر والعز ، فليس هذا من
الصواب في شيء .

ثم انه اجتمع بابن عميه شكر ، وأخبره بما قالت له امه .

فقال له شكر : وهل عاقل يبيع عاجله بآجله ، ولا تمل
إلى الكفة الناقصة فيحصل لك الخسران .

فاتفقوا على أن يكونوا مع السلطان سليم .

واما السلطان طومانباي ف قال لأمرائه : انى أريد أن
أخبركم بما رأيت فى هذه الليلة ، رأيت أن قائلا يقول لي ،
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ، ويقول
لك ، ان دولتكم قد زالت ، وعمركم قد فرغ ، وأنك جارنا
فى الجنة بعد أربعة أيام ، ارجع عن القتال ، فلا قائدة لك
فيه ، وأنا قد عزمت على رمي سيفي فى هذا البحر المالح .

وقال لهم ، كل واحد منكم يذهب الى حيث أراد وهذا آخر اجتماعنا في الدنيا ، والقيامة تجمعنا في الآخرة .

قال الناقل : فبینما هم في هذا الكلام الا وقد رأوا الخيل قد أقبلت عليهم من بعيد .

فقامت الأمراء كلهم على ساق ، وركب الأمير شاريك وبقية الأمراء وأتباعهم وحطوا على عدوهم بقلوب كالعديد ، لكن العدو كثير ، وهم طائفة قليلة ، لكنهم فرسان عارفون برکوب الغيل ، وأولئك كثير غير عارفين بذلك ، لكن اعتمادهم الأقوى على الرماية بالبندق والضربيات .

فلما رأهم الغزالي حطوا (٩٠) عليهم قال للعسكر :

فسحوا لهم طريقا حيث ان طومانباي ليس هو معهم .

فصار من عسكر الروم الذي يقرب على الجراكسة يقطعونه بالسيوف الى أن وصلوا الى آخر الجراكسة ، وهرب بعضهم من مضيق الغابة الى خارج .

واما قاتصوه العادل ، فإنه ذهب الى أصهاره من عرب قطارة ، وكان معهم نحو ألفى فارس راكبة مع القبائل التي جاءت لنصرة السلطان طومانباي .

فلما رأوه ترك الحرب وفعل بنفسه هذه الفعال ، تركوه وأخذوا صهرهم ورجعوا ، وصحبهم سيدى يحيى ابن الأمير

(٩٠) المعنى : حطوا عليهم .

أزيك وطلعوا من مضيق الغابة قبل وصول العسكر مع
الذين هربوا .

وأما شاربك الأعور فانه خرج قبل وصول العسكر ،
وتبعه اثنان من مماليكه ، وكان بينه وبين الأمير أحمد بن
بقر شيخ العرب صحبة أكيدة ، بحيث ان الأمير أحمد هذا
اذا كانت مصلحة في مصر ما كان ينزل الا عند الأمير شاربك ،
فيقوم به الأمير شاربك خير قيام ، ويكرمه غاية الراكم ،
وليس الخبر كاذبيان ، وكان يقضى له جميع مصالحه من
جانب السلطنة ، ويقوم يناصره على أعدائه ، حتى ان الناس
كانت تقول ، لو لا الأمير شاربك مع الأمير أحمد بن بقر (٩١)
ما كان له حال ، وكانوا يتعجبون من محبته له وآكرامه ،
وقيامه بشأنه ، ويحسدونه على ذلك غاية الحسد ، حتى ان
الأمير شاربك كان يقول له : يا أمير أحمد ، طول ما رأى
تعيش لا تحمل هما أبدا ، ولا تعسب حساب أحد ولا السلطان
الكبير ، فان الأمير شاربك كان يحسب حساب أقرانه لئلا
يسعوا في هلاكه ، فانه كان فريد عصره في الفروسيّة
وركوب الخيل ، وكان اذا ركب وتزل في الميدان عند لعب
الجريدة مع النساء ، تغير التظاهر ولم يقدر أحد يقبل عليه .

وكان من شدة محبته اذا حصل له مضايقة من السلطان
او من أحد من الأمراء الأعيان يذهب الى صديقه أحمد بن
(بقار) ويدين أمره .

ولما كان من أمر السلطان طومانباي ما كان من تركه
القتال ، وتسليم نفسه للعدو ، وخرج الأمير شاربك من

(٩١) بقدر ، بتضليل التلف وفتحها .

الغاية ، قال في نفسه ، مالي بد من أن أسير إلى صاحبى الأمير
أحمد بن بقر (بقار) ، وأنزل عنده حتى أدب نفسي فيما
أفعل ، أما انىأسافر إلى بلاد العجم وأكون مع سلطانهم
أو أسافر إلى بلاد اليمن ، والله التدبير فيما يريده .

والشاعر يقول :

تعذر من صديفك كل يوم وبالأسرار لا تركن إليه
سلمت من العدو فما دهانى سوى من كان معتمد على
فما زال سائرا من بلد ، والدنيا قائمة على ساق ،
والعربان هاجت ، وصار كل مفعول جائز ، وكل من كان له
عدو قصده فان ظفر به قته ، وألناس مرتابون في بعضهم
في أشد ما يكون ، حتى وصل إلى التل السعيد ، وعدى منه
إلى الشرقية ، ثم سار إلى أن وصل إلى الأمير أحمد بن بقر
(بقار) آخر النهار وحده في منية غمر (★)

ثُرِّحبَ بِهِ وَأَنْزَلَهُ فِي بَيْتِهِ ، وَأَكْرَمَهُ غَايَةُ الْاِكْرَامِ ،
ثُمَّ حَكِيَ لِلْأَمِيرِ أَحْمَدِ بِمَا وَقَعَ لَهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ مِنَ الْأُولَى إِلَى
الْآخِرِ ، فَكُلُّهُمْ تَعْجَبُوا مِنَ السُّلْطَانِ طُومَانْبَايِ لِأَنَّهُ أَخْطَأَ فِي
هَذِهِ الْفَعْلَةِ الَّتِي فَعَلَهَا ، وَتَسْلِيمُ نَفْعِهِ لِأَعْدَائِهِ ، يَسْتَحْكُمُونَ
فِيهِ كَيْفَ شَاءُوا ، وَكَيْفَ يَرِي الْهُوَانَ بَعْدَ العَزِّ ، وَكَانَ
يَقْاتَلُ إِلَى أَنْ يُقْتَلُ وَلَا يَسْلِمُ نَفْسَهُ ، فَانْهُمْ لَا يَبْقَوْنَ عَلَيْهِ
أَبَداً ، وَتَبْقَى الْإِهَانَةُ وَالذُّلُّ وَالشَّمَاتَةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ أَقْبَعَ
وَأَتَعْسَنَ .

فقال الأمير شاربك : قد تم الأمر ، وذهب دولتنا ،
وما يبقى كلام الا التدبير في المسير من هذه البلاد .

(★) منية غمر : المسماة الان بيت غمر .

وقصد أن يرسل بحرمه وولده ، ويخرج ليقصد
بلادا غير هذه البلاد .

فقال له الأمير أحمد بن يقر (بقار) : يا أمير ، قال
العارفون ، من تأني ثال ما يتمنى ، اصبر حتى ننظر ما يتم
الأمر عليه .

فقال له الأمير شاربك : أين عقلك ؟ حيث ان السلطان
طومانباي سلم نفسه لعدوه ، هل بقى لك بعد ذلك شيء ؟
في غد تأتيك الأخبار بأنه صلب على باب زويلة ، أو علقت
رأسه عليها .

هذا ما جرى للأمير شاربك .

وأما السلطان طومانباي فانه بقى وحيدا فريدا ، وقد
رمى بجميع عدته وسلاحه وملبوساته في البحر الماليح حتى
المصفح الفولاذه الذي ليس له نظير في الدنيا ، والقنطرية
المفردة ، حتى الطير الجناح الذي لم يسمح الزمان بمثله ،
فانه كان صاعقة من الصواعق ، لا يضرب به على حديد
الا قطعه ، ولا على حجر الا فلقه ، فكان من تحف الملوك
القدماء .

فبعد ذلك حطمت (حطت) عليه العسكر ، يتقدمهم
اياس أغا أغاة اليكنجورية ، وخاير بك والغزالى وحسن بن
مرعى ، فاقتضى رأيهم أن يقبحوا عليه حيا ، ويأتوا به
للسلطان سليم يفعل به ما يحب ويختار .

ثم أمروا جميع العسكر أن يغمدوا سيفهم ، فانه قد
رمى سلاحه ولا بقى معه أحد يقاتل عنه .

ففعل البراكسة كما أمروا ، وعسكر السلطان سليم
كذلك .

ثم حلقوا (٩٢) عليه من كل جانب ، وصار بينهم
السبعين .

فعند ذلك نزل اياس والغزالى وخاير بك وجاءوا اليه .

فقال له اياس أغا : الأمر أمر الله تعالى ، فقم يا مولانا
السلطان ، اجعل يدك اليمنى فوق اليسرى ، ولا تؤاخذنا
فى ذلك يا مولانا .

وربطوهما من قدام ، وأوثقوهما ، فان الأعيان
لا يكتفون الا من قدام .

ثم قدموا له بغلة وأركبواه عليها ، وقيدوه من تحت
بطلها ، وأحاطت به اليكنجرية وبقية العسكر ، وجدوا في
السير ، كأنهم وقعوا بضريسة عظيمة او لقية ، ولو أمكنهم
آن يطيروا به لطاروا .

فأخذ يتكلم مع اليكنجرية ، فسألهم عن حالهم وعن قدر
جوامكهم .

فقالوا له : لكل واحد منا ستة عثمانة الى عشرة عثمانة .

فقال لهم : أنتم جئتم من بلادكم الى هنا لأجل ذلك !٩٠٠

قالوا : نعم .

(٩٢) تحلقوا عليه اى اجتمعوا حوله .

فقال لهم : بارك الله فيكم ، وبهذا قد غلبنا سلطانكم لطاعتكم له على هذا القدر البسيط ، والله ان جامكية أحدكم لا تكفى أن تكون جامكية سايس من سياسنا ، فواهله ثم والله لو تكونوا عسكري لجعلت لكل واحد منكم دينارا فى كل يوم .

فقال بعضهم لبعض : ما الرأى ؟ نطلق هذا الرجل ، ونكون أعواانا له ، ونأخذ دينارا فى كل يوم ، ونصير عنده فى أغزر ما يكون ٠٠ ٠

فمنهم من استصوب ذلك الكلام ومال اليه ، ومنهم من قال ، لا يغرنكم هذا الكلام ، فإنه ما قال لكم ذلك الا لما رأى نفسه وقع في أيديكم ، وهل يكون هذا قط أن يصير لكل واحد منا دينار في كل يوم ؟

فوقع فيهم الهرج .

ومازالوا سائرين به حتى وصلوا الى أوطاق السلطان سليم ، وكانتوا قد أرسلوا أولاقا (٩٣) وقت قيضمهم عليه يبشر السلطان بأنهم مسكون مسكا باليد ، وأعلموه كيف كان قبضهم عليه ، وأن شيخ العرب حسن بن مراعي هو الذي كان سببا في ذلك ، لأنه ما دلهم على موضعه الا حسن هذا وأنه حسن له عبارة دخله في هذا الوادي ، وحبسه فيه ، وأنه يستحق كل خير ، فإنه لو لا حسن هذا ما عرفنا له موضعا .

(٩٣) الاوشاق او الاوچاق احد خدم السلطان من يركبون الخيول - عاشر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٤ .

وذكروا للسلطان جميع ما وقع ، وأنهم قادمون به بالقييد والبند ، بعد أن كان قد رمى سلاحه في البحر المالح ، وسلم نفسه بالأمان وقد تشتت جميع عساكره ، ومسكناه باليد ، وهو واقف على جبل عال بمفرده .

ففرح السلطان بذلك غاية الفرح ، وقال :

ـ الآن ملکنا ملک مصر .

ـ فما تم الكلام الا وقد أقبلت العساكر ولهم ضجيج عظيم .

ـ فقام أوطاق السلطان على ساق ، حتى ان السلطان ارتقى من ذلك . وظن أن العدو قد هجم على أوطاقه .

ـ فقالوا له : البشارة ، هذا ایاس أغا وخاير بك والغزالى قد جاءوا بغير يمك .

ـ فلما وصلوا الى خيمة السلطان سليم ، خرج لهم الوزير الأعظم يوئس باشا ، وأمرهم أن ينزلوا السلطان طومانباي ، وأخبروه بالواقعة من أولها الى آخرها ، وأنه لولا الشيخ حسن بن مرعى هذا ما كنا عرفنا له طريقا .

ـ فشكره السلطان على ذلك ، ووعده بكل خير .

ـ فلما أصبح الله تعالى بالصبح ، أمر السلطان أن يعمل الديوان ، وأظهر ما عنده من الزينة الملوكيّة ، ورتبوا له أحسن ترتيب ، وحضر جميع العساكر ، ووقفوا بين يديه على حسب مراتبهم ، وأوكب موكبا عظيما ، ووقف

الليكنجرية صفوفا على أحسن ترتيب ، وكذلك المدافع في
ناحية العسكر صفوفا ، وجهزوا النار ، وهم متذمرون أمر
السلطان أن يطلقوا عليهم وعلى البنادق نارا وتندق الكامات
والطلبلخانات التي للسلطان والتي لوزراء والباشات
والأمراء .

ثم أمر باحضار السلطان طومانباي والأمير
حسن بن مرعى .

فلما حضر السلطان طومانباي أدخلوه من بين هذه
العساكر ، ورأى نظام العثمانية في أحسن ما يكون ، ونظر
هذه العساكر وهذا الترتيب الذي لا عين رأت ولا أذن
سمعت .

ولما دخلوا به على السلطان سليم خان سلم عليه السلام
الملوك .

فرد عليه السلطان سليم كما يجب ، ولم ينقص مقامه
في سلامه .

ثم وقف طومانباي ، فأمره بالجلوس ، فجلس وهو في
غاية التندم ، وقال :

ـ أني كنت طيرا طائرا ، وكانت الأرض واسعة
أذهب الى حيث أريد وأختار ، فسلمت روحى لعدوى بيدي ،
بسس ما كانت فعلة فعلتها أو جبت لي الهم والذلة ! . كل ذلك
خطر في نفسه ، وهو جالس لا يتكلم ولا أحد يتكلم ،
ولا يرفع صوته ولا رأسه .

فنظره السلطان سليم ، وتأمله يعين الفراسة ، فوجد فيه كل شيء يشهد له بالشجاعة والفروسيه وكمال العقل شاهد له لا عليه .

فتعجب السلطان سليم فيه ، كيف سلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شيء فيه يشهد بأنه جبان أبدا ، بل انه اذا رأه من لا يعرفه شهد له بأنه شجاع بطل !

ثم ان السلطان سليمما قال في نفسه ، انما هذا أمر سماوي آصابه وطالع نحس غريب غير صوابه حتى رمى سلاحه وسلم نفسه ، مع أنه قاتل قاتل الجبارية ، والالو هرب كانت الدنيا واسعة بين يديه أينما شاء ذهب ، وحيث طلب هرب .

ثم التفت اليه وقال له : يا طومانبای ، كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين ، أولا انى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى ، وأنت مقيم على ملك مصر ، وأنا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك الأرض ، فأبى ذلك وقتلت رسلي ، والرسول لا يقتل . فسرنا بعساكرنا لقتالك ، ورفعنا الأعلام ونشرنا المساکر على خراب ديارك ، فأول مقابلتك في الريدانية هزمناك الى الصعيد ، وأرسلت اليك رسلا الى الصعيد ، ومعهم قضاة بلادكم ، فلم تقبل الصلح وقتلت القضاة ، وتمديت شيم الكرام بقتل الرسل أولا وثانيا .

ثم عاتبه عتابا كثيرا .

فقال له طومانبای ، والله انه لم يكن شيء مما جرى بخاطري ولا بأمرى أبدا ولا برأيي ، وانى لما أرسلت الى من

الشام الرسل أكرمتهم ، وأمرت بنزولهم في دار الضيافة ،
وفي نيتى أن أفعل ما جاءوا به ، وأرد الجواب كما أمرتني ،
فلاقاهم الأمير علان وهم سائرون إلى بيت الضيافة فقتلهم .

فلمَا بلغنى عسر ذلك على ، وكذلك الرسل الذين
أرسلتهم جرى في حقهم ما جرى في حق غيرهم من غير
رضای ، وكل هذا ليس بأمرى ولا بارادتى ، وإنما جرت
بهم المقادير من رب القدير ، وحتى تجري الأمور على ذلك
على ما كانت من قديم الزمان ، لأن دولتنا قد زالت وأدبرت
دولتكم جاءت وأقبلت ، وهذا شىء كتبه الله تعالى في
القدم ، وأجرى به القلم ، ودارت به الأفلاك وسارت به
الكواكب ، وما آرادة الله فلا مرد له ، ولا يغلب الله غالب ،
تبارك وتعالى رب الأفلاك والكواكب ، ولو لا ذلك ما قدرت
أنت ولا غيرك علىأخذ بلادنا ، فإنه لو كان بالقوة والشجاعة
ما كنتم أقوى منا ولا اشبع ، وهأنتم رأيتم كيف فعلنا مع
عسكركم ، وكسرتكم كذا مرة .

وأما قولكم إنكم كنتم تريدون السكة والخطبة باسمكم
وأن تكونوا رؤوس الملوك بخدمة الحرمين الشريفين ، فأنا
والله ما آخذت السلطنة برغبتي وإنما قومي وعسكري
اختاروني ورغبووا في أن أكون أنا السلطان عليهم لما علموا
من زهدى في ذلك المال .

فلمَا تقلدت ذلك وجب على أن أرد عنهم وأدافع عن
أموالهم وأنفسهم وأولادهم وحرفهم ، وأما أنت فاما
قيامك في حظ نفسك لا غير ، خصوصاً ونحن مسلمون ،
فكيف تستحل قتل المسلمين وترمى عليهم بالمدافع والنيران ،

كيف بك اذا وقفت بين يدي رب العالمين ؟ فما جوابك ؟ وكل ملك وان تعاظم ملكه فهو لله عبد اصغر ، فما انت وأنا الا بجملة العبيد .

فتعجب السلطان سليم ثم قال له : أنا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الأعصار والأمسار ، وأنا كنت متوجها الى جهاد الرافضة والمجار ، فلما بعى أميركم الغوري وجاء بالعساكر الى حلب ، واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي الى مملكتي التي هي مورث آبائى وأجدادى .

فلما تحققت ترکت الرافضة ومشيت اليه ، ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتك ، وبعد حضورى الى الشام سمعت أنك عملت سلطانا على الكبشة الأجلاف وأنت لست لها أهلا ، والسلطنة لا تكون ولا تليق الا برجل يكون آباء وآجداده سلاطين ، وأنت وقايتبانى الذى هو أعظمكم والغوري ما أسماء آبائكم ؟ ومن أين لكم السلطنة ؟ ومن أين لكم الامارة ؟ كلكم أولاد نصارى ، وأنتم مماليك بلا عتاقة حتى بقيت من قلة عقلكم وقلة أدبكم تعملون الرجل منكم سلطانا ، ثم تعزلونه وتقتلونه ، أى يد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا ، وتطولوا أياديكم على السلاطين ، فأنتم وقومك كم قتلت من عسكري ، كل مسلم وابن مسلم ، فما جوابك عند الله تعالى .

فقال له مسرعا : ان الله تعالى قد أجاز لي ذلك ، قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ، وهو أصدق القائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٩٤) اللهم أن المرحوم الملك الأشرفى قانصوه

الغورى وقع بينك وبينه التنافس ، ودخلت الشياطين بينكم ،
ورمت الأعدى بينك وبينه ، وختم الله تعالى له بالشهادة .
وستقف أنت وهو بين يدي رب العالمين وأحكام المحاكمين ، وأما
أنا فليس بينك وبينك عداوة ولا أحد من عسكرك ولا غيرهم .

فقال له السلطان سليم : والله ما كان قصدى أذىتك
ونويت الرجوع من حلب ولو أطعنتى من الأول وجعلت
السكة والخطبة باسمى ، ما جئت لك ولا دست أرضك .

فقال له طومانبى : الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل
الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس
منا ولا أشجع منا ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى
حومة الميدان ، ونحن قوم قد خصنا الله سبحانه وتعالى
 بذلك ، ولكن أنا أعرف أن ما عليك أضر من هذين
الشيطانين الخائنين ، فإنه لو كان فيهما خير لكان لنا .

فقال السلطان سليم للحاضرين : والله مثل هذا الرجل
لا يقتل ولكن آخره فى الترسيم (٩٥) حتى ننظر فى أمره .

فأخذه اياس أغاثة ، وذهب به الى خيمته وأجلسه بها .

وأخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين فى شأنه ،
وإذا بالبشرة قد جاءت من عند الأمير أحمد بن بقر (بقار)
 بأنه قبض على شاربك الأعور ، وأنتم ترسلون من يأخذه .

(٩٥) الترسيم أي التحفظ وتحديد الإقامة .

فازداد فرح السلطان سليم بذلك ، وقال : من يذهب اليه
ويأتى به ؟

فقال الغزالى : على ذلك .

فقال له : أنت لها يا أبا منصور .

فقام الغزالى من وقته وخرج وأخذ معه مائتين من نقاطة
العسكر ، فما تم النهار الا وهم في منية غمر ، فوجدوا الأمير
أحمد بن بقر (يقار) واقفا لهم في الانتظار .

فلما اجتمع به قانبردى الغزالى وسلم عليه ، قال له
أحمد بن بقر (بقار) :

ـ انزل في الضيافة .

قال : لا يمكن ذلك ، فان السلطان سليم ، نصره الله
تعالى ، أمرنى أن أرجع اليه في يومى هذا ، فأسرع لنا
بشاربك . وسر معنا إلى السلطان ليكافئك على فعلك ،
ولا تخبرنى كيف مسكته الا ونفع سائرون .

فعنده ذلك أحضروه ، وهو مقيد مزند .

ووقع بصره على أحمد بن بقر (بقار) وقانبردى
الغزالى فقال لهم : الله يغون الخائق .

فلم يردا له جوابا .

وركبوه على بغل ، وقيدوه من تحت بطنه وطاروا به
كما يطير الغراب اذا أخذ البيضة .

ثم أخذ أحمد بن بقر (بقار) يعکى لقانبردى كيف
قبض عليه .

فإن الأمير شاربك لما خرج من الغابة بعد أن أيس من
السلطان طومانباي وقصد صديقه وحبيبه الأمير أحمد
ابن بقر (بقار)، فلما وصل إليه أكرمه وزاد في اكرامه،
وقال له ، لا تخف ولا تحزن حيثما وصلت إلى .

فعكى له الأمير شاربك على ما حصل من السلطان
طومانباي ، وكيف سلم نفسه لعدوه ورمى سلاحه في البحر
المالح ، وان ذلك كان سببا لانقضاض الدولة .

ثم دخل الليل فنام الأمير شاربك ليأخذ لنفسه الراحة ،
وكان له عدة أيام ولیال لم ينم ، ولا طرق النوم عينه ، فنام
واطمأن على نفسه .

فقال أحمد بن بقر (بقار) لأصحابه : خطر عندي شيء
اذكره لكم .

قالوا : وما هو ؟

قال : ان هؤلاء القوم قد زالت دولتهم ، حيث ان
سلطانهم قد سلم نفسه ، وانى أريد أن أفعل كما فعل حسن
ابن مرعى ، وأجعل لي يدا عند السلطان سليم ، وأخذ
الشكراوية على غيري .

فقالوا له : هذا هو الصواب .

قال : فقمت من ساعتى ودخلت عليه وهو نائم ، ومعنى نحو عشرة أو عشرين نفسا ، فضربته بالنبوت على رأسه بعد أن نبهته بسرعة .

فلما رفع رأسه وهو مدحى من الضربة التى فى رأسه وقد بطحته أمرت بقيمة الحاضرين ، فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه ، وأرسلت لكم على الفور أعلمكم بذلك .

فشكرا على ذلك قاتبى الغزالى ، وقال له : الآن قد اشتفي قلبي من هذا الأعور الغبيث .

ولا زالوا مجددين السير به حتى أوقفوه بين يدى السلطان سليم ، فتأمله ، ونظره ، فوجده من أكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليه ، وشجاعته لابسته ، ذو استكانة رهيبة ، ووقار وضخامة وحشمة (١٦) .

فأراد السلطان سليم أن يختبر كلامه حتى ينظر عقله ، فقال له السلطان سليم :

ـ كيف تنظر الدنيا يا شاربك ؟

فقال : كلا شيء .

فقال له : حيث كانت كلا شيء فكيف تقاتل عليها وتحارب فيها ؟

قال : ما قاتلت عليها ولا نافست أحدا فيها ، وإنما قاتلت عن مالى وعيالى وعرضى وأولادى ، وكتاب الله تعالى

وسمة رسوله صلى الله عليه وسلم أجازاً ل ذلك ، فاما الكتاب فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٩٧) .

وقال تعالى : « آذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » (٩٨) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عياله فهو شهيد » .. فنحن ما نقاتلكم الا باذن من الله ورسوله ، وأنت بأى دليل استحللت دماءنا وأموالنا ؟

فقال السلطان سليم : أولاً قد استفتيت عليكم وأجازني العلماء بذلك فإنه قد بلغنى أنكم تقتلون ملوككم ، وتأخذون الأمر بالسيف ، ولا تتفون على الحدود الشرعية .

فقال شاربك : أما قتلنا الملوك فهو كلام باطل ، فقد أقام المرحوم السلطان الأشرف قايتباي نحو ثلاثة سنّة وهو ملك مصر إلى أن مات رحمه الله تعالى . وأما ابنه محمد فقد تعدد العدود ، ولم يقف على حدود الشرع ولهذا قتلناه ، وأما الذين تولوا بعده فانا لم نر فيهم قابلية للملك ، فلهذا أقمناهم ، فمنهم من حبسناه ، ومنهم من قتلناه اتقاء لشره ، وقد اخترنا المرحوم الأمير قانصوه الغوري ، وجعلناه سلطانا ، فأقام إلى أن خرج اليك لأمر أراده الله تعالى في الأزل إلى أن حصل ما حصل ، وأخر الحياة الموت ، وما نعم

(٩٧) سورة البقرة . الآية ١٩٤ .

(٩٨) سورة الحج . الآية ٣٩ .

يأقون من الموت ، فقد قال الله تعالى : « إنك ميت وانهم ميتون » (٩٩) .

فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام من شار بك ،
 وأشار بيده ، أن أخرجوه .

فأخرجوه في الترسيم ، وأقعدوه .

قال الراوى : في اليوم الذى جاءوا بالسلطان طومانبى بعد سؤاله وجوابه قبل ما يعطيه الترسيم أشار إليه بيده ، أن أطلقوا المدافع والضربات والبنادق ، ودقن التوبة السلطانية ، ودقن الكاسات والنقاريات وأطلقوا المدفع والضربات والبنادق . وكبروا تكبيرات ثلاثة أيام حتى تزلزلت الأرض ، وضربوا التوبة من الوزير الأعظم ، وسائل الوزراء والباشات والأمراء ، وبعد آخرها وأشار على ترسيم السلطان طومانبى .

ثم أمر أن ينادى في جميع مصر بالزينة ، فزين الناس جميع مصر والقاهرة ، وجميع البيوت والدكاكين ، وأمعن الناس في ذلك وأشيع فيسائر اقليم مصر بأن السلطان طومانبى مسکوه بدلالة حسن بن مرعى .

وصار الناس منهم من يصدق ، ومنهم من لا يصدق .

ولما كان في ليلة العادى والعشرين من شهر ربيع الأول ، وكان السلطان طومانبى قد صلى العشاء ، وجلس

وهو كثير التفكير زائد التضجر ، وزائد الحسرات متتابع العبرات ، أخذته سنة من النوم وهو جالس ، فاذا هو شخص واقف قدامه .

وقال له : يا طومانبای ، قدم نفسك للرحيل ، فقد مضى الكثير والقليل وجاء الوقت المعلوم ، فانتبه من نومك فقد حصل فراقك من أهلك وقومك .

فانتبه مرعوباً فزعاً ، وتعود بالله من الشيطان ، وقرأ ما تيسر من القرآن ، فنزل عليه النوم شيء ثقيل ، فاضطجع كأنه ميت أو قتيل .

قال : ولم ينزل عليه من النوم طول عمره اثقل من تلك الساعة .

والسبب في ذلك أن الروح تعلم بفراحتها للبدن ، فتودعه بطيب الوسق .

ثم أفاق بعد ذلك فوجد نفسه كأنه صب عليه ماء من كثرة العرق ، وكان هو الذي أخبر بذلك عن نفسه للقاضي أصيل الطويل ، فإنه لم يأته أحد من أهل مصر غيره ، وأوصاه أن يغسله ويكتفنه بيده .

وقد فعل ذلك كما أوصاه .

قال الناقل : وما زال السلطان طومانبای على سهرته الى الصباح ، فلما تباينت الوجوه واذا بالجاويشية قد جاءوا

اليه ، والقاپوجية (★) وهم مسرعون . وقالوا له : قم ، فان
السلطان يطلبك .

فقام معهم وساروا به الى أن قرب من خيمة السلطان
سليم وأوقفوه ، واذا بقاپوجی آغاسى قد خرج من عند
السلطان ، وقال :

— قد بُرِزَ أمر السلطان بأن تسيراوا به الى باب زويلة
وتصليوه هناك .

وجاءوا له بالبغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت
البغلة ، ودارت حوله اليكنجريه العساكر من سائر الطوائف
وخرجوا به من أوطاق السلطان الى انبابه ، ونزلوه في
مركب ، وعدوا به الى بولاق ، ودخلوا به من مرجوش (★★)
إلى بين القصرين (★★★) ، وقد انقلب الدنيا بالضجيج
والبكاء والصياح .

وكان الواحد من عسكر الروم يجيء الى الرجل من أهل
مصر ، ويقول له : هذا الرجل الذي على البغلة هو السلطان
طومانباي ، أم غيره ؟
فيقول المصري : بل هو هو .

وكان ذلك اليوم على أهل المملكة أشأم الأيام ، وبكت
عليه الأرامل والأيتام .

(★) القاپوجية هم الحجاب ، كلمة تركية مقدّها قاپوجى .

(★★) مرجوش اسم شارع يتدنى من شارع الكلباتي وينتهي عند أول شارع
الشعراني ، وقد كان بهذا الشارع عمارة كبيرة يجتمع فيها تجار مصر .
(★★★) بين القصرين ، مكان معروف يقسم الجمالية ، وقد أطلق على شارع يتدنى
من قرب مسجد الحسين رضى الله عنه .

ذكر

صلب السلطان طومانبای على باب زویله

قال الراوى : فلما وصلوا به الى باب زویله وجدوا العجل مرخيا ، فأسرعوا به ونزلوه من على البغلة ، وصلبوه على غير مهلة . ثم بعد ذلك أنزلوه وساروا به في نعش الى قبة السلطان الغورى ، ففسله القاضى أصيل الطويل ، وكفنه من ثياب أرسلها له السلطان سليم من خاص الموصلى الرفيع ، ثم صلى عليه القاضى أيضا كما أوصاه ، ودفتوه فى فسقية القبة المذكورة .

وأرسل السلطان سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه .

قال الراوى : انه حضر الصلاة على السلطان طومانبای ، ثم ان الذى فرق الاكياس على الناس فرقها من غير عدد بالنصيب ، أعطاه ثلاث حفنات فضة (★) ، وأعطى القاضى أصيلا مثل ذلك ، وفرق الباقي على الناس من غير عدد بالنصيب .

قال : ثم ان السلطان سليم فى الساعة التى أمر فيها بصلب السلطان طومانبای أحضر الأمير شاربك الأعور ، وأمر بضرب عنقه ، فقطعوا رأسه .

(★) الفضة ربع المليم ، وكانت أصغر وحدة في العملة مثل البارة ، ويتصنّع عادةً عن الفضة ، وأحياناً من النحاس ، وكانت البالغة الكبيرة تقدر بالاكياس ، والاكيس يطلق على مبلغ ٢٥٠٠٠ فضة أي خمسة جنيهات .

وجاءت عياله وغلامه الحاج فارس فاستأذنوا في أخذه ، فادن لهم فأخذوه وجاءوا به إلى المدرسة البيبرسية (★) ، وغسلوه ، وصلوا عليه ، ودفنته في مسجد من داخل الخوخة التي عند الفرن بالقرب من داخل المدرسة المذكورة .

كان هذا آخر مدة الجراكسة ، وهو يوم الأحد ، العادي (★) والعشرين من شهر ربیع الأول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة .

قال المؤلف : الذي وصل إلى علمي من لفظ سيدى محمد ابن السلطان الغورى ، أن السلطان سليمان لم يكن في نيته قتل السلطان طومانباى ، وإنما كان السبب في ذلك خاير بك نائب حلب وقانبردى الفرزالى ، فانهما لما رأيا السلطان سليمان لم يسهل عليه قتله وصرح لهم في المجلس العام بأن مثل هذا لا يقتل ، لأنه لما رأى كلامه مسدودا وهو حق وصدق ، وثبت عنده صدقه وظهر له حاله ، ورأى من شجاعته ما يفوق الوصف لم يسهل عليه قتله .

وكان يريد أن يأخذه معه إلى بلاد الروم ويبيقيه عنده ذخيرة بعد أن يستعمله الأيمان المغلظة ، وقد ثبت عنده دينه وصلاحه .

وكان رحمة الله عليه محبوها لكل من يراه ، فلا يراه غريب ولا قريب الا أحبه ، وشهد له بالصلاح .

(★) المدرسة البيبرسية ، وكانت ملحقة بجامع بيبرس الموجود بحارة الجودية شارع المؤيد .

(★) ٢١ ربیع الأول سنة ٩٢٢ = أبريل ١٥٦٦ وفي هذا اليوم انشئت السلطان الغورى جامع الغورى بعرب يسار قره ميدان . وقد ذكر ابن ایاس ان شنق طومان باى تم في يوم الخميس الخامس عشر من شهر ربیع الأول سنة ٩٢٢ .

فخشى خاير بك على نفسه ، وكذلك قانبردى أن السلطان سليمان ان أخذه معه وصار بينهما اتحاد لا يبقى عليهما ، فأخذوا يدبرون الحيلة ويحسنون للسلطان سليم قتله ، وأنه متى أبقى عليه لا يقوم له نظام آبدا ، وربما يفسد عليه عسكره ، فإنه رجل شجاع وكريم ، الدنيا عنده لا قيمة لها آبدا ، وخصوصا للأجناد والعساكر .

فعمد ذلك اقتضى رأى خاير بك والغزالى بأن يكتبوا للسلطان ورقة ويرسلوها من غير أن يشعر بها أحد من الوزراء ولا من غيرهم .

ومن جملة ما كتبوا فيها : « فليعلم مولانا السلطان أن أهل مصر الذين تشتتوا من الجراكسة لم يصدقوا أن سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه . وكذلك أهل الأقاليم والعربان ، وأيضا فليعلم مولانا الغنكار ، أنك متى أبقيت عليه فقد ضيعت لقبك وسفرك وهلاك عسكرك وأموالك ، فإنه بمجرد ما تsofar من هذه البلاد لو كان تحت الأرض خرج منها ، وأفسد عسكرك بالعظام ، وتندم حيث لا ينفع الندم ، فإن أردت أن تطيعك المالك والبلاد وتحتوى على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ولا مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه ، وأرسل أصلبه على باب زویله ليراه الخاص والعام ، ويشاع ذلك فيسائر البلاد وتيأس الناس من بقائه ، وتروق الدنيا وتطمئن على نفسك وتملك هذا الأقليم العظيم الذي ليس له نظير تحت سماء الدنيا .

ولقد قال بعض الحكماء : عدوك لا تصافيه ، وصديفك لا تجافيه .

وقال آخر : من لم يحسب العواقب ما الدهر له
بصاحب » .

فعند ذلك أمر السلطان سليم بصلب طومانبای ، ورمي
عنق شاربک ، كما تقدم .

ذكر

صفة انسلطان طومانبای ، رحمة الله تعالى

كان رحمة الله عليه على ما حكا عنه سيدي محمد بن
المرحوم الغوري والقاضى أصيل الطويل ، والأمير رزمك
التاشف وغيرهم ممن رآه وعاشره ، وعرفه ظاهرا وباطنا ،
فاتفق الجميع على أنه كان مقداما خيرا بالعرب وموافق
الطعن والضرب ، والدخول فى الميدان والخروج منه ،
لا يرهب الأقىال ، ولا يخطر الموت له على بال ، وقد ذكرنا
ذلك فى حروبه ووقائعه ، وكان متوسط الطول ، ذهبي
اللون ، واسع الجبين ، أسود العين وال حاجبين واللحية . وكان
ديينا صالحًا خيرا فاضلا . زائد الأدب والسكن ، والخشوع
والخضوع ، ملازمًا لزيارة المشايخ ، الأحياء منهم والأموات ،
حتى أنه لما غسله الغاسل وقلعه ما عليه من الثياب وجدوا
على بدنـه جبة صوف حمراء ، وأوصى أن يدفنوه بها . ولم
يظهر عنه فى حياته شيء من الأفعال الرديئة أبدا ، لا شرب
الخمر ولا زنا ، ولا فواحش أبدا . وكان قليل الشهامة (١٠٠)
لا يظهر شيئا مما يفعله أهل التجبر والعنف ، وكان الغالب
على حاله السكينة والوقار ، وكان غالبا على نفسه ، رزينا
فى أحواله ، لين الكلمة إذا انخفض ، كثير الرحمة والشفقة
على كل أحد ، حتى أنه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة
فى قتال السلطان سليم صار الناس يتعجبون منه غاية العجب

(١٠٠) أى أن قليلا من الناس من له مثل شهامتـه .

ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة ، وكان الذي عمره ما رأه اذا رأه لا يشك في أنه عبد صالح ، فان الصلاح والأنس والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه .

وقد تقدم في التاريخ أن السلطان سليمما ما هان عليه قتله لما رأه وسمع كلامه ، وقال له : يا طومانبای ، لو كنت أطعنتني على مرادي بأن تجعل السكة والخطبة باسمي ما دخلت لك أرضا ولا بلادا ، ولا وقع بيدي وبينك حرب آبدا ، ولكن لكل شيء سبب حتى جرى القضاء والقدر ، وقتل من قتل ، وسلم من سلم .

وكانت زوجته خوند بنت قانبردى الفرزالي دويدار كبير (★) وتزوجت بعده برجل يقال له ابن الشيخ ابراهيم الكلشنى . وبقيت بمصر الى أن ماتت ، ولم يخلف السلطان طومانبای أولادا لا ذكورا ولا اناثا .

واكثرت فيه الشعرا من المراشى والقصائد ، ومضى لأن لم يكن .

وكان القاضى أصيل الطويل دائمًا يحكى عنه الحكايات الغريبة والأمور العجيبة ، التي تشهد له بأنه من عباد الله الصالحين . ومات القاضى أصيل فى سنة سبعين وتسعمائة .

قال الرواى : قد قدمنا في هذا التاريخ أن السلطان طومانبای توفي في يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربیع

(★) دويدار كبير ، كذا في الأصل ، وقد ذكره ابن ايس دوادار كبير ، وهو لقب يطلق بالتركية على حامل الدوحة والمقصود به صاحب ديوان الإنشاء .

الأول سنة تسعمائة واثنتين وعشرين (★) وانقطع اسمه من الخطبة على منابر مصر في أول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وكان من حين ضربت له السكة وأقيمت له الخطبة ثلاثة أشهر وخمسة أيام .

قال المؤرخ : وفي الساعة التي أمر السلطان سليم فيها بصلب طومانبى وقتل الأمير شار بك ، أحضر فيها شيخ العرب حسن بن مرعى وابن عمه شكر ، وشيخ العرب أحمد بن يقر (بقار) وخلع عليهم خلعا عظاما من أجل خلع الملوك ، وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده اقطاعا له . لا يحمل من مالها نديوان السلطان شيئا ولا درهما واحدا ماداموا في قيد الحياة .

وأرسلهم إلى بلادهم بعد أن أحسن إليهم أحسانا جزيلا وأكرمهم أكراما عظيما .

ذكر

تولية الكشاف ومشايخ العربان

قال الراوى : ثم أمر السلطان سليم بتولية الكشاف ، فولى الأمير جانم على البهنسا والفيوم ، وجانم هذا هو الذى تعارب مع السلطان طومانبى .

وولاهم على ما كانوا عليه في مناصبهم ، وأمر أن يكتب في الدواوين لجميع الحكام بعدم المعارضة لجميع أصحاب

(★) جاء التاريخ في الأصل يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان سنة تسعمائة وحادي وعشرين ، وهو تاريخ لم يقدمه الراوى كما يذكر ، وإنما التاريخ الذى سبق ذكره هو الخامس عشر من شهر ربیع الأول سنة تسعمائة واثنتين وعشرين .

الاقطاعات والأرزاق ، والأوقاف والجوامع ، وأولاد الأمراء وأمراء الجراكسة الذين تخلفوا ، وكل من بيده شيء من الأرزاق هو باق عليه ، وجعل لعنة الله ثلاثة مرات على من غير أو بدل شيئاً من ذلك .

ففرح الناس بذلك غاية الفرح .

ثم ان السلطان قال للأمير خاير بك : أريد أن أعلم قدر مال مصر ، وما يتجمع منها في كل سنة .

قال : يا مولانا الخنكار ، ما يعلم ذلك ولا يعرفه الا القاضي أبو بكر بن العبيان .

فأمر باحضاره .

فلما حضر قال له خاير بك : مولانا السلطان يريد أن تخبره بما يتجمد من مال مصر في كل سنة على وجه الاختصار .

فقال له القاضي : في غد ان شاء الله تعالى آتيه بخبر ذلك .

ثم انصرف ، ورفع الدفاتر التي كان قد جاء بها ، وجاء في ثاني يوم وقد كتب جملة خراج مصر على ظفره ، فأعجب السلطان ذلك ، وقال له : بارك الله فيك ، خير القول ما قل ودل .

ثم ان السلطان أمر بالرحيل من بر انبابة وجاء الى المقياس ونزل فيه ، ومعه جميع أكابر دولته وأعيان أجناده .

ثم ان السلطان خلع على شيخ العرب حماد بن خبيرشيخ عرب غزالة باقليم الجيزة ، وجاء اليه الأمير على بن عمرشيخ هوارة ، فخلع عليه بأمرية الصعيد بمدينة جرجا ، وخلع على علم الدين شيخ بنى عدى ، وكتب لهم التوقيع بذلك وخلع عليهم وانصرفوا .

قال المؤرخ : ومن عجيب ما جرى أن الأمير قانصوه العادلي لما سمع بشنق السلطان طومانبى وقتل الأمير شار بك ، كان عليه ذلك اليوم من أشأم الأيام ، وهجر الطعام والمنام .

ثم انه حدث نفسه بأن يتحيل بحيلة على قتل السلطان سليم ، فسهر ذات ليلة وهو متذكر فيما يفعله وكيف يتوصل الى ما أراد ، فدبب فى نفسه أن يلبس مثل العرب ويأخذ معه جماعة من أهل القوة وينزل الى مركب ليلا ويسيطر بها الى تحت المقاييس ، ويجعل له سلم تسليم ، ويصعد عليه وينزل الى تحت المقاييس ، ويقتل السلطان سليما ويأخذ بثار قومه ، وما علم أن الحى ما له قاتل .

ثم انه فعل ذلك حتى وصل الى الطيارة التى فوق المقاييس ، وهى محل السلطان ، فوجد الحرمس مستيقظين ، وسمع حديثهم ، فكمن فى محل وقال فى نفسه : أصبر لهم الى أن يناموا .

فلما سكت حسهم خلن أنهم قد ناموا ، وكانوا يتناوبون الحرمس بالساعات .

فقام ومشى الى أن قرب منهم ، ففطنوا به ورأوه بالعين ، فقاموا اليه يتضايرون بالسيوف مسرعين فى طلبه

فرجع هاربا الى الموضع الذى جاء منه وفيه سلم التسليم ،
فما ساعه الا أن رمى بنفسه من فوق الشراريف الى البحر ،
وارتمى في التيار .

وتبعته جماعته بالقارب فعصلوه وهو عائم ، فأطلعواه
وانحدروا به ، ولم يبلغ مقصوده .

وأما السلطان سليم ، فإنه قام مرعوبا من نومه لما سمع
الضجة ، وأطل من أعلى القصر ونظره وهو عائم في الماء ،
فأمرهم بالرمي عليه بالبندق ، فلم يصبه شيء من ذلك إلى أن
وصل إلى ساحل بولاق ، وبقى مقهورا لأنه لم يبلغ مقصوده .

وكان في علم الله الذي بقى من عمر السلطان سليم
ثلاث سنوات ، فإنه مات بالقدسية في سنة ست وعشرين
وتسعين ، ودفن بها .

ومن الغرائب ان مدفنه لا يذهب إليه أحد ولا يزوره
الا في النادر ، فإنه كان سفاكا للدماء ، لا يتوقف في قتل
أحد ، وأما تربة والده المرحوم السلطان بايزيد ، فإنها نيرة
عامرة مؤهلة بالناس لا ينقطعون عنها الا ان كان بعد صلاة
العشاء ، فإنه كان عبدا صالحًا لا يشك في ولايته .

وكان بيته وبين السلطان قايتباي مودة عظيمة ، ويهدى
بعضهم الى بعض في كل عام ، ويرسلون لبعضهم السلام ،
ويطلبون من بعضهم الدعاء الى أن توفاهما الله تعالى ، تغمدهم
الله برحمته ورضوانه .

وأعجب من ذلك أن خاير بك ملك الأمراء بمصر لما أن
آcamele السلطان سليم على مصر الى أن يموت ، فأمر بعمل

ترية لنفسه وجعلها في باب الوزير على طريق القلعة ، يمر عليها الباشات والصناجق والأغوات عند ذهابهم وايابهم ، فلم يلتفت اليه منهم أحد ، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة ، مع أنها تربة مليحة المنظر ، ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق ، لأنه كان سبباً في هلاك ألف مؤلفة من الجراكسة والأروام (١٠١) والعرب وغيرهم .

فإن بعض العذاقي من المؤرخين قاسوا وقعة الجراكسة مع السلطان سليم على وقعة تيمورلنك الذي أخرب حلب والشام وقتل أمّلها عساكر ، فوجدوها قدرها خمس عشرة مرة تقريباً .

قال المؤرخ : ثم ان السلطان سليم اشتهر خاطره الى ان يذهب الى الاسكندرية ويترفرج عليها ، ويعطي بها علماً ، فرأى مدینتى ذوة ورشيد وغيرهما من البلاد . ورأى تلك الأرザق ورأى الجزات التي كانت في أيام الجراكسة ، فتعجب من ذلك ، وقال : ان هذا الأقليم لا نظير له في كثرة الأرザق والجزات .

ثم انحدر الى رشيد وأحاط بها علماً ، ثم طلع الى البر الى الاسكندرية وأقام بها ثلاثة أيام ، ثم رجع ونزل في المقياس ، وبقى كل ليلة ينزل في الذهبية التي عمرها لسلطان قانصوه الغوري ، وكانت كلها منقوشة بماء الذهب كالأسقفه التي في الغورية وكانت لها بهجة عظيمة ، وكان الحاج عبد القادر الأعرج هو الرئيس الذي يمسك الدفة ويقلع به ويحدّر .

فاتفق انه فى بعض الليالي أراد السلطان الطلوع من الذهبية الى المقياس ، فلما قاربت الذهبية سلام المقياس هم السلطان أن يطلع فلم تصل رجله الى درج المقياس ، وكاد أن يسقط بين الدرج والذهبية ، وال الحاج عبد القادر واقف يحذائه ليطلعه ، فلما رأه هوى الى البحر وكان يتلاحق به ، فما حصل الا عنقه ، فأمسكه وجذبه الى الذهبية من الماء ، فساعدته عمر السلطان ، فأطلاعه الى المركب وقد غاب عن صوابه ، وأيقن بالغرق ، فلما ردت اليه روحه قال له : تمن على يا عبد القادر .

فقال : تمنيت أن أكون معرف البحرين .

فكتب له السلطان أن يأكلها الى الممات من غير أن يعمل منها الى الديوان شيئاً مطلقاً ، وأن يكون مسموع الكلمة منقاد الحرية الى أن يموت ، وأعطيه عطايا الملوك .

ولما أصبح السلطان أمر بالرحيل من المقياس .

فأنزله خاير بك في بيت ترابية الذي على بركة الفيل ، فانه ليس له نظير في حسن بنائه ومنظره .

فأقام بها أياماً ، ثم أمر بالرحيل الى القدسية ، وكان من أمراء الصناجق أمير سكن في قنطر السبع ، فهجم عليه طائفة من اليكنجية ، فقتلوه .

فوصل خبره الى السلطان ، فقبض عليهم وقتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو العشرين رجالاً .

ثم ان السلطان سليمما قبل الرحيل (★) بيوم خلع على خاير بك نيابة مصر ، ولقبه ملك الأمراء ، وأبقى عنده خمسة آلاف يكتنجرى ، ما عدا العسكر الغيالة ، وقال له : أعطيتك هذه المملكة اقطاعا لك الى أن تموت .

و كذلك فعل بقانبرى الغزالى ، فأعطاه الشام اقطاعا له الى أن يموت .

ثم ان السلطان أمر خاير بك بأن كل من جاءه من الجراكسة الهاريين وطلب منه الأمان أن يقبله ويبقى عليه منصبه . وأوصاه وأكد عليه فى ضبط البلاد والانصاف بين العباد .

ثم ان السلطان انصرف وامر بالسفر (★★) .

فلما سمعت الجراكسة بذلك اطمأنت قلوبهم .

فجاء الأمير رزمك الناشف والأمير يارديك وسيدي على بن سودون الدوادارى وغيرهم من كانوا هاربين مختلفين ، وطلبوا الأمان من خاير بك فأمنهم .

(★) ذكر ابن اياس ابن ابن عثمان لما رحل عن مصر ترك بها من عساكره من يقيم بالقاهرة عند خاير بك نحو خمسة الاف فارس ، ومن الرماة بالبنادق الرصاص من نحو مائة رام ، وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا ، وجعله ثائب القلعة ، فيقيم بها ولا ينزل الى المدينة .

(★★) يذكر ابن اياس ان السلطان سليم خرج من مصر وفى صحبته ألف جمل محملة بما بين ذهب وفضة عدا ما غنمته من التحف والسلاح والصينى والتحف المكتف والخيول والبغال والجمال حتى نقل منها الرخام الفاخر وأخذ منها من كل شئ أحسن مما لا فرح به أباوه ولا أجداده من قبيله ابدا ، وكذلك ما غنمته وزراوه ، وفى مدة اقامته ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل ، وبطش منها نحو خمسمائة منيعة .

واستقل خاير بك يملك مصر ، يتصرف فيها تصرف
الملوك (★) .

وأما سيدى محمد بن الغورى ، فإنه آخذة السلطان سليم
معه إلى بلاد الروم ، وكذلك الأمير قانصوه العادلى ، فان
السلطان سليم لما أت جاءه قانصوه العادلى فى المركب ،
وطلع من على شراريف المقياس يريد أن يقتل السلطان سليم
كما تقدم ، وقد كان السلطان أرسل خلف خاير بك ،
وقال له :

— لابد أن تأتينى بخبر هذا الرجل الذى خاطر بنفسه
وجاء فى الليل ليقتلنى .

فاستقصى خاير بك الخبر فقيل له : هذا هو الأمير
قانصوه العادلى .

فلما أخبر السلطان به قال له : لابد وأن تأتينى به .

فقال له : يبرز أمرك بالأمان ، فلعل أن يطيع ويدخل
فى يدنا . فخلف السلطان أيمانا مغلظة أنه ان قابله بالأمان
فعليه أمان الله ورسوله ، والخائن يخونه الله تعالى .

فأرسل له خاير بك من استعطف بخاطره ، وقال له ،
ان السلطان قد ندم على ما فعل من قتل طومانبى وشاربك ،

(★) ذكر ابن اياس أن مدة اقامة السلطان سليم بعصر ثمانية أشهر الا أيام ،
وأنه لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ولا راه أحد . ولا انصف مظلوما
من ظالم فى محاكمة ، بل كان مشغولاً بذاته وسكنه واقامته فى المقياس بين الصبيان
المرد ، وما كان يظهر الا عند سفك دماء المالكى الجراكسة وما كان له أمان اذا اعطاء
لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلمه ناقص ومنقوص لا يثبت على قول واحد
كعادة الملوك فى انفعالهم ، وليس له سمات يعرف ، وأما عسکره فكانت عيونهم جائعة
وتفوسهم قذرة (انظر بدائع الزهور لابن اياس ج ٥ ، ص ٢٠٨) .

وما كان قصد السلطان شيئاً من ذلك وإنما عنادهم هو الذي أوجب ذلك ، فانهم لو أطاعوه من الأول وجعلوا السكة والخطبة باسمه لكتفهم ورجع إلى بلاده وأبقاهم على بلادهم ، ولكن جرى القلم بما به الإله حكم ، وقد تم الأمر وما بقى لا شر ولا حرب ، والأولى والأحسن أن تقابل السلطان وتتأمن على نفسك ومالك وعيالك .

فلم يسمع الأمير قانصوه العادلي ذلك الكلام طاب خاطره للمقابلة وقال في نفسه : أما الموت فلا بد منه ، ومن لم يتم بالسيف مات بغيره . فتوكل على الله وسلم أمره لله وقدم على خاير بك ليلاً .

فلما اجتمع به خاير بك تلقاه بأحسن ملتقى ، وقال له : ما بقى كلام وقد مضى ما مضى . وتكلم معه كلاماً كثيراً وضمن له من السلطان الأمان ، وأعلمته بأن السلطان لا يخالف خاير بك في شيء من ذلك ، فإنه كان يعتقد محبتة له .

ولما طلع النهار ركب خاير بك وقانصوه العادلي وذهبوا إلى السلطان سليم ، فلما وقف بين يديه نظر إليه وتأمله ، وقال له :

— ما اسمك ؟

فقال : أسمى قانصوه العادلي .

فقال : أنت الذي جئتني في الليل وأنا في المقياس ؟

قال : نعم .

قال : صف لي كيف صنعت ؟

فوصف له جميع ما صنعه .

فقال له السلطان : لأى شيء فعلت ذلك .

قال له قانصوه العادلى : أما تدرى ما صنعت أنت وما فعلت فى سلطانا ، وما أهلكت من عساكرنا ، وما أخربت من بلادنا وديارنا ، وما يتمت من أطفالنا وما هتك من حريمينا ، وما أخذت من أموالنا ، وما فعلت معنا من فعل لم يفعله أحد من قبلك ونحن مسلمون مؤمنون موحدون حماة الدين ، ونقرأ كلام رب العالمين ، سنيون ، فما ذنبنا ؟

قال له السلطان سليم : يا قانصوه ، والله ما كان هذا في خاطرى من الأول ، ولا كان قصدى شيئاً من ذلك أبداً ، الا أن ملکكم الذى هو قانصوه الغورى لما أرسلت له وكاتبته وأنا ذاھب الى قتال قزليباش الرافضى أرسل لي جواباً ناقضاً وأغلظ على فيه ، ثم أرسلت له ثانياً لما أبلغنى عنه ما كان يفعله بالناس من المضاررات والقتل فى الأمراء والأعيان فقلت له ، كف عن ذلك وأنصف الناس من بعضهم ، فان كل من كان خادماً للحرمين الشريفين لا يكون الا عادلاً منصفاً عاماً بالكتاب والسنّة متمسكاً بالشريعة ، فـأرسل لي جواباً بأنه قادم بأشراره ، فتوجهت اليه وجردت عليه ، وقد نصرني الله تعالى عليه ، ورمى كيده فى نحره ، وانظر كيف ألقى الله تعالى فيكم الفتنة ، كيف كنتم تخونون بعضكم وتفسدون ، فكان ذلك سبباً لزوال ملکكم ، ولكن هذا ليس هو بقدرتي ولا بقدرتكم ، ولكن هذا بتقدير الله تعالى ، وقد تم الأمر

على ذلك ، ولكن يا قانصوه قد عطف الله قلبى عليك ، وقد
أمنتك على نفسك ومالك وعيالك ولا بقى يحصل لك مني
آذية أبداً .

فقبل الأرض بين يديه ودعا للسلطان واعتذر له بأنه
ما جاء له في تلك الليلة الا لشدة ما حصل له من القهر
فيما تقدم .

ثم ان السلطان خيره في أن يقيم في مصر معززاً مكرماً
او يذهب معه الى بلاده .

فاختار الذهاب معه معبة في ابن أستاذه سيدى محمد
ابن الغوري .

فأخذه السلطان سليم معه ، وأمر عسکرہ باكرامه ،
وبقى السلطان في كل يوم يطلبه ويتحدث معه في الطريق
ويعجبه كلامه وفصاحته وأجوبيته ومعرفته وفضله وشجاعته .

وكان السلطان سليم في كل حين يأمره بأن يلعب بين
يديه بالرمي والسيف وأنداد العرب ، ويعجبه ذلك ويقول
لعسکرہ :

– انظروا هل فيكم من أحد يعرف يعمل شيئاً من ذلك ؟

ف قامت نفس يوتس باشا الذي هو الوزير الأعظم ،
فاغلظ في الكلام على السلطان ، وقال له من بعض قوله :
– ما الذي فعلته ؟ أخذت البلاد من الجراكسة ، ثم

أعطيتها لهم ثانياً ، وعاديتهم وقاتلتهم ثم صافيتهم ، فما هذا

الرأى ؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعنك في شيء
من ذلك .

فقمت نفس السلطان من هذا الكلام ، فأمر بضرب
عنقه في العال وقتل غالب أخصائه تبعا له .

ثم هرب ابن يونس يasha وبعض جماعته إلى مصر ،
فقبض عليهم خاير بك ، ثم أرسلهم إلى السلطان سليم ،
فقتل الجميع .

ولما وصل إلى دمشق خلع على قانبردي الغزالى ، وأعطيه
الشام اقطاعاً إلى أن يموت ، لا يؤخذ منه من مالها ولا الدرهم
الواحد .

ثم سار إلى القسطنطينية ، وأمر بالزينة ، فأمعنت بلاد
الروم في ذلك .

فأقام بها إلى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن في
مدفنه الذي كان عمره في حال حياته بمدينة القسطنطينية ،
وكانت وفاته في السادس شوال ، فكانت مدة سلطنته ثمانى
ستين وثمانية أشهر وتسعة أيام .

ثم آل الملك لولده السلطان سليمان ، وكان من الملوك
العادلة ، رحمة الله عليه ، ومكث في الملك نحو ثمانية
وأربعين سنة وشهور لا يختل له نظام أبداً ، وكان ملكاً كريماً
عادلاً فاضلاً ، ذا هيبة ووقار .

ذكر

خروج الغزالى نائب الشام وسلطنته بها

قال : فلما بلغ قانبردى الغزالى موت السلطان سليم ، وقد تولى ابنه السلطان سليمان وهو شاب صغير ، طمعت نفسه الغبية فى أن يتسلط فى الشام ، ويعيد الملك الى الجراكسة كما كان فى الأول ، ويكون هو السلطان ، وتعلقت آماله بالمحال .

فأخبر أخصاءه بما فى نفسه .

فقالوا له : ليس لنا قدرة على ذلك ونعن فئة قليلة ، ولكن أرسل الى خاير بك صاحب مصر ، أعلمه بذلك ، فان وافقك على أن تفعل ما قلته فافعل ، والا فلا قدرة لك على عسكر الروم وكثرتهم ونيرانهم ، فهل نسيت ما تقدم ؟

فقال لهم : انما كان ذلك من السلطان سليم ، وانما هذا ولد ليس له قدرة على فعل شيء من ذلك ، ولا أظنه يتم سنة فى الملك ، وما علم أنه يقيم فى الملك ما يقرب من خمسين سنة .

ثم أرسل أعلم خاير بك بما فى ضميره .

فأرسل له خاير بك جوابا يعذرها أنه لا يفعل شيئا من ذلك ويقول له :

- أما يرضيك اقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك ؟
فيايك ثم اياك أن تتفوه بشيء من ذلك .

فلم يقبل من خاير بك ، وسولت له نفسه الخبيثة بأن
يتسلط .

وأرسل الى خاير بك ثانية يقول له : ان لم تطعنى على
ذلك والا جردت عليك وحاربتك ، اما بي واما بك .

فلما رأى خاير بك منه الجد ، أرسل يخادعه فى الكلام
ويقول له : ان كان ولا بد وأنت معمول على ذلك اذهب الى
حلب وخذها ، فان ملكتها فأنا مساعد لك فيما تقدم وموافق
لك على ما تقول .

ولما جاء الجواب له بذلك فرح به .

وأرسل خلف سيدى محمد ابن الأمير قرقماش ، وقال له :
- انظر كتابة الأمير خاير بك ملك الأمراء الذى تقول
انه لا يوافق على شيء من ذلك .

فقال له سيدى محمد : والله انى لم أصدق شيئاً من
ذلك ، وانما خادعك بهذا الكلام لما رأى منك الجد ، ولكن
ان قبلت رأيي اترك هذا الأمر عن بالك ، واقعد فى حالك .

فقال له الغزالى : الذى ظهر لي أنك رجل ابن ناس ،
وزيزة (١٠٢) مربى فى الدلال ، اقعد أنت فى الشام
واحفظ لي البلد الى أن أرجع اليك وتتنظر الرجال .

فقال له : هانا قاعد لك هنا ، واذهب حتى انظر كيف
تصنع ، وما أخوفنى عليك ! .

ثم ان الغزالى جرد على مدينة حلب ، ولفق له عساكر
من كل جنس من عرب ومن جركس ، ومن كرد ومن دروز ،
ومن سفل العالم ، وممن لا خير فيه .

وخرج من دمشق فى ضجة عظيمة من شرار الناس وممئع
لا يرجى خيره .

ولما وصلت الأخبار الى نائب حلب ، وكان أميراً من
صناجق السلطان سليم روميا لا قدرة له على تلك الجموع ،
فما ساعده الا أن كتب بذلك كتاباً ، وأرسله مع عشرة
جاويشية الى السلطان سليمان ، بأن يرسل له عسكراً يردد
الغزالى ، والا أخذت حلب من يدي ، وهاتا معاصر الى أن
يريد الله بأمر يريده .

فبعد ذلك أمر السلطان سليمان اياس باشا الذى كان
أغاً ال يكنجية مع السلطان سليم لما أخذ مصر من البراكسة ،
وأيضاً له معرفة تامة بالغزالى وخاير بك من ذلك العهد .

فخرج من مدينة اسلامبول قاصداً الى مدينة حلب ،
وأخذ خمسة آلاف من ال يكنجية وعشرة آلاف من الاسباھية
ومن الضرايزانات وآلات العرب وشيئاً يفوق الوصف .

هذا ما كان من يأمر اياس باشا .

وأما الغزالى، فإنه كان قبل خروجه من دمشق الشام منع
الدعاء للسلطان سليمان في الخطبة ، وأمر بالدعاء له ،
وأيضاً جعل السكة باسمه ، وتسلط ، وأطاعته العساكر
وأهل الشام ، وخطب له على منابرها ، وأمر بالزينة
فزيت له زينة لم يعهد مثلها مدة سبعة أيام .

ثم أمر بالتبrieriz الى مدينة حلب كما تقدم .

ولما وصل اليها ، وجد أبوابها قد قفلت وطلعت الناس على سورها ، فلما قرب منها رموا عليه بالمدافع والأحجار ، فأمر بالاقامة لأجل أن يعاصرها فمكث ثلاثة أشهر ، ولم يقدر على أخذها ، فدخل عليه الشتاء واشتد البرد ، فما وسعه الا الرحيل عنها ، ونوى أنه ان جاء الصيف يرجع اليها ولا يرجع حتى يأخذها طيبة أو غصيبة .

ثم أمر بالرحيل ، فأخذ عساكر حلب وأهلها في شتمه وسبه ولعنه ، وهو يسمعهم ويسمع كلامهم وصيامهم وضحكهم عليه ، فرجع مخزيا مشتوما مطرودا .

فلما وصل الى دمشق ، تفرقت تلك الجموع الى بلادهم ، وقد دخل عليهم الشتاء ، وقايسوا من البرد والمطر ما لا يوصف .

واما الغزالى فإنه ضاق صدره ، وجاءته الأخبار بأن باشة حلب قد كاتب السلطان سليمان ، وأنخبره بما فعلت ، وان عساكر الروم قد قدمت عليك مع اياس آغا ، وها هم متظرون ذهاب الشتاء ودخول الصيف ويأتون إليك في عسكر بسد الأرض ، فانظر كيف تصنع ، فإن أمكنك الهروب فاهرب .

وكان المرسل له هذا الخبر رجلا من أصحابه من أهل حلب ، وسفه رأيه .

فعمد ذلك اضطراب حال الغزالى وندم على ما فعل حيث لم ينفعه التندم ، وكتم ذلك في سره ، وبقى حيران في نفسه

كيف يصنع ، ان هرب ما يسهل عليه ترك البلاد ، وان اقام لا قدرة له على ملاقة الروم ، وقد تشتتت منه تلك الجموع التي كان جمعها وذهب الى بلادها .

وأيضا انه كان قبل ذلك لما أراد أن يتسلطن دبر حيلة وحللت بيده ، وهو انه أمر بعمل مولد ، وبasher في عمله ، وأمر بأن يحضره جميع عسكر دمشق الذين كانوا مع السلطان سليم ، وأباقاهم في دمشق مع قانبردى الغزالى من السنائق والأغوات واليكنجرية وغيرهم .

فلما اجتمعوا عنده ، مد لهم سماطا طويلا لم يعمل مثله أحد ، وجلست الأعيان في أعلى السماط ، ثم من دونهم بالترتيب الى آخر السماط ، فالتهوا في الأكل .

وكانت ممالike وآتباعه واقفين خلف الدين يأكلون على السماط وكل واحد منهم سيفه تحت ثيابه ، وهم يتعاطلون الخدمة .

فبعد ذلك أشار لهم ، فحطموا أيديهم في الأروام الذين على السماط مما شعروا الا ورؤوسهم طائرة ، فوقعت رؤوسهم في الطعام ، فلم ينج منهم أحد ، فقتلواهم أجمعين ، وصار الطعام كله رؤوسا ، وتلف الطعام من كثرة الدماء والقتلى .

فأمر باخراجهم ورميهم خارج دمشق ، فأكلتهم الذئاب والعداء والغربان .

ولما فعل ذلك ، صفت له دمشق ولم يبق عنده من يعارضه فيما يفعله ، فبعد ذلك تسلطن كما تقدم ، وما زال في هم

وغم حتى فرغ الشتاء ودفئت الدنيا ، فجاءته الأخبار بأن
اياس باشا قادم عليك في عساكر لا تحصى .

فازداد غما إلى غمه ، وأمر بالخروج إلى ملاقة
العسكر ، وقال أما بيختى وأاما ببختهم ، ولكن ندم على
ما فعل غاية الندم حيث لا ينفعه الندم .

وذلك من الحمق ، فان الأحمق يسعى في هلاك نفسه
وهو لا يشعر .

واما اياس باشا فانه لما وصل الى حلب ، خرج اليه ثائب
حلب وقابلة وأخبره بما فعل من اقفال أبواب البلد ، وانه
رمى على الغزالى من أعلى السور ، وانه أقام محاصرا لهم
ثلاثة أشهر ، ثم دخل عليه الشتاء فرجع الى دمشق وذكر له
جميع ما وقع .

فشكره اياس باشا على ما فعل ، وخلع عليه وعلى أغاة
ال يكنجية الذين كانوا بحلب ، ثم قصد دمشق والتى (١٠٣)
عليه عساكر كثيرة لا تحصى ، فانه بقى كلما دخل مدينة أخذ
منها جماعة ، فصار فى جيش عظيم .

فلما وصل الى ظاهر دمشق ، أرسل جاويشا بكتاب الى
قانبردى الغزالى بأن يتاذهب للعرب والقتال والطعن والنزال
وينظر ما تفعله الأبطال ، وأخذ يوبخه ويعطى ذلك .

ومن جملة ما قال له فيه : انه لو كان فيك خير كان
لأبناء جنسك فالذى ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير

لغير جنسه ، يا خائن يا قاجر يا غدار يا مكار ٠ وأخذ يسيبه
سبا مبرحا ، ويسود وجهه ويلعنه ٠

ويقول له : إنما هذه نيتك الخبيثة انقلبت عليك ،
فسوف ترى صنع الله في غد إن شاء الله تعالى ٠

فلما وصل ذلك الكتاب للغزالى وقرأه ، ازداد غما على
غمه ، وضاق صدره ولم يتم تلك الليلة ولا طرق النوم
جفنه ، وأحس بزوال النعمة عنه ، ولم تبق له حيلة يعتال
بها أبدا ٠

فما ساعه الا أن تأهب للقتال ، اما له واما عليه ، وقد
تحقق أنه لا خلاص له من ذلك ، وانه قد خسر خسانا
مبينا ، ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك لأحد من خلق الله تعالى ،
وكتم ما عنده ٠

ولما طلع النهار ، أمر باقامة الحرب وقد صفت عساكره
ودق طبله ووقف بنفسه يرتب الميمنة والميسرة ، فلما تم
ذلك وإذا بعساكر الروم قد أقبلت صفوفاً صفوفاً ، ووقف
اياس باشا والتزم القتال ٠

فأمر اياس باشا الرماة أنهم لا يرمون حتى يأذن لهم
في الرمي ٠

فحمل الغزالى على عسكر الروم حملة واحدة ، فشتتهم
بها ومزقهم كل ممزق ، وصار يقاتل قتال من أيس من
الحياة فقتل من الروم مقتلة عظيمة ٠

فلما عاين اياس باشا ذلك ، أمر الرماة بأن ترمي
بالبندق والمدافع والضرابزanas فما شعر الغزالى الا والدنيا

قد انقلبت والقيامة قد قامت وانطيق الجو من الدخان
والغبار .

فما كانت الا ساعة واحدة ، وقد ذهبت تلك العساكر
والجموع وما سلم منهم الا طويل العمر ، وبقى الغزالى
واقفا لا يعرف كيف يصنع ولا أين يذهب ، فاللتفت فوجد
صنيعه واقفا ليس عنده أحد ، فجاء الى حامل الصنبع ،
وكان شبابا شجاعا اسمه على بالي ، رباء الغزالى عنده من
صفره ، ولكنه ليس جركسيا ، فلما رأه الغزالى شجاعا قربه
الى ه حتى جعله حامل لوائه ، وكان يصرخ ويقول : ان عليا
هذا عندي أعز من ولدى .

فلما رأه واقفا والصنبع فى يده قال له :

— يا ولدى .. انى متى أنت تقف وعساكرنا كلهم
هلکوا وتشتتوا ؟

قال : والى أين أذهب ؟ روحى قبل روحك ، لا أفارقك
حتى تذهب روحى .

فشکره الغزالى على ذلك ، وقال له : يا ولدى ما بقى لنا
غير الفرار من هذا العسكر الجرار .

فقال له : والله يا سيدى ما عملت فىنا خيرا ، وما ضرك
لو كنت باقيا على ما أنت عليه آمنا على نفسك ، وان كنت
سلطانا مخفيا سعيت فى هلاك نفسك وآهلكتنا فى جرتك .

قال : ما كنت أظن أن الأمر كذلك ، وان العساكر تفر
مني وينقلب الأمر .

فقال له على : ان العارفين قالوا من لم يحسب العاقب
ما الدهر له بصاحب .

فقال : يا ولدى ، مدام هذا الدخان والغبار قائما اقلع
هذا الصنجر من على رمحه وضعه فى مغلاته ، وارم الرمح
وادفن المخلة فى هذا الكوم العالى ، ودعنا ننزل عن خيلنا
ونقلع لبسنا ونغير حالتنا ، ونتجو بأنفسنا ، فاذا رأينا
لا يعرفوننا .

ثم ان الغزال نزل عن فرسه ، وخلع ما عليه من اللبس
والبولاد الذى لا نظير له ، ودفنه فى التراب وبقى بطان
القميص ورأسه مكسوفة كأنه قرنى ، اذا رأه من لا يعرفه
لا يعرفه ، وليط وجهه بالتراب ، وصار كأنه كان مدفونا فى
التراب وطلع .

واما على بالي فلما رأى ذلك قال له : والله يا سيدى
ليس عندك من الرأى شيء ، فانتا لو كنا على ظهور خيلنا
كنا هربنا وحمينا أنفسنا حتى نخلص من معمل الحرب ، ثم
ننزل على بعد ونختفى فى مكان لا يعرفنا أحد ، وأما نزولنا
فى معمل المعركة فلافائدة فيه .

ثم ان عليا ركب فرسه ثانية ، وأخذ عدته وهم بالهروب
فقال له الغزال :

ـ هكذا يا على تذهب وتتخلىنى للعدو ؟

فقال له : وما الذى أصنع ؟ أنا قلت لك افعل بنا هذه
الفعال القبيحة التى لا يفعلها الا المجانين ؟

فبينما هم فى هذه الحالة الا وقد انجلى الدخان يسيرا ،
ونظر الناس بعضهم بعضا ، واذا يمنادى اياس باشا يمنادى ،
كل من جاءنا بالغزالى او برأسه او دلنا عليه او على مكانه
اعطيناه جميع ما يتمناه .

فدىكس على يفرسه الى نحو الميدان ، واذا بهم طائفة
من السلعدارية واليكتجرية .

فلما وصل اليهم قال لهم : أنا أدلكم على موضعه .

قالوا له : آين هو ؟

قال لهم : أنا أعرف محله ، وهو بالقرب منكم ولكن
ما أدلكم عليه حتى تعاهدوني على ما أريد .

قالوا له : لك ذلك .

قال : أريد أن أكون أمير سنجق ، فاتى أنا حامل
صنجقه وأنا من أولاد الشام ، ونعن طائعون للسلطان
سليمان باطنا ، وكذلك سيدي محمد بن قرقماس .

قال له الأغا : لك منا جميع ما تريده ان دللتنا عليه .

قال لهم : اتبعونى .

وقصدوا نحو الغزالى وهو واقف يبرم كما تبرم
القرندرية ، وهو يقول : هو .. هو ..

وقصده بذلك حيلة منه لثلا يعرفوه .

فقال لهم على : هو هذا القرندي ، فهو الغزالى .

فقالوا له : أنت تتمسخر بنا يا فاعل يا تارك .

وأخذوا يشتمونه ويسبوه ، وهموا بقتله .

فقال لهم : امهلوا على ، أنا بين أيديكم ، إن لم يكن هو الغزالى ، والا فرأسي عوض كلامي .

فقالوا له ان الغزالى كان بالله العرب من العديد .

قال : نعم .

وحكى لهم ما فعل .

فجاءوا اليه وأحاطوا به ومسكوه ، وهو يهدى كالمجذوب ويقول : هو .. هو .. هو .

فقالوا له : أنت الغزالى ؟

فقال لهم بعد أن قبضوا عليه وأرادوا قتله : أنا رجل درويش عريان ومن أين لي أن أكون كالغزالى .

فتحيروا في أمره ، وعلى يائى يحلف ويقول : لا تصدقوه ، ولكن تعالوا أنا أدلكم على ثبته وفرسه وسلامه ، انهم على ذلك الكوم العالى .

فأخذهم وذهب بهم اليه ، وإذا يملبوسه كله وصنجقه مدفونان في التراب .

فطلعواه ورأوه فعرفوه ورأوا فرسه عند ذلك المكان ، وهو ينكر .

ويقول : أنا رجل درويش ، كيف تصدقوا هذا الكذاب ،
انظروا الى حالى .

فلما تعبروا فى أمره قال لهم : أنا أقطع رأسه وأذهب
بها الى اياس باشا فانه يعرفه ، فإذا لم يكن هو فرأى عوض
عن رأسه .

وبحذر سيفه وضرب رأسه فأطاحها ، وأخذها فى
مخلاطه ، وقال أنا وأنت الى اياس باشا .

وأخذوا معهم ملبوسه وفرسه .

فلما وقفوا بين يدى اياس باشا تقدم ذلك الأغا ، وأخبر
اياس باشا بما وقع .

فقال لهم هاتوا الرأس حتى أنظره ، فانا أعرفه غاية
المعرفة ، فوضعوه بين يديه ، فتأمله ، وقال هذا رأس الغزالى
بلا شك .

ثم قال لهم : أين الذى دلكم عليه ؟

فقالوا له : هذا الرجل .

فسأله عن حاله .

فأخبره بجميع ما فعل الغزالى .

ف عند ذلك خلع عليه خلعة عظيمة ، وعمله أمير صنبعق ،
وكذلك سيدي محمد بن قرقamas .

ومن أغرب ما وقع أنه فى يوم قتل الغزالى وقف رجل على ياب الجامع الأزهر ، ونادى بأعلى صوته : يا جماعة ، ان الغزالى قتل اليوم فإذا لم تصدقونى فاكتبوا تاريخ هذا اليوم .

فكان كما قال .

ذكر

تاريخ قطع رأس الغزالى الخائن

فما مضى الا أيام قليلة حتى جاءت الأولاقية من عند اياس باشا الى خاير بك ملك مصر بما وقع ، وان الغزالى قطعت رأسه فى اليوم الفلانى وكان العاشر من ذى العجة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة (★) .

ثم ان اياس باشا ارسل برايس الغزالى الى السلطان سليمان مع الأولاقية ، فزيارت البلاد وحصل السرور للسلطان ثم ارسل السلطان الجواب لاياس باشا وشكره على ما فعل ، وأمره بآلا يمكن العسكرية من اينداء أحد من الرعايا ، ويأمره باقامة الحدود على الوجه الشرعى ، وأن ينصف في أحكامه الى آخره .

واما خاير بك ، فإنه لما بلغه قتل الغزالى تقدر عيشه وأوصى وأعتق ممالike .

فقالت زوجته : تعيش رأسك وتبقى .

وكانت تسمى خوند مصر بيك (★) وكان قد تزوجها قبله الملك الناصر محمد بن قايتباى ، وبقيت عازبة مدة سلطنة الغورى الى أن تولى خاير بك فتزوجها ، فانه لم يكن في النساء أسرى منها في عصرها .

وكانت خازنadarتها تسمى دولتباي ، وكانت خوند مصر بيك كاتبة .

فقال لها : ان بين عمرى وعمره مدة سنة ، فكان كذلك .

فما تم العام الا وقد مات خاير بك بفريخ الجمر (★★★) ، ودفن فى تربته التى عمرها فى طريق القلعة بالقرب من باب الوزير (★★★) ، وهى المعروفة الآن بالغريبية .

وكانت الناس تسمع صراخه فى القبر وهو يصبح حتى ضجت الناس من ذلك .

وكان موته عبرة لمن اعتبر ، وهكذا الدنيا تفعل بأهلها ، فهنيئاً من أعرض عنها ، وقنع منها باليسير ، وترك الكثير عق باله ، فتبا لها من دنيا غدارة ، وكفى ذما لها قوله سبحانه وتعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » ٠٠٠ (الآية) .

(★) خوند او خوندة = امراة او سيدة وجمعها خوندات . وهي جارية الملك التي ولدت منه . ويقال تولى عقد تزويج جارية السلطان ام بنته . ونساء مصر يطلقنها على زوجة الملك فيقال صارت خوند الكبرى . والعادة القديمة انه تكون الخوندات اربعين خوند الخوندات « وهي خوند الكبرى » وخوند الثانية والثالثة والرابعة . وكذلك تطلق على اخت زوجة الملك ، وتطلق على السيد الامير ، وهي كلمة فارسية .

(★★★) باب الوزير ، أحد أبواب القرافة تحت القلعة ، وقد سمي به الشارع الذى يبدأ من نهاية شارع التبانة من عند جامع ابراهيم اغا الى قبلى جامع الامير سيف الدين .

قال الراوى ، ثم ان السلطان سليمان رحمة الله عليه شرع فى التوجه الى الغزو فى سبيل الله تعالى لأخذ بلاد روس (★) .

فانه قد كان قوى بأسهم وزاد فسادهم ، وارتقت رؤوسهم بعد موت السلطان سليمان ، وفرحوا بموته فرحا شديدا ، وطمعوا فى أخذ بلاد المسلمين ، وحدثتهم نفوسيهم الخبيثة بما لا قدرة لهم عليه ، وظنوا أن ولده السلطان سليمان لا قدرة له على حرب ولا غيره ، ولد صغير ، فأظهر الله سبحانه وتعالى سر نصرة الاسلام ، وجعله صاحب الكلام والعدل والانصاف .

وكان قد بلغ السلطان سليمان بأن عند خاير آثر من آثار النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل له (١٠٤) وأرسل له بعضا من ثياب ، فلم يجدوا السلطان سليمان بالقدسية ، وكان قد توجه فى الفزارة الى بلاد رودس (١٠٥) فقاتلهم وضايقهم ، وعجز ملك رودس .

قال الراوى : لما عجز ملك رودس عن محاربة السلطان ، كتب ورقة وربطها فى عود نشأب ، ورمى بالقوس ، فوقعت فى وطاق الوزير ، مضمونها ، أن سلطان رودس يريد

(★) فى المخطوطة رقم ٧١٤ جزيرة رودس ، وفي تاريخ ابن اياس جزيرة رودس ،

(١٠٤) المقصود أن خاير بك هو الذى أرسله له .

(١٠٥) فى الأصل (روسيا) وهو غالبا خطأ مطبعى . يحدثنا محمد فريد عن فتح السلطان سليمان لرودس فىقول : .. وبعد ذلك أخذ السلطان - سليمان - فى الاستعداد .. لفتح جزيرة رودس .. لتكون حلقة اتصال بين مصر والقدسية من جهة البحر ولكن لا يكون للمسيخيين مركز حصنين فى وسط بلاده تلja اليه عمارات (أساطيل) الدول المعادية للدولة العثمانية وقت الحرب .. محمد فريد ، مرجع سابق . ص ٢٠٣ .

الأمان لنفسه وماله . فرأوا النشابة وأوصلوها إلى الوزير ، والوزير دخلها للسلطان ، فلما قرأها قال للوزير : أرسل إليه أن كان صحيحاً يزيد الأمان فقد أعطيته الأمان ، وأخذ البلاد ووقع الصلح ، وهي إلى الآن مع آل عثمان .

قال الراوى : لما مات خاير بك ، أرسل السلطان إلى مصر باشا يسمى قاسم باشا ، وكان مسالماً وكان عنده لين في حكمه ، وكان كاشف الفيوم والبهنسا جانم المذكور سابقاً ، وكاشف المحلة اينان الطويل ، ولاه المحلة خاير بك بعد الصنجرى الذى ولاه السلطان سليم .

ثم ان جانم واينان الطويل نويا على العصياني وغزوا على حسن بن مرعى وابن عمته شكر ، وقتلواهما لكونهما غمزوا على طومانباى ، وأنهما يأخذان (★) البلاد من العثمانية ، وقالا : قد مات الفاتح - وهو السلطان سليم - وهذا ولده السلطان سليمان ثيس له قدرة على المغاربة ولو جاءنا حاربناه .

فجمع كل منهما ما قدر عليه من الأشقياء وأباش الرجال وساروا إلى الشرقية يعكسوا فيها ، فبلغ خبرهم إلى مصطفى وكان باشه مصر ذلك الزمان .

فجمع الصناجق والأغوات والعساكر ، وأراد أن يجرد عليهم بنفسه .

(★) في الأصل يأخذان

فطلع القاضى موسى بن بركات الى الباشا وقال له :
يا مولانا الوزير ، لا تحمل هما بسبب هؤلاء ، اكتب الى
كتابا بالأمان وآنا آتى بهم اليك ان شاء الله .

فكتب له كتابا بالأمان وأقسم عليه بالاقسام موسى بن
بركات .

وتوجه اليهم ، واجتمع بائنال ، وقال له :

ـ ما جاءتك يا قاضى ؟

فقال له : جئت فى أمر صغير يسير .

وأخذ يخادعه بالكلام ، وقال له ساذكر لك ما جئت
فيه .

فقال اينال : أنا أعرف ما جئت فيه ، وهو أنك ت يريد
الصلح بيننا وبين البasha ، وبعد أن يقابلنا يقتلنا ، وتصير
أنت مشكورا عنده يا كلب يا ابن الكلب .

فأخذ يلين الكلام لما أن أغفلت عليه اينال .

فقال له : إن البasha حلف لكم بأنه لا يضركم .

فقال : تكذب .

وازداد غيظا .

وقال : يا أسود ، جئتلينا تعسعن وراءنا ، دايروا
اكتافه .

فأداروه *

وطلع من الغيمة حافيا مكشوف الرأس ، وضرب ضربة
أطاح رأسه *

ثم اجتمع معهم الجراكسة الأشقياء ، وجاء الخبر
إلى البasha بياناً ينال وجانم قطعوا رأس موسى بن بركات ،
وان الأشقياء مجتمعون للحرب *

فلما بلغ البasha ذلك أمر بخروج العسكر *

فأول من خرج موسى آغا آغا الانكشارية والأغوات
الثلاثة ، وأرسل معهم زربطانات كثير ، ثم انه أبطل
ذلك (١٠٦) الجراكسة لم يرسله معهم *

فلما أقبلوا على العدو أرسلوا يقولون له : في غد
العرب *

فلما أصبحوا ، بادروا للحرب والقتال والطعن والجدال
إلى نصف النهار ، فجرت الجراكسة من كثرة النيران ،
وأفعش جانم في القتل ، الا وقد عشر جواده ، فانكسرت
رجله فوق من على ظهره ، وطلب غيره فلم يأته أحد *

فحطت العساكر عليه ، وقطعوا رأسه وعلقوها على
رمح ، ونادوا عليها ، جانم قتل وهذه رأسه *

فلما سمع اينال ذلك هرب إلى نحو غزة *

(١٠٦) آى نوج الجراكسة ، وبكلات النظام آى فرق النظام - محمد السعيد سليمان *

مرجع سابق ، ص ٤٤ *

وقطعوا رأس الصنجرى الذى يستحق قطعها ، وشركوا الهيوشة ، ورجعوا الى مصر منصورين مؤيددين .

ثم انهم لما دخلوا مصر أمر الباشا بتعليق رأس جانم على باب زويلة ، ثم أرسلها للسلطان سليمان .

قال الراوى : وكان الوزير الأعظم أحمد باشا ، فعزله السلطان وولي ابراهيم باشا .

ثم ان أحمد باشا جلس فى بيته وهو غضبان الى أن أرسله الى مصر باشا ، فعصى على السلطان وتنمرد ، وقتل فى أيامه بقية الجراكسة ، وحرقهم بالنار ، طلعوا المدافع من السردار الذى بمصر القديمة وقتلهم الانكشارية .

وكانت المبايعة له فى بر الجيزة فقفزوا عليه بباب القلعة وحاصرهم الى أن غلبهم وأهلکهم أجمعين ، وصادروا جميع الخواجات والتجار وصار يضر بهم بمقارع وكسارات .

وكان أحمد بن المرقبان دفتردار ، وقعد شوية أيام ، وشنقه وحبس جانم الحمزاوي وظلم العباد .

ففى ذات يوم نزل الحمام الذى بالمراغة ، وكان هناك صنجر يدعى محمد بيك ، فلبس عدته ، وأخذ مماليكه وصار ينادى : الله ينصر السلطان سليمان ، من جاءنا عليه الأمان .

حتى التم عليه عسكر جرار الى أن أووقفوا على باب الحمام ، فطلع من السطوح الى المستوقد ، ونفذ الى القلعة .

فلما أن كان الليل ، رحل بمماليكه الى عند أحمد بن
بقر (بقار) .

فلما أصبح الصباح جاءت العسكر الى القلعة فوجدوها
خالية .

فبعد ذلك قالوا : نتبع أثره .
فسألوا بعض من رأه وهو رايم .
قالوا لهم : نزل من على عرب اليسار .

فاستمرروا يقتضون جرته ويسألون ، والركب الكبير
ما تخفي جرته ، حتى وقعوا به هو ومماليكه ، وجميع
من معه .

ثم انهم مسکوه ، وقطعوا رأسه ، وأرسلوها للسلطان
من وقتها و ساعتها .

قال الراوى : هذا ما كان من أمر أحمد باشا .

وأما السلطان سليمان ، فإنه لما علم بعصيائه جهز له
ابراهيم باشا الوزير الى مصر بعساكر ملايين الأرض من
كل جنس ، فأخذ معه من الأعيان آغا الانكشارية وأحمد آغا
والأمير مصطفى ، وجاء معهم خلق كثير ، فصادفوا الرأس في
الطريق ، ففرح ابراهيم باشا بذلك وقال : لابد أن أذهب
إلى مصر ، وأنظرها وأديب أمرها .

فجد في السير الى أن وصل الى الشام .

فلاقاء سليمان باشا باشة الشام - وكان سليمان باشا
هذا ولاه اياس آغا موضع الغزالى - ملاقاً حسنة ، وقدم له
تقدمة مليحة وحظى منه ابراهيم باشا ، فقال له : امض
معى الى مصر أقيمك فيها باشا ، فان معى من الخنكار خطأ
همايونيا اختيار من أريد .

فجاء سليمان باشا الى مصر صحبته .

فلما دخل ابراهيم باشا الوزير الى مصر ولى سليمان
باشا باشة مصر ، وأجلسه ورتب الأمور كما أراد ، وهو
الذى قرر الجوالى وجعلها موقوفة على العلماء ، وأقر سليمان
باشا على مصر ، وأخذ الحمزوى معه .

وسبب أخذ الحمزوى هو أنه كان تكلم مع ابراهيم
باشا الوزير بسبب مال مصر الذى يتجمد كل عام ،
ما أفعل به ؟ .

فإن السلطان سليم لما أخذ مصر من المراكسه ، قال له
خاير يك :

- المال الذى يتجمد ، ما أفعل به ؟

قال : أعط المساكن جوامعهم بال تمام من غير اسراف ،
وما بقى ضعه فى بيت المال للمسلمين لوقت الاحتياج اليه .

فبقي الأمر على ذلك الى أن جاء ابراهيم باشا كما
تقدمنا .

ثم رجع ورجع معه جانم الحمزوى .

واجتمع ابراهيم بالسلطان وأخبره بجميع ما فعل ، وحسن له عبارة بأن غالب مال مصر ضائع ، يتصرف فيه الكتبة ، وسأله ضبط هذا المال وارساله في كل عام للصرف منه على العساكر ، وفي المصالح والغزا وغيرها .

فأمر السلطان سليمان أن يكون جانم العمزاوي دفتردار على ذلك ، من غير خلل لأحد ويضبطه على وجه الانصاف .

فأول سنة ضبطها جاءت سبعة أحمال ، وفي ثاني سنة جاءت ثمانية أحمال ، وبقيت على ذلك إلى أن سافر سليمان باشا إلى الهند وتولى خسرو باشا ، فأرسلهااثنتي عشر حملاً بزيادة أربعة أحمال ، فلم يقبل السلطان سليمان الأربعية أحمال ، وأبقاها على باب الديوان مدة شهر خشية من أن تكون قد أخذت من أربابها بالظلم .

وأمر باحضار سليمان باشا وخسرو باشا وقال له :

— لابد أن تخبروني هذه الأربعية من أين جاءت ؟

فقال خسرو باشا : سليمان باشا تهاون في ضبط المال فلم ينم ، وأنا قد اهتممت في ضبطه فنما معى ..

فقال السلطان : قد حصل في هذا المال الشك ، فأنا لا أدخله في خزانتي .

فصرف على غير ما أدخل به إلى القسطنطينية .

قال : فلما رجع سليمان من الهند رجع خسرو باشا ، وأقام سليمان عدة سنين ثم عزل .

وتولى مصر داود باشا الى آن مات بها .

ثم تولى بعده محمد باشا قريب السلطان .

ثم عزل عنها .

ثم تولى بعده على باشا الطواشى ، وكان من أهل الدين فى الصلاح فأقام بها الى آن مات ، ودفن بالقرافة ، بالقرب من تربة القاضى بكار ، رحمهم الله رحمة بالغة ، فانه كان من أهل الله تعالى والصلاح شاهد له .

وهذا آخر ما انتهى من وقعة السلطان الفورى مع السلطان سليم ، وكان القراغ من كتابة هذه السيرة يوم السبت السادس عشر صفر الغير من شهور سنة خمس وستين وألف (١٠٦٥ هـ) .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ملحق (*)

مصر والقاهرة

لم تكن القاهرة عند الفتح العربي لمصر معروفة معايدها على النحو الذى نعهد لها عليه الآن ، أو على نحو قريب منه ، وإنما كان مكانها الجزء من الأرض الذى يشغله حالياً حى مصر القديمة وما حوله إلى الشرق دون الجبل وإلى الجنوب ، وكان اسمها مصر والفسطاط ، فلم يكن لفظ القاهرة قد عرف بعد .

ولما قدم القائد جوهر الصقلى بعساكر الفاطميين إلى ساحل الفسطاط وقت الزوال من يوم الثلاثاء لسبعين عشرة خلت من شهر شعبان سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، نزل شمال الفسطاط فى الأرض التى فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى وبين القصرين ، وما جاورها من الأماكن التى بين الجبل والخليج .

وكانت هذه الأرض رملاً فيما بين مصر والفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالطيرية ، يمر بها الناس عند سيرهم من الفسطاط إلى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبين الخليج الذى يمر بجانب الجبل شرقى العباسية ، وكان ذلك الخليج يمر بقربها وقد زال هذا الخليج الآن ولم يبق له أثر .

عند نزول جوهر بهذه الرحلة لم يكن بها بنيان غير البساتين ، وأماكن قليلة ، منها بستان الأخشيد ، محمد بن

(*) وضع الاستاذ عبد المنعم عامر .

طفج المعروف بالكافوري وكان هذا البستان شرقى الخليج، ومحله الآن فيما بين جامع الشعرانى والسكة الجديدة قريبا من قنطرة الموسكى ممتدًا فى الجهة الشرقية الى النحاسين ، وكانت مساحة البستان تبلغ ستة وثلاثين فدانا ، وبجانبها من الجهة القبلية ميدان الاخشيد ، ومحله الآن من شاطئ الخليج الشرقي الى شارع السكرية والغورية ، وكان فى محل الباجع الاقمر دير للنصارى يعرف بدير العظام .

وكان بهذه الرملة أيضاً موضع آخر يعرف بقصر الشوك ، تنزله بنو عذرة ، وصار عند بناء القاهرة خطاً يعرف بقصر الشوك .

وفي تلك الحقبة كان الخليج المصرى ينتهى عند قنطرة ينالها عبد العزيز بن مروان سنة تسع وستين ، وموضعاً لها الآن نهاية حارة السيدة زينب ، وكانت الحارة طريقاً لا بناء فيه ، يمر الناس من فوق هذه القنطرة الى الشاطئ الغربى للخليج والى ساحل النيل ، وكان فى غربى الخليج تجاه معسكر جوهر قرية اسمها : أم دنين عرفت فيما بعد بالمقسى ، وهى الآن جزء من أجزاء القاهرة على يسار السالك لشارع كلوت بك الى سكة الحديد ممتدًا الى الشارع الواقع عليه جامع أولاد عنان ، وكان الخليج فاصلًا بينهما وبين الرملة .

وكان فيما بين قرية أم دنين والشاطئ الغربى فضاءً لا بناء فيه ، ثم صار بعد بناء القاهرة ميداناً توضع فيه الغلال ، وقد سماه المقرىزى ميدان القمع ، وهو الآن من أجزاء قسم باب الشعرية ، وكان الواقف بهذا الفضاء يرى النيل عن يمينه من بعد اذا استقبل المغرب ، وعن يساره بستان المقسى محل الأزبكية ، وبعده بساتين حتى الفسطاط .

وكان المسافر من الفسطاط الى الشام من العسكر والتجار وغيرهم ينزل بطرف هذه الرملة في الموضع الذي كان يعرف اذ ذاك بمنية الاصبغ ثم عرف زمن الفاطميين بالجندق ، ويعرف الان بالدمداش ، ثم يسافر من منية الاصبغ الى بلبيس والعلاقمة ثم الى الفرما ، ولم يكن هذا الطريق معروفا قديما ، وانما عرف بعد خراب تنيس والفرما ، وكان من يسافر من الفسطاط الى العجاز برا ينزل بجب عميرة المسماى اولا ببركة العجب ، والآن يسمى ببركة الحاج وكانت حافة الخليج الشرقية هي الطريق العام .

وكان القادر من الفسطاط الى القاهرة يجد عن يمينه منازل العسكر في حمل التلال التي تشاهد آثارها الان قريبا من نهاية شارع السد بالسيدة زينب ، ثم يجد عدة أديرة وكنائس موضع قسم السيدة زينب ، ثم بركة البغالة وبركة الفيل الى سور القاهرة ، وكانت العامة تجلس في هذا الطريق أمام السور للتفرج على الخليج وما وراءه من البساتين والبرك .

واما بر الخليج الغربي ، فكان بأوله من الشمال قنطرة عبد العزيز بن مروان ، وفي شمالها البستان الزهرى ممتدا الى مكان باب اللوق ، ويتصل به عدة بساتين أخرى الى المقسى ، وجميعها مطل على النيل ، ولم يكن للشاطئ الغربى للخليج عرض كبير ، وانما يمر النيل فى غربى البساتين على الموضع الذى يعرف الان بباب اللوق ، وأوله عند جامع الطباخ ويمتد جهة الغرب الى ساحل النيل .

وكانت الفسطاط (مصر القديمة) اذ ذاك مدينة كبيرة ، وهى مستقر الملك ومقام الأمراء ، واليها تجوى ثمرات الاقاليم ، وكانت ذات عمارة كثيرة السكان ، وكان حدتها الشرقي من باب القرافة تحت قلعة الجبل ممتدًا الى بركة العبشى التى تعرف الان بالبساتين ، والعد الفربى قناطر السباع الى دير الطين ممتدًا على ساحل النيل ، والعد القبلى من شاطئ النيل عند دير الطين الى نهاية العد الشرقى حيث البساتين ، والعد البحرى من قناطر السباع الى قلعة الجبل ، وما بين تلك الحدود كان مشحونا بالعمارة من الدور الفاخرة والأسواق والمبانى وكان منها عساكر والقطاعى .

وقد تخرّب كل هذا واندرست معالمه ولم يبق منه الا القليل جدا ، مثل قسم السيدة زينب وقلعة الكبش وجامع طولون ، والسيدة نفيسة الى آخر مبني قسم الخليفة وقرة ميدان .

ولما دخلت عساكر المعز لدين الله الفاطمى البلاد المصرية سار الى الفسطاط ، ثم اختار القائد جوهر الصقلى أن يبني فى شمالها بعيدا عنها فاختط للعسكر مكانا فى الرملة تجاه قرية أم دنين ، وبنى القصر وأدخل فيه دير العظام ، ومحله الان جامع الأقمر ، واختطت كل قبيلة مكانا عرف بها ، وأدار جوهر سور حول منشأته وسمى ما اختطه المنصورية .

وفي خطط المقرىزى ، ان القاهرة فى أول الأمر كانت تسمى القلعة ، والطابية ، والمعقل ، والخصن وقد قصد

جوهر باختطاطها فى هذا الموضع أن تكون خصينا للفسطاط ممن يقصدها من جهتها البحرية ، خصوصا القرامطة الذين كانت بأيديهم بلاد الشام القاسية .

وكانت القاهرة اذ ذاك بين ثلاثة خنادق ، خندق قبليها ، وهو الذى حفره عمرو بن العاص ، وكان شرقى قبر الامام الشافعى ، وخندق اليحاميم وأوله الجبل الأحمر المسماى بجبل اليحاميم ، وخندق من غربها وهو الخليج الذى كان معروفا الى عهد قريب ، ومحله الان شارع بور سعيد ، ولما أدار جوهر الصقلى سورها حفر لها الخندق الرابع بحريها وأدخل فى السور بستان الأخشيد ومية وجعل دير العظام وقصر الشوك ضمن القصر الكبير ، فكان البستان بين القصر والخليج ، وكان البستان كبيرا جدا ، ومحله الان حارات اليهود والخرنفش حتى شارع التحايسين .

وكان فى السور الذى بناه جوهر عدة أبواب ، ففى الجهة البحرية باب النصر القديم ، وقد كان بجوار زاوية القاصد ، وباب الفتوح القديم وكان بجوار حارة بين السيارات ، وبالجهة القبلية بابان متلاصقان ، يسميان بابى زويلة ، ومكانهما بجوار سبيل العقادين ، وفي الجهة الشرقية الباب المعروف القديم وباب البرقية ، وكان خارج حارة البرقية التى اختطها جماعة من أهل برقة ، وهى التى تعرف اليوم بالدراسة وفي الجهة الغربية باب سعادة ، وباب آخر يسمى بباب القنطرة ، أقيم بالقرب من القنطرة التى بناها جوهر على الخليج ، يمر منه السالك من باب مرجوش الى باب الشعرية ، وباب ثالث بالقرب من مسجد المؤيد ، وباب رابع يعرف بباب الغوخرة ومحله تجاه جامع الشيخ فرج .

وكان الذاهب من الفسطاط الى عين شمس (المطيرية) يسير على ساحل النيل القديم ثم يسير على شاطئي الخليج الشرقي ، فيتكون عن يمينه بركة الفيل الصغيرة (بركة البقالة) ثم يلي هذه البركة بركة الفيل الكبيرة وتمتد بركة الفيل الكبيرة الى قرب باب زويلة ، ويحدها من جهة الشرق شارع السروجية ، وكان بساحلها الشرقي بساتين تمتد الى الرميلة والسيدة نفيسة وتتصل بها بساتين أخرى عند القطاع والفسطاط الى النيل ، ومن جهة الغرب الطريق المار شرقى الخليج ، وهو الشارع المعروف الان بدربك الجماميز وعلى حافة هذه البركة بنى بعد هذا جامع بشتاك (تكتب أحيانا بشتاك) وغيره من المباني ، ومن الجهة القبلية الجسر الأعظم وهو الطريق الذى يمر تحت قلعة الكبس ويوصل من الصليبة الى قسم السيدة زينب ، ويحدها من الجهة البحرية الشارع المعروف بشارع تحت الربع .

وكان السالك على حافة هذه البركة من الجهة الغربية فى طول الخليج يشاهد غربى الخليج النيل وبينه وبين الخليج بساتين على ضفته الغربية ممتدة الى قنطرة باب الخلق ، فإذا حاذى السالك القاهرة كانت عن يمينه وجملة بساتين أخرى عن يساره ممتدة الى النيل ، والى قنطرة البكرية الموجودة الان بشارع العباسية قرب جامع الظاهر شمالا .

وكان فى شمال القاهرة مزارع وبساتين ممتدة الى المطيرية ، ولم يكن فى الجهة الشرقية الا جبل الجيوشى .

ولما استقر الفاطميون فى مصر أحدثوا فى ضواحيها الأربع المباني القخمة والمناظر البهيبة والبساتين النضرة .

ثم ان جوهرا بنى الجامع الأزهر قبل القصر الكبير ، وجعل بين الجامع والقصر اصطبل القصر ، وبه الخيول الخاصة بال الخليفة ، وكان مفصولا عن الجامع بربعة ، ومحل الاصطبل حاليا شارع الشنوانى وما عليه من المبانى والأزقة ، وبينى مدفنا لأباء المعز لدين الله الذين أحضر معه أجسادهم فى توابيت من بلاد المغرب ، وكان هذا المدفن مكان خان الخليلى المعروف الآن .

ولما كانت الشدة (١٠٧) فى زمن الخليفة المستنصر وطلب عساكر الآتراك منه النفقه فماطلهم هجموا على هذه التربة وانتهبوها بما فيها من قناديل الذهب والمداخن والمجامر وحلى المعاريب ، ثم لما زال ملکهم وانقرضوا وتداولت الأيام والدول وأنشأ الأمير جهاركس الخليلى أيام الناصر بن قلاوون خانه المعروف بخان الخليلى ، أخرج من هذه التربة عظام الفاطميين فألقيت فى المزابل على كيمان البرقية .

وأما الفسطاط فكانت مقر الأعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع والعرف ، وكانت الثروة اذ ذاك كبيرة والتجارة واسعة بسبب اتساع ملك الفاطميين ، فانه كان يمتد الى أقصى بلاد الشام والمغرب ، وكانت تأتيها البضائع مما دخل تحت ملکهم ومن غيره ، وقد ساح فى بلاد مصر بعد بناء القاهرة بخمسين عاما عالم من الفرس ، اسمه الناصرى خسرى ، ووصف القاهرة والفسطاط ، فقال فى رحلته المعروفة بسفر نامة :

« ان الفسطاط تظهر من بعد كالجبل ، فيها منازل من سبع طبقات فأكثر وسبعة جوامع كبار .. وان القاهرة

(١٠٧) اي الماجعة المعروفة بالشدة المستنصرية .

لا يوجد لها شبيه في الدنيا ، وقد حسبت فيها عشرين ألف دكان ، جميعها ملك السلطان ، وأغلبها مؤجر بعشرة دنانير ، والحمامات والوكائل وغيرها من المباني لا يحصى عددها ، وكلها ملك السلطان ، لأنه كان متوفعاً في القاهرة التملك لغيره » *

واستمر العمران في مصر والقاهرة وكثُرت المباني إلى أن كان حريق مصر الذي قام به شاور بن مجير السعدي الوزير وأمير الجيوش في عهد الخليفة القاصد لدين الله بن عبد الله بن يوسف آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، فقد تعاون شاور مع جيوش الفرنج على مقاومة أسد الدين شيركوه وأحدث بمصر حريقاً استمر أربعة وخمسين يوماً وأتى على كل ما فيها من المباني ، فأصبحت الخراب والتلال التي تشاهد الآن جنوبى أرض المدابغ بالقرب من كنيسة مارجرجس بالقاهرة ، وأما القاهرة فقد تمت وذات بعد خراب الفسطاط واتسعت دائرتها بانتقال من انتقل إليها من كان في الفسطاط وغيرها ، إلى أن حصل فيها الوباء العظيم فعظم الخراب وشرع الناس في هدم الدور .

ولما زالت الدولة الفاطمية واستقرت الدولة الأيوبية جد صلاح الدين الأيوبى في العمارات وآباح سكنى القاهرة للخاص والعام ، فزادت في الاتساع وهدم حارات العبيد ، وموضعها اليوم الداودية والقربية ، وجعل مكانها بستانًا وبني قلعة الجبل وسور القاهرة وهدم ما كان هناك من المساجد وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التي كانت بالجizza تجاه مصر ، وكانت كثيرة العدد ، ونقل حجارتها وبني بها سور القلعة ، وبني قناطر الجizza لسهولة نقل الأحجار عليها .

وفي أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بنيت قلعة جزيرة الروضة ، وانتقل السلطان إليها وبني الناس على ساحل النيل المقابل للجزيرة الدور العظيمة وسكنها عليه القوم ، ومكانتها حالياً جنينة السادات بمصر القديمة ، وامتدت العمارات إلى المدرسة المعزية بأخر مصر العتيقة ، وكانت هذه الجهة من أعمق الجهات تتصل مبانيها بالعمارة المتعددة إلى الكبش وجبل يشكرا إلى دير الطين ، وتزايدت العمارات بالحسينية حتى صارت من الريadianية إلى باب الفتوح ، وعمر ما حول بركة الفيل والصلبية إلى جامع ابن طولون وماجاوره إلى المشهد النفيسي ، وحکر الناس أرض الزهرى وما قرب منها وهو من قناطر السباع إلى منشأة الوهرانى ، ومن قناطر السباع إلى البركة الناصرية إلى باب اللوق إلى المقسى ، وبني السلطان القصر الأيلق بالقلعة وعمل بجنبه بستانًا متسعًا ، وكان ذلك القصر مشرفاً على الرميلة وقرة ميدان وكان بداخله ثلاثة قصور ، وجميع قصور الأمراء ترفع إليها المياه من النيل بدوالib تديرها الحيوانات ، فتنقلها من موضع إلى أعلى منه حتى تصل إلى القلعة .

وفي عهد قلاوون حفر خليج من النيل لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس وأخذ الناس في العمارة على حافتي الخليج فيما بين المقسى وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمارت على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يتصل بالخليج الكبير في أرض الطلبة وإلى سرياقوس وتنافس الناس في السكنى هناك .

وكان النيل قد انحسر عن جانب المقسى الغربي ، وصار هناك رمال متصلة من بحريها بجزيرة الفيل ومن قبليها

بأراضي اللوق ، فعمر الناس في تلك الرمال ، وهي الجهة التي تعرف اليوم ببولاق ، وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور حتى لم يبق فيها مكان بغير عمارة ، وكثرت المباني من الجهة القبلية إلى القاهرة ، وعمرت القرافة من باب القرافة إلى بركة العيش طولاً ومن القرافة الكبرى إلى الجبل عرضاً ، واتصلت مصر بالقاهرة حتى صارت بلداً واحداً .

ويذكر المقريزى في خططه أن عدد ميادين القاهرة كان تسعة وأربعين ، وأنه في زمن الدولة الفاطمية كان القصر الكبير والقصر الصغير منفصلين بميادين كبيرة ، وفي موضع آخر من القاهرة كانت هناك رحاب واسعة تجاه متازل الأمراء ، ولما زالت الدولة الفاطمية كان عدد الميادين داخل القاهرة عشرة ، وبقى ذلك في الدولة الأيوبية إلى زمن السلاطين الجراكسة ، فكثر البناء داخل القاهرة وخارجها ، ولما حصل البناء خارج البلد فيما كان هناك من البساتين كان خارج القاهرة من جهاتها القبلية والغربية والبحرية عبارة عن قصور وبساتين تتخللها ميادين كبيرة ، في الجهة القبلية ميدان ابن طولون ، وميدان الملك العادل أمام الكبش على بركة الفيل ، وميدان المهارة والميدان الناصري ، وكانا في الأرض الواقعة تجاه القصر العيني والقصر العالى ، وفي الجهة الغربية كان ميدان الصالح والميدان الظاهرى في الأرض الواقعة تجاه قصر النيل ، وميدان العزيز تجاه منظرة اللؤلؤة من أرض بركة الأزبكية ، وفي الجهة البحرية كان ميدان قراقوش الذي يوجد في بعض مساحته جامع الظاهر .

وكان الحكام يتأنقون في قصورهم في تلك الميادين ، وكانت أيام خروجهم إليها أيام فرح وسرور ، وكان الناس يجدون بعد فراغهم من الأعمال في الموسم والأعياد محلات العديدة للتنزهة والرياضة .

ولقد كان شكل القاهرة في زمن القائد جوهر مربعاً تقريباً ، وطول كل ضلع من أضلاعه ألف ومائتاً متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه نحو ثلاثة وأربعين فداناً ، منها نحو سبعين فداناً بني عليها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافوري ومثلها للميادين ، فيكون الباقي وهو الذي توزع على الفرق العسكرية مائتي فدان في نحو عشرين حارة ، رسمت بجانبي القاهرة ، وكان سور المدينة يبعداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً ، وفي سنة ست وثمانين وأربعين هدم السور وبنيت الأبواب من حجر وجعل عرض السور الجديد نحو سبعة أمتار ، وبلغت مساحة القاهرة أربعين فداناً .

وفي سنة ست وستين وخمسين ، في زمن صلاح الدين الأيوبي شرع في عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة وبنائه من العبار ، ولكنه مات قبل أن يكمل ، وجعل خلفه خندقاً .

وكان شكل السور غير منتظم ، وهو عبارة عن شكل كثير الأضلاع ، وقد زال أكثر الأبواب وتغير شكل المدينة إلى ما هي عليه الآن .

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآمراته وأئمه وآمراته وآمراته
وأئمته وآمراته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

مسند

بأهتم المصطلحات المملوكية والعثمانية الواردة بالكتاب

انظر مادة أمير كبير

أمير سلاح

راجع مادة أمير كبير

أمير كبير

وظيفه ذات شأن عظيم . يقوم
بخدمه شاغلها ٢٥٠٠ مملوك .

وشاغلها من مقدمي الآلوف . ونانت
الوظائف حسب منازل أصحابها
كالتالي : أمير كبير ، ثم يليه أمير
سلاح تم أمير مجلس ثم أمير دوادار
الكبير ، ثم أمير آخر الكبير ، ثم
رئيس نوبة النواب ثم أمير حاجب
الحجاب ثم أمير خازنadar الكبير ،
ثم أمير الحاج الشريف ، ولا تشغله
هذه الوظائف الا من جملة مقدمي
الآلوف .

أمير مجلس

يدير مجلس السلطان أو الأمير .
آثار لهذا المنصب القلقشندي في
صبح الأعشى .

الإشكارية

أو اليكجورية أو الينكجورية من
الكلمة التركية Yeni بمعنى جديد
وكرى Kery بمعنى عسكر - أي
يعنى العسكر الجدد ، وهم جيش من
المشاه أشنى في عهد السلطان
العثماني اورخان ٧٢٦ هـ ١٣٢٦ م .

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآمراته وأئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

الكلمة تدل على رفقة لولاته معهم من
أئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته
وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته وآئمته

أو العياط تعنى الصياح وهي في اللهجة اللبنانيّة بهذا المعنى ، وانصرف معناها عند العامة في مصر إلى البكاء ، ويستخدمها ابن ذنبيل بالمعنى الأول .

كان جنوده عزاباً وفي عهد السلطان سليم سمح لهم بالزواج بشرط كبير السن ، ثم أطلق حق الزواج وارتبط الانكشارية بالطريقة الصوفية البكتاشية .

(ج)

الجاشنكيّر

في الأصل وظيفة يقوم شاغلها بتدوين المأكولات والمشروبات قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يكون مسموماً .

أولاً قبة السلطان
أى رسول السلطان .

(ب)

جامكيّة

راتب

الجراسة :

هم أبناء شعب موطنهم غرب القوقاز وقسم من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود ، وقد هاجروا إلى تركيا وسوريا والأردن ، وقد غلب عنصرهم على دولة المماليك الثانية .

الجيبيّ

هو الفرس الذي يسير بلا راكب إلى جانب فرس آخر من كوب ..

البريد

مسافة تقدر باثنتي عشر ميلاً .

البكاريّة

طريقة صوفية تنسب للشيخ أسد الأبو بكرى . ذكر على مبارك راويته ووصفها .

بورصمة

وتكتب أحياناً برصة ، منطقه ومدينه باسيا الصغرى . كانت عاصمه للدوله العثمانيه فى الفترة من ١٣٢٧ الى ١٣٦١ ، ثم انتقلت العاصمه الى ادرنة ثم الى استانبول (استانبول) سنة ١٤٥٣ .

(خ)

الخاصّية

خاصّة السلطان من المماليك ، وهو الذي قام شخصياً بالاشراف على تربيتهم . وهم أكثر قرباً وحظيرة من الأجلاب .

الخانقاه

كلمة فارسية معناها بيت العبادة . يقيم فيها الصوفية .

(ت)

الترايبي

والجمع ترايبيون أى المماليك الذين تم جلبهم أطفالاً وتم تربيتهم منذ الطفولة إلى أن صاروا فرساناً .

الترسيم

التحفظ وتحديد الاقامة .
التعبيط

خوند

أو خوند ، سيده وجمعها خوندات وهي جارية الملك التي ولدت منه . ونساء مصر يطلقنها على زوجها الحاكم وتطلق كذلك على اخت زوجة الملك وتطلق على السيد الامير وهي فارسية .

الزعر

جمع آزرع ، والمقصود العوام من أهل المدن من ليسوا مماليك أو بدوا .

(س)

السردار

أى القائد ، من الفارسية : سر بمعنى الرأس ، ودار بمعنى صاحب .

(ص)

الستنجق

أو السننجق ، مفرد صناجق .
كلمة تركية معناها العلم (بفتح العين) أو اللواء وقد تطلق على القسم من الولاية الكبيرة والستنجق أيضا هو حاكم هذا القسم من الولاية ، وقد تكون الستنجقية مجرد رتبة دون أن يكون حاملها حاكما .

الصوباشي

وظيفة عسكرية في الجيش التركي وكان راتب النفر الصوباشي ٣٠ دينارا شهريا ، بينما راتب نفر الانكشارية ١٥ دينارا .

(ط)

طبلخانه

طبل خانه أو تكتب متصلة طبلخانه أو طبلخانه هي دار بها من الكسوات التي تدق على باب السلطان وأربع طبل (طبلات) كبيرة وأربعة زمور (جمع زمارة) وعشرون نفيرا لها رئيس وعدة خدم .

(ط)

الدبابة

والجمع دبابات . آلة حربية تشبه البرج المتحرك على عجلات . هذا البرج من عدة أدوار . تستخدم في هاجمة الحصون وتساق الأسوار .

الدوادار

أى شاغل وظيفة الدواداريه أى حمل دوامة السلطان وأبلاغه بالرسائل الصادرة عنه وتقديم الشكاوى اليه .

(ط)

رأس نوبة النواب

انظر أمير كبير

الركيز

الجزء الأسفل من السيف

(ط)

الزردخاناه

بيت الزرد أى بيت السلاح ، وتطلق أحيانا على السلاح نفسه .

(م)

المجاليب

الملاليك الذين يشتريهم السلطان
ويعهد لهم لدى الملاليك بتدربيهم
وتعليمهم ، لذلك فهم أقل حظوة من
الخاصةة الذين يدربيهم السلطان
شخصياً .

المشاعلية

المكلفوون بتنفيذ أحكام الوالي
وكان عملهم - في الأصل - السير
 أمام الوالي بالمشاعل .

المرد

جمع أمرد ، وهو الصبي الجميل
الذى لم تنبت لحيته ولم ينبت
شاربه .

مكاحل البارود

آللة حرية تقذف النقط .

المكحل

مسئول مكاحل البارود وهي
المدافع على أنواعها .

(و)

الوطاق

هو الخيمة الكبيرة تused للقيادة
وتعنى أيضا خيام المعسكر . وجمعها
وطاقات .

(ئ)

اليزك

يفتح اليماء والزاي هو رئيس
العسس .

اليكنجريه

انظر الانكشارية

(ع)

عرواده

والجمع عرادات ، وهى آلة
حربيّة أصغر من المجنحنيق ترمي
بالحجارة الى بعيد .

العلوج

المفرد علوج . كلمة تطلق على من
تحول للإسلام ولم يحسن اسلامه .

(ف)

فرخ الجمر

كلمة تطلق على مرض الطاعون

الفلاوية

أو الفلاتية هو أوباش الناس .

(ق)

القرانصة

الجند القرانيص وهم المسؤولون
بالمديوان ، أصحاب الأرزاق الكبيرة
ويكونون في منزلة أمراء الخمسونات .
ويسمون أيضا الوغاد .

القاپوجيه

الحجاب والمفرد قابوجي

(ڭ)

الكافش

جمعها كشاف أو كشفه (بفتح
الكاف والشين والفاء) ، ومنصب
الكافش كان يفوق منصب والي
الإقليم في عهد السلطنة المملوكية .

كردوس

الكردوس أو الكردوسه وجمعها
كراديس هي الفرقه الحربيّة
الراكبة .

الكشاف

حدثنا الأئمك والملام من الترتيب .

اعتبثنا ز ابن) و (أبو) داخل الترتيب .

اعتبثنا ياشا ضمن الاسم الملوكي ودخلت في التهجئة .

(١)

ابن هرسك : ٩٠

أبو دبوب الانصاري ، مدفن : ٨٦

أبي يدر بن الجيعان : ٢٥٩

أبو حمزة : ١٥٧ ، ١٥٣ ، ١٦٣

أبي زيد ، ثائب قلعة الروم : ٧٩

أبو المسعود الجراحي : ٢١٩

أبو شادون : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨

أبو القداء : ٢١

أبي المختر والمعتل ، الامير : ٧٨

أبو زياد ، الامير : ١٩٦

الأجلاب : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦

اجناد الحلقة : ٤٧

احمد ، (اخو السلطان سليم) : ٨٤ ، ٨٥

احمد ياشا : ٢٨٩ ، ٢٨٨

احمد البدوى : ٩٧ ، ١١٦

احمد بن يقار

انظر احمد بن يقار

احمد بن يقر : ٨١ ، ١٧٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥

، ٢٣٧ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨

احمد بن الرمال

انظر

احمد بن زقبل

احمد بن زقبل : ٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦

، ٩٩ ، ١٧٠

احمد بن المقببان : ٢٨٨

احمد الرفاعي : ٩٧

ابراج الحصار : ٥٢

ابراهيم باشا : ٢٨٨ ، ٢٩٠

ابراهيم السعوفى : ٩٧ ، ١١٣

ابرك ، الامير : ٧٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠

، ١٢٢ ، ١٦١ ، ١٨٦

ابن آمين سوار : ٢٦

ابن اياس : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٥ ، ٧٥

ابن اييك : ٣٩ ، ٤٤

ابن نفرى بردى : ٢٤

ابن الميعان ، شرف الدين ابو الميكان : ٣٩

ابن حبيب ، الحسن بن عمر : ٣٩

ابن خلكان ، ابو العباس : ٣٩

ابن دقاق : ٢٤

ابن زقبل ، انظر احمد الرمال : ١٢ ، ١٣

، ١٤ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٥٣

ابن شاڪط المكتبي : ٤٠

ابن شاة سوار : ٩٠

ابن شاهين غرس الدين الظاهري : ٤٠

ابن عبد الظاهر ، محى الدين : ٤٠

ابن عداس : ٣٠

ابن الشیخ ابراهيم الكلاشنى : ٢٥٧

ابن عمر الامير على ، شيخ جرجا : ٨٠

ابن فضل الله العمري : ٢٢

ابن الملاح : ٣٦

- | | |
|--|--|
| الاكراد ، دولة : ٦٦ | احمد السنديبي : ٢٠ |
| امبانيا ، موقعة : ٢٢ | احمد سنديبي ، ابن عبد الغنى الحنفى المصرى ٤١ |
| ام نيس ، قوية : ٢٩٤ | |
| ام دينار ، قرية : ٢٠٦ ، ٢٠٧ | |
| امير الحاج الشريف | |
| انظر | |
| امير كبير | |
| امير حاجب الحجاب | |
| انظر | |
| امير كبير | |
| امير خازنadar الكبير | |
| انظر | |
| امير كبير | |
| امير دوادار الكبير | |
| انظر | |
| امير كبير | |
| امير سلاح | |
| انظر | |
| امير كبير | |
| امير كبار : ٧٧ | |
| امير كيرتباي : ١٣٨ | |
| امير مجلس | |
| انظر | |
| امير كبير | |
| امير المؤمنين خليج : ٢٩٣ | |
| الاناضول : ١٠ ، ١٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١٣٣ | |
| | اسمعاعيل شاه : ٥٣ ، ١٣ |
| افقس باى حاجب الحجاب : ٧٨ ، ٩٩ ، ١١١ | |
| | اسمعاعيل شاه |
| الاكتشافية : ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٤ ، ٨٧ | |
| | اسنا : ٨ |
| اصلان بن بدق ، أمير بدق : ١٠٢ ، ٩٨ ، ٧٩ | |
| | أصلان بن بدق ، ثالث حماة : ٧٩ |
| اصيل الطويل : ٢٥٣ ، ٢٥٦ | |
| | اقباد الطويل ، الامير : ٧٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ |
| اختنة : ١٣٠ | |
| | اقباد الطويل ، الامير : ٧٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ |
| اطفال ، كفاف المحلة : ٨٠ | |
| | اقباد الطويل ، الامير : ٧٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ |
| اغاة الانكشارية : ٢٨٧ | |
| | اقباد الطويل ، الامير : ٧٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ |
| اهمام الجizza : ٣٠٠ | |
| | اقبودى الفزانى ، ثالث حماة : ٧٩ |
| اوربا : ٦١ ، ٣٧ ، ١٠ | |
| | اقطاع : ٧١ ، ٦٥ |
| اورخان : ٥٩ | |
| | اكتوبر ، معركة : ٥٨ |
| اولاد الحمراء | |
| انظر | |
| اولاد الناس | |

- أولاد الناس : ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ٤٧
 بحر الأسود : ٨٤
 بحر المتوسط : ٣٧
 البحري ، مماليك : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧
 بحسبى ، الذهن : ٣٦ ، ٤٦ ، ٩٩ ، ٧٧ ، ٤٦
 بحث : ١٢٣
 بديع العظام : ٢٩٤
 البرغاليون : ٥٤ ، ١٥
 بربك الأمير : ١٩٦
 برسياوى الشرفى ، كشاف أسيوط : ٨٠
 برصة : ١٢٣
 انتظر : ١٩٦
 بورصة : ٢٩٧
 بورقة : ٢٩٧
 برقوق : ٢٩٤ ، ٦٩
 بركة الإيزيكية : ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٣٠٢
 بركة البقالة : ٢٩٥ ، ٢٩٥
 بركة الجب : ٢٩٥
 بركة الحاج : ٢٩٥ ، ٢٥
 بركة الجيش : ٣٠ ، ١٥٩ ، ٢٩٦ ، ١٦٠ ، ٣٠٢
 بركة النيل : ٢٦٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠١
 بركة الناصرية : ٣٠١ ، ١١٢
 برييس دافين : ٨
 بيسانين ، حى : ٢٩٦
 بستقان ، المقسى : ٢٩٤
 بيسار بك : ٢٤٦
 البشرية : ٨
 بشناق ، بلاد : ٦١
 بغداد : ٦٩
 البغدادى الحنبلي : ٣٦
 البكارية : ٢٠٤ ، ٢٠٥
 البكري الصديقى ، محمد بن أبي سرور : ٤١
 البكرية : ٢٩٨
 بكتاش : ٥٩
 بلاد الأضفحة : ١٦٩
 بلاد البغدان : ١١
 بليس : ٢٩٥
 بيلقان : ٥٨
 أولاد الناس : ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ٤٧
 الأولياء : ٢٨٢
 أيام ، أغا : ١٥٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٧٩
 آينونطو ، نهر : ١١
 الآيسلانيون : ١١
 آيتال : ٢٨٦
 آيتال الاجتاد : ١٠٣
 آيتال الطويل : ٢٨٥
 آيهان الثالث : ١٠
 الأيوبيه ، دولة : ٤٤ ، ٦٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢
 ب (ب)
 باب البحر : ٢٨
 باب البريمية : ٢٩٧
 باب الجبيهة : ٨٣
 باب المخنق : ٢٩٨ ، ١١٤
 باب الخوخة : ٢٩٧
 باب زويلة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٧٣ ، ٨٩
 باب المغارة : ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٨٨
 باب سعادة : ٢٩٧
 باب المسعرية : ١٧٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧
 باب الفتوح : ٣٠١ ، ٢٩٧
 باب القراءة : ٣٠٢ ، ٢٩
 باب المنظر : ٢٩٧ ، ١٧٥
 باب اللوق : ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٢٩٥
 باب هرجوش : ٢٩٧
 باب النصر : ٢٩٧ ، ١٧٦
 بايزيد ، السلطان : ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٢٦١
 بايزيد خان الثالث
 انتظر
 بايزيد ، السلطان

البيدقانيين : ١١٠

البيدقية ، جمهورية : ١١

اليهود : ١٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥

بنو فشارى : ٥٩

بنو حرام : ١٧٧

بنو عذرة : ٢٩٤

دون سعيد ، شارع : ٢٩٧

بورصة : ٨٤ ، ٦١

بولاق : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٥٢ ، ٣٣ ، ٣٠١

٣٠٢

بول كولز : ٦٢

بولونيا : ١١

بيرس ، ابن عم السلطان المورى : ٩٨

بيرين الدوادار الناصرى المنصورى : ٢٠

بيت قرابة : ١١٣

بيت جنبلاط : ١١٣

بيت يزيك : ١١٣

الميرة : ١٣ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩١

بيروت : ٧٩

بين القصرين : ٢٥٢ ، ٢٩٣

(ت)

نافى بيت المخاندان ، الأسين : ٧٨

نامي بيت النجمي ، الأمير : ٩٦ ، ١١١

اسرار : ٨٤

التجاف : ٥١

الدرخانى الصالحي : ٦٧

تشالدينان : ١٢ ، ١٥٥

تمران الشرقي ، الأمير : ٧٩

نعم الزدكانى الأمير : ٧٨

تنمر الزردكاش ، الأمير : ٩٦ ، ٩٩ ، ١٦١

١٨٦ ، ٢٠٦

تنيس : ٢٩٥

قرمان شاة : ٦٦

تيمور بهادر خان : ١١٨

٢٦٢ ، ٢١٤ ، ٥٦

تيمور لنك : ١٣٦ ، ٢١٤ ، ١٣٥

١٣٦ ، ١٣٤ ، ١٢٧

الجاشتكير : ٦٧

(ج)

بنديرين ان

انصر

مسانديران

المجامع الازهر : ٣١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩

المجامع الاعصر : ٢٩٦ ، ٢٩٤

جامع بولان عنان : ١٩٤

جامع يشكك : ٢٩٨

جامع الحاكم : ٣١

جامع التسعراوى : ٢٩٤

جامع الشيخ هرج : ٢٩٧

جامع شيشخ : ٣٠

جامع الطباخ : ٢٩٥

جامع طولون : ٢٩٦

جامع الناظر : ٣٠٢ ، ٢٩٨

الجامع المؤيدى : ٢٩

جامكية : ٢٣٩

جميلات الابيج : ١٦١

جان بردى الفزملى ، الامير : ٩٩ ، ٩٦

١٢٣

جان بولاط ايو فرسين ، الامير : ٩٩ ، ٧٨

١١٤ ، ١٣٣

جان بردى ، نائب البيرة : ٧٩

جان بردى ، نائب بيروت : ٩٩

جائم الاشرفى ، كشاف القوم وبنسا :

٩٧ ، ٨٠

جائم الحمزاوي : ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٨

جائم دوادار ، الامير : ١٢٣

جائم السيفى : ١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٤٧

١٤٦ ، ١٤٦

١٣٠ ، ١٣٠ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٥

١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦

٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٥٨

١٦٠ ، ١٦٠

الجلاؤشية : ٢٥١ ، ١٩٠

الجبيل الآخر : ٢٦

جبل الجبوش : ٢٩٨

جبل اليحاجيم : ٢٩٧

جبل يشكك : ٣٠١

الجرائكة ، المالك : ١٢ ، ٢٨ ، ٢٩

٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٢

٩١ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٧٠ ، ٦٨

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٦

١٠١ ، ٩٩ ، ٩٩

١٢٢ ، ١١٨ ، ١٠٧

١٢٢ ، ١٢٢ ، ١٢٢ ، ١٢٢

١٢٤ ، ١٢٤ ، ١٢٣

三

(七)

- حارة برجوان : ٢٨
 حارة اليهود : ٢٩٧
الحجان : ١٥
 حجازى بن بغداد ، شيخ المذهبية : ٨٠
 حدرة البقر : ٢٨ ، ١١١
 حدرة الحنة : ١٣٥
 حرب اكتوبر : ٥٢
 حسام الدين ، الامير : ١٣٢

برمك النافذ ، الأمير : ١٧٢ ، ١٦٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،
الرمد : ٢٩٦ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٢٩٦ ، ٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ،
الروافض : ٥٨ ، ٢٨٤ ، ١٠ ، مملكة : ٣٠١ ،
الروضة : ٣٠١ ،
الروملي : ٥٣ ،
الريادنة : ٤٤ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٧ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ،
٣٠١ ، ٢٤٢ ، ٢٠٩ ، ٢٠٥ ،
الزافان : ١٣٣ ،
زاوية القاصر : ٢٩٧ ،
زنبرك زاده : ٩١ ،
الزع : ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٢٤ ، ١٧٧ ،
زمطلو ، قلعة : ٩٤ ،
زمطلي ، مدينة : ٩١ ،
الزهرى : ٣٠١ ،
الزولو : ٥٥ ،
زيتب ، السيدة : ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
(س)

ساحن النيل : ٢٩٨ ،
السيعيات : ١٨٧ ،
سيبل العقادين : ٢٩٧ ،
سخا ، مدينة : ٢٢٤ ،
السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد
الرحمن : ٤٠ ،
سرياقوس : ٣٠١ ،
سفر نامة : ٢٩٩ ،
السلاجقة : ١٠ ،
سلام بن خبيث : ١٦٣ ، ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٥

السلحداوية : ٢٧٩ ،
سليم ، السلطان : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٩ ، ٢٤ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥

خوشتم : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٣٨٣ ، ١٨٤ ،
خوش كلدي ، امير : ١١٣ ، ١٢٣ ،
خوند بنت قانبيرى المغزالى : ٢٥٧ ،
خوند مصر بيك : ٢٨٣ ،
الخريبكية : ٢٨٣ ،
(د)
داود ياشا : ٢٩٢ ،
الداودية : ٣٠٠ ،
دبليات : ٥٢ ،
دراب انجمامين : ٢٩٨ ،
دروز : ٢٧٢ ،
الدشيشة : ٣١٢ ،
المدرداش احمد : ٤٢ ،
دمشق : ١٠٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
دمياط : ٣٦ ،
ديشور : ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ،
دوليتاي ، متولي القدس والرملة : ٧٩ ،
١٠٥ ، ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ،
٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٨٣ ،
ديار يكر : ٣٥ ،
الديار يكرى ، حسين بن محمد : ٤١ ،
دين الطين : ٢٩٦ ، ٣٠١ ،
دين العظام : ٢٩٧ ، ٢٩٦ ،
ديوان الاشقاء : ٢٢ ،
(د)

الذهبى ، شمس الدين احمد
(د)
رأس الرجاء الصالح : ١٥ ، ٥٧ ،
رأس سوينة الحزه : ١١٢ ، ١١٢ ، ٢٨ ،
رأس المصلىة : ١١٢ ، ١١٢ ،
رأس المذبحة : ١١١ ، ٧٧ ،
رأس نوبة النواب : ٧٧

- قايتباي السلطان : ٢٩٤ ، ٩١ ، ٨٣ ، ٨٩
 ٢٦١ ، ٢٤٩ ، ١٥٥
 قايد أغا : ١١٢
 قايكوت رأس نوبة ، الأمير : ٦٦١
 قبيلة الهواوين : ٢٣ ، ٤٨ ، ١٤٥
 القدس الشريف : ٧٩
 القراءة : ٤٦ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٠٩
 ١١٦
 القراءمة : ٢٩٧
 القربيين : ٥٢ ، ٤٥ ، ٤٤
 قرب عباس ، الأمير : ١٢٣
 قرقورد : ٨٧ ، ٦١ ، ١٢
 القرم : ٦٧
 قرية ميدان : ٢٩٦
 قرية أم دنيس : ٢٩٦
 قاز لباش : ٣٦٧
 القسطنطينية : ١٠ ، ١١ ، ٨٤ ، ٥٧ ، ٨٦
 ٨٧ ، ١٠٥ ، ٢٦١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩
 ٢٩١ ، ٢٨٤
 قسم الخلية : ٢٩٦
 قسم السيدة زينب : ٢٩٨
 المصراويق : ٣٠١
 قصر الشوك : ٢٩٧ ، ٢٩٤
 قضا بردى ، نائب الاسكتلندية : ٨٠
 القطائع : ٢٩٨
 قطن : ٥٢
 قطانياً : نائب : ٧٩ ، ٧٨
 قلاعون : ٣٠١
 قلچ ، الأمير : ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢١٤
 قلعة الجبل : ٢٩٦
 قلعة الروضة : ٦٦
 قلعة الروم : ٧٩
 قلعة الكيش : ١١٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨
 القاشندي ، أبو العباس : ٢٣
 قنطرة السباع : ٣١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٦
 ٣٠١
 قنبردي الفرزالي ، الأمير
 انظر

الفاطميون : ٢٩٥ ، ٢٩٨
 الفرما : ٢٩٥
 فرهاد ياشا ، الوزير الأعظم : ١٢٥ ، ٨٦
 ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ١٢١
 فريول ، اقليل : ١١
 القسططاط : ٢٩٢ - ٢٠٠
 الفلاح : ٧١
 الفلاوية : ١٧٧
 فلورنسا جمهورية : ١٨
 فوة : ٢٦٢
 الفيوم : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٨٧ ، ٢٥٨
 ٢٨١

(٩)

العابوجية : ٢٥٢
 عاصم يسما : ٢٨٥
 العصدد دين الله ، الخلقة الفاطمي : ٣٠٠
 شخص العصدة : ٦٩
 قاديري الفرزالي : ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧١
 ١٧٢ ، ١٧٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ١٨٥
 ٢٢٢ - ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧
 ٢٤٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩
 ٢٥٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥
 ٢٦٤ ، ٢٧٠ - ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠
 ٢٩٦

قانصوه بن السلطان جركس : ٩٨ ، ٧٨
 قانصوه أبو سنة ، الأمير : ٩٩ ، ٧٨ ، ٧٧
 قانصوه استدار ، الأمير : ١٢٣
 قانصوه الناجي ، الأمير : ٧٧
 قانصوه العادلي : ٨٠ ، ١٣٣ ، ١٧٣
 ٢٠٧ ، ١٩٦ ، ١٩١ ، ١٧٩
 ٢٢٢ - ٢٢٤ ، ٢٢٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥
 ٢٦٨ - ٢٦٥

قانصوه المغوري
 انظر

قنصوه الغوري

القاهرة : ٧ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٢٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٧٠
 ٣٠٣ ، ٣٠٢

كشافو الباب : ٧٦

كلوت بك : ٢٩٤

كمال اغا : ٨٥

كنيسة مار جرجس : ٣٠٠

كورون : ١١

الكونة : ٨٧

كيمان الريش : ١٧٤

(ل)

لا بن عثمان : ٢٦

لود فيجو فارياما : ٤٩ ، ٤٨

لوجين : ١٨٩

(م)

ممى . الامير : ١١٣ ، ١٦١

المجر : ١٢ ، ١١

مجس الحرب : ٥٢

محارب : ٢٣١

محب الدين احمد بن نصر الله : ٣٦

محب الدين الحمدى : ٤٢

مسى ، قريب السلطان سليمان :

٢٩٢

محمد ، بن السلطان الغورى : ٩٧ ، ٧٧

١٢٣ ، ١٥٧

١٢٤ ، ١٥٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٣

٢٦٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥

٢٩٣ ، محمد بن طفخ :

محمد بن طومان باي : ١١٥

محمد بن قرقاش ، الامير : ٢٧١ ، ٢٧٩

٢٧٩ ، ٢٨١

محمد على :

محمد فريد : ١٢

محمود بن رمضان : ١٣٠

محمود الثاني : ٦٠

مدرسة امير آخر : ١١٣

مدرسة الداسطية : ١١٣

المدرسة الديوبسيه : ٢٥٤

مدرسة السلطان الغورى : ٣٤

مدرسة لاجين : ١١٢

قانبردى الغزالى

قصوه ، ابو سنة ١١٣ ، ١٢٣

قصوه اصلة : ١١٤

قصوه ، بن السلطان جركس : ١٥٤

قصوه وجلة : ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤

قصوه روح لو : ٣١

قصوه الغوري : ٨٢ - ٨٣ ، ٢٣ ، ٣٥ - ٥٣

، ٨٣ - ٤٧ ، ٤٧ ، ٥٣ - ٥٥ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٥ ، ٩٢ - ٩٣

، ٩٣ - ٩٥ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٣٥

، ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٢٤ ، ١٨٩ ، ١٦٤

٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣

قصوه الفاجر : ١١١ ، ١٣٣ ، ١٦٦

قصوه كرت ، الامير : ٩٩ ، ١١٢ ، ١١٣

، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢٠٦

، ٢١١ ، ٢٢٤

قطره قيدار : ٢٨

القوانين التسرية : ٦٩

قيت رحبي ، الامير : ١٦٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٢

٢٠٨

قيصر بـ : ٩٥

(ن)

الكافش : ٦٥

كافور الاخشيدى

انظر

الاخشيدى ، محمد بن طفخ

الكبش : ١٣٥ ، ٣٠١

كريباى الوالى : ٩٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١

، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ، ٢١٥

٢١٧

كرت بيك الوالى ، الامير : ٧٨

كرد : ٢٧٢

الكرك : ٦٦ ، ٦٨

كركوك

انقلار

قرقوز

- المدرسة المغربية : ٣٠١
 عراد خان الثاني : ١٠
 مرج دابق : ٧ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٧٢ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٨ ، ٩٥ ، ٩٧
 مرجوش : ٢٥٢ ، ٣٣
 مرعشن : ٨٨ ، ١٣
 المربك : ٢١
 المستنصر ، الخليفة : ٢٩٩
 مسجد المؤيد : ٢٩٧
 مسد ، الامير : ١٢٣
 الشهيد النقيش : ٣٠١
 صاحب القيمة : ٣٠١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٣
 مصر العتيقة : ٣٠١
 انظر مصر القديمة
 المطربية : ٢٩٣ ، ٢٩٨
 مظفر الدين موسى : ٦٧
 المعز عن الدين ابيك الحاشتكي : ٦٧
 المعز لمدين الله المفاطمي : ٢٩٩ ، ٢٩٦
 المعتل : ٢٩٦
 المغرب : ٢٩٩
 مغلبى ، الامير : ١٣ ، ٩٢ ، ٩٦
 المقنيسيا : ٦١ ، ٨٤ ، ٨٧
 المقول : ١٠ ، ٢٠ ، ٥٢ ، ٥٦
 المقرizi ، نقى الدين : ٣٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢
 ناصر الدين بن الحسن ، الامير : ١١٧
 ناصر الدين بن الحتش ، الامير : ١١٠ ، ١١٨ ، ٢٢٣ ، ٢١٤ ، ٢٢ ، ٢٩٩
 الناصر محمد بن قايتباي : ٢٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٤
 للناصرى خسرو : ٢٩٩
 الناصرية : ٢٨
 ناورين : ١١
 النبي نوح : ١٥٥
 نجم الدين ايوب : ٣٠١
 النحاسين : ٢٩٧ - ٢٩٤
 نقية ، السيدة ، ٢٩٦ ، ٢٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٨
 نقشبانى الامير : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٦ ، ٢٢٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
 النيل : ٢٢٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١

(ن)

- نابليون بونابرت : ٧ ، ٤٤ ، ٥٥
 نابولى : ١١
 الناصر بن قلاوون : ٢٩٩
 ناصر الدين بن الحسن ، الامير : ١١٧
 ناصر الدين بن الحتش ، الامير : ١١٠ ، ١١٨ ، ٢٢٣ ، ٢١٤ ، ٢٢ ، ٢٩٩
 الناصر محمد بن قايتباي : ٢٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٤
 للناصرى خسرو : ٢٩٩
 الناصرية : ٢٨
 ناورين : ١١
 النبي نوح : ١٥٥
 نجم الدين ايوب : ٣٠١
 النحاسين : ٢٩٧ - ٢٩٤
 نقية ، السيدة ، ٢٩٦ ، ٢٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٨
 نقشبانى الامير : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٦ ، ٢٢٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
 المنصور ، حاجى بن الاشرف : ٦٨
 المنصور ، قلاوون : ٢٠
 المنصورية : ٢٩٦
 منفلوط : ١٩٢
 منكاش ، الامير : ٦٨

يتبكي ملوخية ، الامير : ١٦١ ، ١٦٢
البيكتوجرافية
يائقو
الانكشارية
يلبغا الترجماني : ٣٦
يلبغا المعاصرى : ٦٧
يلبغا المعاصرى : ٦٨
اليهود : ١٥٤
يوسف الشreibى : ٢٠ ، ١٩ ، ٢١
اليوتان : ١١ ، ٣٧
يونس باشا نائب عنتاب : ٧٩ ، ٩٥
١٢٢ ، ١٣١ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٥٧
٢٦٨ ، ٢٤٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٠
يونس البدوى ، كشاف دمنهور : ٨٠
يونس المصرى
انتظر
لودفيجو فارتما

هكس ، حملة : ٥٥
الهند : ١٥ ، ٥٧ ، ٢٩١
المواارة : انظر قبيلة المواارة
المولنديين : ٥٤

(و)

الورتلاتى ، الحسين بن محمد : ٤٢
وروان ، قرية : ٢٢٣
الوغاد : ١٠٠

(ه)

يعبي بن أزيك ، الامير : ١٧٣ ، ١٧٧ ،
١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٢٢ ،
٢٣٥
يزبك المكحل ، الامير : ٧٨
يشبعك الدودار ، الأقير : ٨٩ ، ٩٠

القرا في هذه السلسلة

- جوزيف دامهوس
سبع معارك فاصلة في العصو
الوسطى
- ليتوابر تشايمبرز زابيت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية لازاء مصر
- د. جون شندرل
كيف تعيش ٣٥ يوماً في
الصلة
- بييد البير
المسحافة
- د. غريمال وبهبة
ر. القومية الالمانية لادانتي
في الفن التشكيلي -
- رسيسن عوض
لذاب الروس قبل الثورة
البلشفية وبعدها
- محمد عثمان جلال
كة عدم الاختيار في عالم
منظور
- فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوروبي الحديث ؟
- شوكري الريبيعي
الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي
- محى الدين احمد سمير
الكتشنة الاسرية والبناد الصغار
- ج. داملن الدرو
نظريات الفيلم الكثري
- جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصي
- جوهان دورشر
حياة في الكون كيف تحدث
وابين توجد
- ماحة من الجناء الأمريكيين
مبادرات النطاع الاستراتيجي
حرب الفضاء
- السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية
- مصطفى عسادى
اليكروكسيبوت
- مجموعة من الكتاب اليابانيين القداماء
والمحدين
- مختارات من الأدب الياباني
الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة ،
- بيل شول وادينيت
القوة النفسية لللامرأة
- صفاء خاروس
فن الترجمة
- فالقى ماتلر
تولستوى
- فكتور برومير
ستندال
- فيكتور هوجر
رسائل وأحاديث من المتنى
- فيذرر هيرنبروج
الجزء والكل « معاورات في مقدم
الزيادة الذرية »
- ستفان هوك
القائد القاطعن - ماركس
والماركسيون
- ف. ع. ادينكون
فن الأدب الروانى عند تولستوى
- هادى نعمان البياعى
أدب الشصال - فلسطنه - فتوه
وسلطنه »
- د. نعمة رحيم العزاوى
احمد حسن الزيات كلها وتأثرا
- د. فاضل احمد الطالب
اعلام الغرب في الكيمياء
- جلال العشري
كرة المسرح
- منى باريوس
البعضم
- د. السيد عليوة
موقع القرآن السياسي في
مقامات الادارة العامة
- چاكوب برترافسكي
التطور الحضاري للإنسان
- د. روجر ستريجان
هل تستطيع تعليم الأطفال
للأطفال ؟
- كاثرين ثير
 التربية النواجع
- أ. سيندر
الموئلي وعالمه في معه
الكلية
- د. ناصر بورقيبة
التعلم والطب
- برتراند رول
- احلام الاعلام وقصص افري
- ى. دارو نيكاباوم جابوتتسكي
الاكترونيات والحياة الحديثة
- الدنس هكسنل
- نقطلة مقابل نقطلة
- ت. د. فريمان
الجغرافيا في عالمه عام
- رامبراند واليام
الثقافة والمهاجع
- د. ج. فوريس وآخرون
تاريخ العلم والتكنولوجيا
- ليسترديل راي
الإرث القائم
- والتر كان
الرواية الانجليرية
- لويس فاراجاس
الوشد التي في المسرح
- فرانسوا موبلان
الله مصر
- د. قرى حفني وآخرون
الإنسان المصري على الشاشة
- أواد فولك
- القاومة مدينة الف ليلة وليلة
- هاشم النجار
الهوية القومية في السينما
- ديفيد ولیام ماکدرال
مهمومات التقود - مهاراتها
تصنيفها - عرضها
- عزيز الشوان
داوسيتي تغيير نفسى ومتطل
- د. محسن جاسم الموسى
عمر الرواية
- ديلان توماس
مجموعه مقاولات نقدية
- جون لويس
الإنسان ذلك الكائن الفريد
- جول ويس
- رواية المدينة - الإنجليزية
والفرنسية
- د. عبد المعطى شعراوى
المسرح المصري المعاصر
- احصله ويدايه
- أنور الصادوى
على مجده ملء الشاعر والقسان

جابريل بادر
تاريخ ملكية الأرض في مصر
الحديثة

اطعني دي كريستين وكونيد هنريج
اعلام الفلسفة السياسية
المعاصرة

دوايت سوير
كتابه السياسي للسيفما

زاليلسكي فـ سـ
الزمن وقياسه (من جزء من
البليون جزء من الثانية وحقى
مليارات السنين)

مهنس ابراهيم القرضاوى
أجهزة تكيف الهواء

بيتر رادى
الخدمة الاجتماعية والانشطة
الاجتماعي

جوزيف داموس
بيعة مؤرخين في العصور
الوسطى

سـ مـ بـراـ
التجزئة البوتانية

دـ عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر
الإسلامية

ونالـ سـ سـيسـونـ وـنـورـمانـ دـ
أندرسـونـ
الـعـلـمـ وـالـطـلـابـ وـالـمـدارـسـ

دـ انـورـ عـبدـ الـكـلـكـ
الـشارـعـ الـصـرـيـ وـالـكـرـ

ولـتـ وـتـيمـانـ روـسـتوـ
عواـرـ حـوـلـ الـتـقـنـيـةـ الـاتـصـادـةـ

فرـدـ سـ مـيسـ
تبـسيـطـ الـكـبـيـاءـ

جزـنـ لوـرسـ يـورـكـهـارتـ
الـعـادـاتـ وـالـقـالـيدـ الـصـرـيـهـ
منـ الـأـمـشـالـ الشـعـبـيـةـ فيـ عـدـ
محمدـ عـلـىـ

الـآنـ كـاسـبـيـارـ
الـذـوقـ الـسـيـمـاـنـيـ

سلـسـ عـبدـ المـطـىـ
التـخـلـيـطـ السـيـاحـيـ فيـ مصرـ

بيـنـ النـظـرـيـةـ وـالـتـطـبـيقـ
هـوـيلـ وـشـانـدـرـاـ وـيـكـرـاماـ سـينـجـ

حسـينـ حـلـمـيـ الـهـنـدـسـ

بيـنـ النـظـرـيـةـ وـالـنظـرـيـةـ
وـالـتـطـبـيقـ)ـ السـيـسـيـاـنـوـ الـطـيـلـاـنـيـوـنـ

بـ كـوـمـلـانـ
الـأـسـاطـيـلـ الـأـغـرـيـقـيـةـ وـالـرـومـانـيـةـ

دـ توـمـاسـ اـهـارـسـ
الـتـوـافـقـ الـفـانـيـ -ـ تـحـمـيلـ
الـمـاـمـالـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ

لـجـنةـ التـرـجـمـةـ

الـمـلـلـ الـأـعـلـىـ لـلـقـاـدةـ
الـدـلـيـلـ الـبـيـلـيـوـجـرـافـيـ

روـانـ الدـاـدـ الـعـالـيـةـ جـ ١ـ

روـىـ أـمـرـ

لـفـةـ الصـوـرـةـ فيـ السـيـنـماـ الـمـعاـصرـ

نـاجـائـ مـشـتـيرـ

الـذـرـةـ الـاصـلـاحـيـةـ فيـ الـيـابـانـ

بـولـ هـارـسـونـ

الـعـالـمـ الـثـالـثـ عـدـاـ

مـيـكـاـنـيـلـ الـبـيـنـ وـجـيـمـسـ نـلـفـرـهـ

الـلـاـقـاـنـ الـكـبـيرـ

أـدـامـ غـيلـبـ

دـلـيـلـ تـنـظـيمـ الـمـاـضـ

فـيـكـتـورـ مـورـجـانـ

تـارـيـخـ الـلـقـودـ

مـحمدـ كـمـالـ إـسـامـيـلـ

الـتـحـلـيلـ وـالـتـوزـعـ الـأـورـكـسـتـرـالـ

أـبـوـ الـقـاسـمـ الـفـقـدـيـ

الـشـاهـاتـهـةـ جـ ٢ـ

بـيرـتونـ بـورـترـ

الـحـيـاةـ الـكـرـيـمـةـ جـ ٢ـ

جاـكـ كـرـايـسـ جـويـورـ

كتـابـةـ الـتـارـيـخـ فيـ مـصـرـ الـقـرنـ

الـتـاسـعـ عـشـرـ

مـحمدـ فـؤـادـ كـرـبـلـيـ

قـيـامـ الـدـوـلـةـ الـعـلـمـيـةـ

لوـنـ بـارـ

الـتـصـيـلـ الـسـيـمـاـنـ وـالـلـاـيـلـيـزـ

تـاجـورـ شـينـ بـينـ جـ ١ـ وـ ٢ـ

مـقـاتـلـاتـ الـأـوـادـ الـإـسـبـوـيـةـ

ناـصـرـ حـسـنـ عـلـويـ

سـفـرـةـةـ

نـادـينـ جـورـديـرـ جـرجـيسـ أـوـجـوهـ

وـآخـرـونـ

سـلـوطـ الـمـطـ وـقـصـرـ آخـرـ

أـحمدـ مـحمدـ الشـنـوـلـ

كتـبـ غـيـرـ الـكـرـ الـإـسـلـامـيـ

جـ ٧ـ

جانـ لـوـيسـ بـورـدـ وـآخـرـونـ

فيـ الـنـقـدـ الـسـيـلـمـيـ الـفـرـنـسـيـ

المـلـمـانـيـوـنـ فيـ أـورـياـ

بـولـ كـولـزـ

روـيـ روـبـرـتـسـونـ
الـبـهـرـوـنـ وـالـأـدـنـ وـأـخـرـهـماـ

الـجـلـمـعـ

دورـ كـاسـ ماـكـلـيـمـوكـ
سـورـ الـفـيـرـيـةـ .ـ فـقـرـةـ عـلـىـ
حيـوانـاتـ الـفـيـرـيـاـ

هاـشـمـ النـحـاشـ

تـجـبـ مـفـهـوـمـ عـلـىـ الشـاشـةـ

دـ مـحـمـودـ سـرىـ مـلـهـ

الـكـوـمـبـوـتـرـ فيـ مـهـالـاتـ الـحـيـاةـ

بـيـترـ لـورـىـ

الـمـدـرـدـاتـ حـقـائقـ فـسـيـهـ

بـوريـسـ غـيـدـرـوـرـوـفـيـتشـ سـيرـجـيـ

وـفـلـافـ الـعـصـاءـ فيـ الـأـلـفـ

الـيـاءـ

وـيلـيـامـ بـيـنـ

الـهـدـمـةـ الـوـرـاثـيـةـ لـلـجـمـيعـ

دـيفـيدـ الـدـرـتـونـ

قـرـيبـةـ اـسـمـكـ الـزـيـنةـ

أـحمدـ مـحـمـدـ الشـنـوـانـ

كتـبـ غـيـرـ الـكـرـ الـإـسـلـامـيـ

جوـنـ رـ بـورـ وـمـيلـتونـ جـولـديـنـ

الـفـلـسـفـةـ وـقـصـيـاـ العـصـرـ جـ ٣ـ

أـرـشـوـلـ تـوبـيـنـ

الـفـكـرـ الـأـخـرـيـ عـنـ الـأـخـرـيـ

دـ صـالـحـ رـصـاـ

مـلـامـ وـقـضـيـاـ فـيـ الـفـنـ

الـتـشـكـلـيـ الـمـاـعـصـرـ

مـ هـكـنـ وـأـخـرـونـ

الـفـنـيـةـ فـيـ الـبـلـدـانـ الـقـاسـمـيـ

جـورـجـ جـامـرـ

يـدـاـيـةـ يـلاـ قـهـوةـ

دـ السـيـدـ طـ السـيـدـ أـبـ سـيدـرـ

الـحـرـفـ وـالـصـنـاعـاتـ فـيـ مـصـرـ

الـإـسـلـامـيـةـ مـذـذـقـ الـفـتـحـ الـعـرـبـيـ

حتـىـ ظـاهـرـ الـعـصـرـ الـفـاطـمـيـ

جـالـيلـيـ جـالـيلـ

حـوارـ حـوـلـ الـنـظـارـمـ الـرـئـيـسـيـنـ

لـلـكـونـ جـ ٢ـ

أـرـيكـ مـورـيـسـ وـلـانـ دـ

الـرـهـابـ

سـيـرـلـ الـنـرـدـ

اـخـلـاـنـ

أـرـثرـ كـيـنـتـرـ

الـقـبـلـةـ الـثـالـثـةـ شـرـةـ وـيـهـودـ

الـلـوـمـ

د. بيار دروج	د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ	د. يحيى ناصر	د. يحيى ناصر
الإذه في المف عام	وصلة بيرتون إلى مصر والمخابرات	الملائكة المحتلية	سلطان الخلود
ستيفن رانسيمان	٢	العملات الصليبية	رويس بير بربر
حفلة بيرتون إلى مصر والمخابرات	٣	٤	زيموندت هير
د. ج. ولز	٤	٥	عمالات في الخارج
معالم تاريخ الإنسانية	٦	٧	جوناثان ريلي سميث
٨	٨	٩	حملة الصليبية الأولى وكرة
جورج ستاينر	٩	١٠	الحروب الصليبية
بيه كوكستوي وبوستويفسكي	١٠	١١	الفريد ج. بتلر
١١	١٢	١٣	الكتائب القبطية القديمة في مصر
بانك لافرين	١٣	١٤	ريتشارد شاخت
رومانтика والواقعية	١٤	١٥	رواد الفلسفة الحديثة
محمود سامي عطا الله	١٥	١٦	ترافق زرادشت
الفيلم التسجيلي	١٦	١٧	عن كتاب الألفية المقدس
جوزيف بنس	١٧	١٨	الماج يوشى المصري
رحلة جوزيف بنس	١٨	١٩	وصلات فارطينا
ستانلى جيه سولومون	١٩	٢٠	هربرت ثيلر
النوع الفيلم الاميركي	٢٠	٢١	الاتصال والهيبة المقاومة
مارى ب. ناش	٢١	٢٢	برتراند راسل
الشعر والبيضاء والسود	٢٢	٢٣	السلطة والفرد
جوزيف م. بروجز	٢٣	٢٤	بيتر نيكولز
فن الفرجة على الأفلام	٢٤	٢٥	السيفنا الخيالية
كريستيان ديريش نيكولز	٢٤	٢٦	أنواره ميرى
الراحة المروعية	٢٤	٢٧	عن النقد السينمائي الاميركي
جوزيف بندام	٢٥	٢٨	نقالي لويس
موجز تاريخ العلم والحضارة	٢٥	٢٩	مصر الرومانية
في الصين	٢٥	٣٠	ستيفن أوسمان
ليرناردو دافنشي	٢٥	٣١	التاريخ من شتى جوانبه
نظرية التصوير	٢٥	٣٢	موسى براج وآخرون
٣٢	٣٢	٣٣	السينما العربية من الخليج إلى
ت. ج. ه. جيبن	٣٢	٣٤	المحيط
كتوز الفراولة	٣٢	٣٥	فاس مكار
رودولف فون هاسبروج	٣٢	٣٦	أفهم بصفتي البشر
وصلة الأمير رودولف إلى الشرق	٣٢	٣٧	جابر محمد العزار
٤	٣٧	٣٨	ماسترفيخت
مالكوم بيراديри	٣٧	٣٩	ـ إبرار حريم آلة
الرواية اليوم	٣٧	٤٠	ـ من هم للتار
وليم هاريسون	٣٧	٤١	ـ ج. س فريزر
وصلة ماركوك بولو	٣٧	٤٢	ـ الكاتب الحديث وعلمه
ـ هنرى بيرلين	٣٧	٤٣	ـ
تاريخ أوروبا في المصادر الوسطى	٣٧	٤٤	ـ موريال عبد الملك
ديفيد شنيدر	٣٧	٤٥	ـ حديث النبأ
قطالية الأدب المعاصر وقراءة الشعر	٣٧	٤٦	ـ من روائع الأداب الهندية
أشق عظيرف	٣٧	٤٧	ـ لوريتو تود
العلم وأفاق استقبل	٣٧	٤٨	ـ مدخل إلى علم اللغة
رونالد دافيد لانج	٣٧	٤٩	ـ أتحققيفوا
الحكمة والجنون والحكمة	٣٧	٥٠	ـ الشموس المفقودة
ـ كارل بور	٣٧	٥١	ـ أسرار المصوّر نوفا
ـ بحثا عن عالم أفضل	٣٧	٥٢	ـ مارجريت رور
ـ فورمان كلارك	٣٧	٥٣	ـ ما بعد الحادة
ـ الاقتصاد السياسي للعلم	٣٧	٥٤	
ـ والتكنولوجيا	٣٧	٥٥	

- السيد تصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الطلق
- مدروج عطية
البرنامج التلوبي الإسرائيلي
وأقلم القومى العربى)
- د. ليورن سكاليا
الحب
- إدوار إيمانوس
- مهمل تاريخ الفن الإنجليزى
- هيربرت ريد
التربية من طريق الفن
- ويليام بيترز
معجم الكلمات الحيوانية
- الغين توثر
تحول السلطة ٢ ج
- يوسف شراة
مشكلات القرن الحادى والعشرين
- والعلاقات المولية
- رولاند جاكوبون
الكتيماء فى خدمة الإنسان
- ت ج. جيمس
الحياة أيام القراءلة
- چرج كاشمان
لماذا تكتب الرواية ٢ ج
- حسام الدين ذكري
كتفون بروكتر

- روبرت سكولز والخرون
أفاق أدب الخيال العلمى
- بـ من ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان
- من هوارد
أشهر الرحلات الى غرب افريقيا
- و بارقولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى
- فلاديسير قيمانيانو
تاريخ أوروبا الشرقية
- جايريل جاجارسيا ماركينز
الجمال فى المائة
- منى بргسون
الفحولة
- د. مصطفى محمود سليمان
الازال
- م و ثنيج
شمسير الملايين
- أ و جرس
العيدين
- ستينو مرسيكاثن
المحضارات السامية
- د. البرت حوراني
تاريخ الشعوب العربية
- ونفرد هولز
كانت ملكة على مصر
- جيسم منزى برستد
تاريخ مصر
- بول دافيز
المقالق الثلاث الأخيرة
- چولوف ومارى فيلدمان
فيزيائية الفيلم
- ج. كونتنو
الم歇ارة الفيزيائية
- الرخصت كاسبرو
فى المعركة التاريخية
- كتن ١ كشن
رمسيس الثاني
- جان بول سارتر وأخرون
سلطات من مصر العالى
- بورالند وجائد يانسن
الظل المصري القديم
- نيكولاوس ماير
شيكوك هوتز
- ميجل دي ليبس
القرآن
- جوسپين دي لوتا
موسى كيني
- الوزير جرالية
موهسارت

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٠٠٢ / ١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 5928 — X



رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس